دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

الإيمان بالمسيح

الأب متى المسكين

دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

الإيمانُ بالمسَيح

الأب متى المسكين

كتاب: **الإيمان بالمسيح**
المؤلِّف: **الأب متى المسكين**
الطبعة الأولى: ١٩٧٠
الطبعات اللاحقة: ١٩٧٨، ١٩٨٧، ١٩٩٣، ١٩٩٩، ٢٠٠٤،
الطبعة السابعة: ٢٠٠٩
مطبعة دير القديس أنبا مقار - وادي النطرون
ص. ب ٢٧٨٠ القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١١٦٩٢ / ٢٠٠٩.
رقم الإيداع الدولي: 6 - 269 - 240 - 977

متى المسكين، ١٩١٩ - ٢٠٠٦
الإيمان بالمسيح / متى المسكين
ط٢. — وادي النطرون: دير القديس أنبا مقار برية شيهيت، ٢٠٠٩
٢١٦ص، ٢٠سم.
تر مك ٩٧٧ ٢٤٠٢٦٩٦

٢٧٣,٢

١ — المسيح
٢ — الرسل

الفهرس

مقدمة : معنى الإيمان بالمسيح ٧
تمهيد : كيف نفهم المسيح؟ ٢٠
ما هو التجسد؟ ٢١
أساس عقيدة التجسد ٢٣
شهادة المسيح عن نفسه فيما يختص بلاهوته ٢٥
الباب الأول: ابن الله ٢٩
الفصل الأول: تساوي الآب بالابن ٣١
الفصل الثاني: إرسالية الآب للابن ٤٨
الفصل الثالث: طبيعة رسالة المسيح الإلهية وأهدافها ٥٢
أولاً: طبيعة الرسالة ٥٢
ثانياً: مظهر الرسالة ٥٨
ثالثاً: برهان ألوهية الرسالة ٦٢
رابعاً: قوة الرسالة ٦٩
خامساً: مجد الرسالة ٧٥
سادساً: سلطان الرسالة ٨٤
الباب الثاني: ألقاب المسيح ذات المدلولات اللاهوتية ٩٣
الفصل الأول: **لقب "المسيح" أو "المسيا"** ٩٥
الفصل الثاني: **لقب "الخادم المتألم"** ١٠٧
الفصل الثالث: **لقب "ابن الإنسان"** ١١٥
الفصل الرابع: **لقبا "الغصن" و "الكرمة الحقيقية"** ١٢٧
الفصل الخامس: **لقب "الخبز الحقيقي" (المن الجديد)** ١٣٧
الفصل السادس: **ألقاب "الحمل" و "الراعي" و "باب الخراف"** ١٤٣
شعب إسرائيل كقطيع غنم ورؤساؤه رعاة ١٤٨
كيف فسدت الرعيَّة وفسد الرعاة ١٤٩
المسيَّا كراعٍ إلهي يأتي بقوة وحنان ١٥٠

المسيَّا كحَمَل مذبوح ١٥٢
العلاقة بين الراعي الصالح والحَمَل المذبوح ١٥٦
أنا هو باب الخِراف ١٥٩
العلاقة بين الحَمَل المذبوح والباب ١٦٣
الفصل السابع: **لقب "الطريق"** ١٦٥
الفصل الثامن: **لقب "الحق"** ١٦٩
الفصل التاسع: **لقب "الحياة"** ١٧٥
الفصل العاشر: **لقب "النور"** ١٨٤
المسيح هو النور الحقيقي ١٨٧
الفصل الحادي عشر: **لقب "الكلمة"** ١٩٣
العهد القديم و«كلمة الله» ١٩٣
المسيح «كلمة الله» ١٩٩
خـــاتمـــة ٢١٤

مقدمة

معنى الإيمان بالمسيح

في شخص المسيح تتجسَّد حقيقتان ملتحمتان: حقيقة الله، وحقيقة الإنسان!

بدون المسيح تظل حقيقة الله بعيدةً كل البعد عن إدراك الإنسان وعن إحساسه ووجدانه، إذ يبقى الله وحيداً بعيداً منفصلاً عن كياننا، حيث لا نملك أن نعظِّمه أو نكبِّره إلا بالإمعان في تصوُّره بعيداً وحيداً متفرِّداً في ذاته منفصلاً كل الانفصال عن كياننا الترابي الملوَّث بالخطية.

كذلك أيضاً بدون المسيح تظل حقيقة الإنسان متردِّية في إحدى هوَّتين:

١ - إما في هوَّة التفاهة، كخليقة ترابية فقدت القدرة على متابعة وجودها الخالد، عاجزة عن تحقيق هدفها الروحي الأسمى، يمنعها الموت عن البقاء وتُفقدها الخطية أعزَّ ما تملك وهو حريتها الروحية! حيث يعيش الإنسان ليأكل وينسل ويموت ولا تكون الروحيات عنده إلاَّ أُمنية وسراباً.

٢ - وإما في هوَّة العظمة المزيَّفة، حينما يكتشف الإنسان عنصر خلوده فيتشبَّث به ويتألَّه من دون الله حيث يرى في نفسه أصل وجوده، متغاضياً عن تفاهة جُبْلته الترابية الزائلة، متعامياً عن عنصر الخطية الذي يجعله دون أن يدري عبداً لغرائزه أسيراً للموت والفساد.

ولكي نفهم عظمة الإيمان بسر المسيح الذي فيه تلتحم حقيقة الله بحقيقة الإنسان، يلزمنا أولاً أن نسأل:

ما هو هدف الإنسان في الحياة، وما هي غاية وجوده وحياته؟

وعلينا أن نتيقَّن من استحالة القول بأن مجرَّد حياة الإنسان هي غاية وجوده، لأن ذلك معناه أنه لا يفترق شيئاً عن أي حيوان، وهذا لا يتفق إطلاقاً مع حقيقة الإنسان الذي يشعر بروحه أنه سيد الخليقة المنظورة وقد أُعطي سلطاناً عليها جميعاً وقد أخضعها بالفعل لإرادته (تك ١: ٢٨). كذلك فإنه مهما حقّق الإنسان من تطلُّعات لتأمين حياته فإنه يظل يطلب شيئاً يفوق حياته ووجوده!

إذن، يتحقَّق بالفعل واليقين أن غاية الإنسان لا يمكن أن تقف عند حياته أو مجرَّد وجوده، هذا معناه أن غاية الإنسان تتعدَّى لتشمل شيئاً آخر، أو بالحري ذاتاً أخرى أعظم بلا قياس، خُلق أصلاً من أجلها، وعندها ينتهي وجوده وتكمل حياته، وبالتالي عندها تنتهي بالضرورة غايته العظمى التي من أجلها يعيش ويتحقق له فيها منتهى سعادته.

الله خلق الإنسان على صورته **ليكون الإنسان شاهداً بذاته لوجود ذات الله**، أي ليحقق بوجوده وجوداً آخر وتظل حياته وأعماله وعبقريته برهاناً عملياً لمجد الله. فإذا أحسَّ الإنسان ذلك وآمن به واتجه نحوه، فإنه يدخل في الحال في انسجام مع الله وبالتالي في انسجام مع ذاته، حيث يحس بأنه يحيا في سبيل تحقيق الغاية العظمى من وجوده وحياته، أي **الشهادة لله وتمجيده بكل أعماله وكيانه**. وبالفعل، فقد استطاع الإنسان أن يبلغ هذه التجربة ليخرج منها بالحقيقة الثابتة أن السعادة كل السعادة للإنسان تتوقف دائماً أبداً على مقدار **تحقيقه لتمجيد الله بحياته، وهو الهدف الأسمى الذي من أجله قد خُلِق**.

العلاقة المتبادلة بين الله والإنسان،

ظهرت في شخص الرب يسوع المسيح:

إذن، فهناك علاقة صميمية متبادلة بين الله والإنسان. هذه العلاقة ظلَّت غير واضحة ومطمورة تحت ظلمة جهل الإنسان، إلى أن وضحت فجأة في صميم التاريخ حينما ظهرت في أَوَجِ نورها ومثلها الأعلى في شخص يسوع المسيح؛ وحينئذ بدأ عصر المعرفة الحقة والاستنارة للإنسان حينما **اكتشف الإنسان لأول مرة العلاقة الصميمية التي تربطه بالله كما استُعلنَت في المسيح يسوع**، هذه العلاقة التي على نورها، وعلى نورها وَحده فقط، يمكن لأي إنسان أن يدرك حقيقة الله، وحقيقة نفسه، والغاية العظمى من وجوده، ويجد في هذه الغاية مصدراً لسعادته لا ينضب!!

فالعلاقة التي تربط الله بالإنسان، لا يمكن فهمها على صحتها، وبالتالي يستحيل تحقيقها في أي جانب من جوانبها، إلا بالرجوع مباشرة إلى وضعها الكامل والنموذجي في المسيح!

+ ففي حياة المسيح يظهر الله - أو يظهر اللاهوت - كحقيقة منظورة كاملة كمالاً مطلقاً في حب باذل كبير رائع وطهارة مترهة عن كل ضعف وقداسة روحانية فائقة، كلها منعطفة ناحية الإنسان!

+ كذلك في حياة المسيح أيضاً، يظهر الإنسان أو تظهر البشرية كحقيقة طبيعية متضعة، وفي اتضاعها وطاعتها لله تبدو متجلية لترتفع من مستوى التراب إلى مستوى السماء في انسجام ثم التحام؛ أي أن في المسيح تُستعلَن البشرية في علاقتها المثلى بالله، حيث يمكن أن نرى في المسيح كل مجد الإنسان وكل مجد الله: حيث مجد الله هو في تنازله

المدهش ليصير في صورة إنسان، ومجد الإنسان هو في ارتفاعه المذهل بالطاعة المثلى ليحقق في نفسه صورة الله ومشيئته!

+ المسيح، إذن، هو غاية الإنسان كلها محقَّقةً في الله قائمة فيه وفعَّالة. لذلك فمن المسيح وحده نستمد سر خلقتنا في الله وغايتنا منه، لأنه هو نموذج الإنسانية الأعلى، وهو في نفس الوقت قوَّة قيامها ودوامها وكمالها في الله، لذلك احتسب المسيح نفسه بالنسبة لنا أنه «**الألف والياء**» (رؤ ١: ٨)، أي التعبير الكامل عن حياة الله في الإنسان، كما احتسب نفسه «**البداية والنهاية**» (رؤ ١: ٨)، أي القوَّة الخالقة التي تحرِّكنا نحو الله وتنتهي بنا إليه، كما احتسب نفسه «**الأول والآخر**» (إش ٤٤: ٦)، أي النموذج الإلهي المنظور الذي ليس قبله شيء ولا بعده شيء، الكامل بذاته الذي يستحيل معه أن نعتاز إلى آخر، «الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل» (كو ١: ١٧).

+ لذلك، فبدون تعرُّفنا على شخص يسوع المسيح وتحقُّقنا من طبيعته الفائقة التي يلتحم فيها الله بالإنسان التحاماً كاملاً مطلقاً، تظل معرفتنا بالله بالنسبة لوجودنا وكياننا وغاية حياتنا، كبشر، مبتورة ناقصة ومعتمة وبلا أي مسرَّة؛ ثم بدون إيماننا بإمكانيات المسيح الإلهية الفائقة التي يعطيها لكل مَنْ يؤمن به ليصير متحداً به كما هو متحد بالله، تظل خلقتنا ناقصة محجوزة عن امتدادها اللانهائي في الله بواسطة يسوع المسيح، عاجزة محصورة في دائرة التراب.

+ خارج يسوع المسيح وبدون توسُّطه، يستحيل للطبيعة البشرية أن تقترب من الله أو تنسكب فيها رحمته، لأن في المسيح يسوع انسكبت كل محبة الله الآب المطلقة، وكل رحمته المطلقة، وكل أُبوَّته المطلقة بمجدها وكرامتها. لذلك فبدون المسيح وخارجاً عنه لا يتبقى لله محبة لإنسان ما قط ولا رحمة ولا أُبوَّة بل ولا حياة أيضاً، لذلك يقول

الكتاب: «الآب يحب الابن وقد دفع كل شيء (يخصُّنا) في يده، الذي يؤمن بالابن له حياة أبدية والذي لا يؤمن بالابن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله» (يو ٣: ٣٥ و٣٦).

ماذا يحمل المسيح لنا من عند الله؟

المسيح لا يحمل لنا من عند الله تعاليم فلسفية أو أقوالاً أو وعوداً ونصائح، بل يحمل لنا طبيعة أُبوَّة الله ذاتها مستعلَنة ومشخَّصة وفعَّالة، منظورة وملموسة ومفهومة: **في محبة نحو الضعيف** لا بالكلام بل ببذل ذاته حتى الموت، **في رحمة نحو الخطاة** لا بالكلام بل بالتضحية حتى الدم، **في غفران وصفح** لا بالكلام بل بلبس البؤس عنا والشقاء بدلاً منا حتى إلى اللعنة أي الصليب، **في حياة قوية فعَّالة تتغلغل القبر** ومجاهل الجحيم لتقيم الميت حياً حتى ولو تعفَّن وأنْتَن!!

المسيح هو كلمة الله لنا، ولكنه ليس كلمة مقروءة أو مقولة، بل نُطْقٌ ذاتي يمدُّنا بفعل محبة أبوية ورحمة وغفران أبويٍّ وحياة أبدية يسكبها فينا بروحه.

المسيح ليس رسولاً من الله منتخباً من الناس، بل رسالة ذاتية لله، هو كلمة الله نفسه مشخَّصة ومتجسِّدة في إنسان. كذلك فالمسيح ليس مجرَّد رسالة لها غاية ونهاية: فالمسيح لا ينتهي عندما يقول أو عندما يفعل أفعال المحبة والرحمة والحياة بل هو المحبة الإلهية التي لا تنتهي، وهو الرحمة التي لا تُستَنفذ قط، وهو الحياة الأبدية التي تتخطَّى القبر والموت، وهو القيامة الأخيرة التي ستُحضرنا أمام الله. لذلك، فبالإيمان بالمسيح والاتحاد به يكون منتهى الوصول إلى الله.

الله هو أبونا بسبب يسوع المسيح ابنه الذي **كشف لنا هذه الأبوَّة الإلهية** وحَمَلَ لنا طبيعتها الفعَّالة بأعمال فريدة لم يعملها أحد غيره

مطلقاً، وهذه الأعمال تشهد له أنه ابن حقيقي لله.

ولا يمكن أن يحمل أحدٌ طبيعة الله الآب ويعلنها هكذا بآيات وعجائب وقوّات متنوعة إلا الابن، فالمسيح هو ابن الله **لأن فيه استُعلنَت أُبوَّة الله باقتدار إلهي**، الأبوَّة في الله والبنوَّة في الله طبيعة واحدة، ذات واحدة غير منقسمة ولا منفصلة لأن الله واحد: «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩). بنوّة الله استُعلنت جهاراً في المسيح لما تجسَّد ابن الله.

معنى الأبوَّة والبنوَّة في الله:

فإذا سأل سائل ما معنى الأبوَّة والبنوَّة في الله؟ نقول:

أيُّ إنسان في الدنيا يحمل الأُبوَّة والبُنوَّة معاً في كيانه البشري، هو أبٌ وابنٌ في آن واحد. ولكن الأُبوَّة الكائنة في الإنسان لا تظهر إلى الوجود الملموس إلاَّ إذا ظهرت البنوَّة التي فيه وذلك بأن يتزوَّج الإنسان وينسل ابناً. الله لا يحتاج إلى آخر (زوجة) ولا إلى حدث زمني لكي يُظهِر أبوَّته إلى الوجود بالولادة في هيئة ابن، البنوَّة في الله موجودة دائماً أزليَة مع الأُبوَّة، الآب والابن كائنان معاً كينونة واحدة ذاتية لا يفصلهما زمان أو مكان، ليس فيهما سابق ولاحق، لا كبير ولا صغير، هما صفتان جوهريتان متلازمتان لذات واحدة هي ذات الله الكلية الكمال.

الأُبوَّة في الله صفة جوهرية في ذات الله، وهي صفة فعَّالة وليست جامدة في ذاتها لأن منها تقوم كل أُبوَّة في الخليقة. والبنوَّة صفة جوهرية أيضاً في ذات الله، صفة فعَّالة منها تقوم كل بُنوَّة. **إنَّ تساوي الآب والابن في الذات الواحدة هو سر الكمال المطلق في الذات الإلهية**، وبالتالي هو أيضاً سر كمال الخليقة، لأنها تستمد وجودها وكمالها

ودوامها من الله الكلي الكمال.

الأُبوَّة في ذات الله قائمة قياماً جوهرياً وفعَّالاً، وذلك بسبب قيام البنوَّة في ذات الله قياماً جوهرياً أيضاً، وبسبب فعاليتها الدائمة بالنسبة للأُبوَّة، الآب يحب الابن والابن يحب الآب. هنا الحب كناية عن الاكتفاء والكمال الكلي للذات الإلهية الواحدة.

هنا المحبة في الله كاملة ومطلقة وأزلية، لذلك فذات الله مكتفية بذاتها اكتفاءً كاملاً ومطلقاً، أي أن الله لا يحتاج إلى حب آخر خارجاً عنه، لا حباً أبوياً ولا حباً بنوياً؛ بل بالعكس، فإن محبة الأُبوَّة التي في ذات الله تفيض على الخليقة كلها! فالله هو آب الخليقة كلها، يحبها حباً أبوياً فعَّالاً، ذلك لأن حبه الذاتي لابنه غير محدود ولا محصور قط فهو يشمل الخليقة كلها أيضاً.

وكذلك الابن، فهو بسبب لانهائية حبه الذاتي لأبيه فإنه يجمع الخليقة كلها في حبه ويقدِّمها في طاعة بنوته وخضوعه الفائق لأبيه، فالله يتبنى العالم كله في شخص يسوع المسيح!

ارتباط الأُبوَّة بالبنوَّة في ذات الله، هو بحد ذاته **"حياة"** قائمة وفعَّالة تنبثق من الآب وتنصبُّ في الابن، نراها في حالة الإنسان على هيئة حياة أو روح ينتقل من الأب إلى الابن بالتزاوج. انتقال الحياة أو الروح في الإنسان من الأب إلى ابنه لا يمكن أن نراه أو نحصره أو نفهمه، ولكنه حقيقة موجودة. وانتقال هذه الروح من الأب إلى الابن هو الذي يكشف عن وجود الأُبوَّة ووجود البنوَّة في الإنسان كما يكشف عن طبيعة العلاقة التي تربط الأب بالابن.

هكذا أيضاً في ذات الله يوجد رُوحٌ قُدسٌ، وهو الحياة التي تنبثق باستمرار من الآب إلى الابن، هذه الحياة أو هذه الروح هو الذي

يكشف عن حقيقة وجود الأُبوَّة ووجود البنوَّة في ذات الله، ويشهد لها. هذه الحياة أو هذا الروح القدس قائم قياماً جوهرياً في ذات الله، فهو صفة ذاتية لله غير صفة الأُبوَّة وغير صفة البنوَّة. هو "**الحياة**"، ولكنه ليس حياة منحصرة أو جامدة في ذات الله بل حياة فعَّالة فعاليةَ ذات الله نفسها. فكما أن الأُبوَّة في ذات الله فعَّالة، وهي أصل كل أُبوَّة في الخليقة، وكما أن البنوَّة في ذات الله فعَّالة، وهي أصل كل بنوَّة في الخليقة؛ كذلك الروح القدس فهو الروح الفعَّال في الخليقة أصل كل الحياة فيها الذي ينقل الأُبوَّة إلى البنوَّة لدى كل مخلوق، جاعلاً الحياة على الأرض في ديمومة، ثم يربط كل أب بابنه معطياً كل ما للأب للابن في تسلسل رتيب منقطع النظير!

إن سرَّ الثالوث في ذات الله الواحد هو سر الخليقة كلها، سر كل أب، سر كل ابن، سر كل حياة أو سر الروح الذي ينتقل من كل أب إلى ابنه.

إن اكتشاف حقيقة الثالوث في طبيعة الله الواحد هو سر فائق أكثر تقدُّماً وعمقاً من اكتشاف وحدانية ذاته، فإن كان الإيمان بوحدانية ذات الله أمراً تعبُّدياً هاماً لأنه يُخضع العقل البشري للتعبُّد بالخشية والرهبة للخالق الوحيد المنفرد في ذاته وصفاته؛ فالإيمان بالثالوث في طبيعة الله الواحد أمر أكثر خطورة لأنه يختص بحياتنا. فهو يكشف لنا عن مدى العلاقة التي تربطنا بهذا الخالق الوحيد. فالإيمان بأُبوَّة الله كما كشفها لنا المسيح ووهبها لنا بطاعته لأبيه تنقلنا من وضع العبيد إلى وضع البنين حسب تصريح إنجيل يوحنا: «وأما كل الذين قبلوه (قبلوا الابن يسوع المسيح) فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله» (يو ١: ١٢). أما إيماننا بالمسيح كابن لله ثم اتحادنا به بجسده وبدمه وروحه فهذا يجعلنا في وضع شركة مع المسيح فيما لله، شركة ميراث روحاني لحياة أبدية في الله:

«فإن كنا أولاداً فإننا ورثة أيضاً، ورثة الله، ووارثون مع المسيح» (رو ٨: ١٧)، «أمينٌ هو الله الذي به دُعيتم إلى شركة ابنه يسوع المسيح ربنا» (١كو ١: ٩).

ثم أن إيماننا بالروح القدس - أي روح الله - وقبولنا له بالعماد، يجعلنا خليقة جديدة روحانية مولودين فعلاً لله ومنه، برجاء حي لحياة أكثر سمواً من حاضرنا، وهذا الروح يُدخلنا في مجال أسرار الله: «لأن الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله» (١كو ٢: ١٠)، وبالتالي يهبنا كل إنعامات وعطايا الله المختصة بالحياة الأبدية.

علاقتنا بالله كآب لنا، كيف تحققت في تجسد المسيح؟

علاقتنا بالله دخلت في أعمق أعماق سرِّها بتجسُّد ابن الله، لأنه بتجسُّده حمل طبيعتنا وتبنَّاها. فالله الآن هو أبونا لسببين:

الأول لأنه أبو يسوع المسيح الحامل لطبيعتنا البشرية.

والثاني لأن المسيح المتحد بطبيعتنا البشرية هو ابن الله.

+ نحن في المسيح أبناء الله الحي، وكل مَنْ يؤمن بالمسيح فإن له الله أباً مُحباً: «لأن الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني وآمنتم أني من عند الله خرجت» (يو ١٦: ٢٧).

+ البشرية ارتقت، بالمسيح وفي المسيح أمام الله، من خليقة ترابية ساقطة بطبيعتها ومنحصرة في ذاتها مغلوبة للموت، إلى خليقة روحانية قائمة بروح الله، غالبة وحيَّة في الله مع الله إلى الأبد.

اللاهوت المسيحي لا يدور الآن على مَنْ هو الله المعبود في ذاته، الذي كان موضوع حوار العهد القديم كله، وإنما شُغْلُ اللاهوت الشاغل الآن هو ماهية صلة الإنسان بالله بعد أن تجسَّد ابن الله في الطبيعة البشرية فاتحاً عهداً جديداً في علاقة الله مع الإنسان!

الله في القديم عرفناه في ذاته إلهاً فائقاً عن الإدراك البشري، خالقاً وحيداً متعالياً جبَّاراً لا شريك له، قائماً في نور لا يُدنَى منه، لم يره أحد قط، والخليقة كلها ما في السماء وما على الأرض خاضعة له بعنُق العبودية، والسماء غير طاهرة أمام عينيه؛ ولكن هذه المعرفة لم تقرِّبنا إلى الله بل باعدت بيننا وبينه.

ولكن بعد أن استُعلنت بنوَّة الله الجوهرية متجسِّدة في يسوع المسيح، في ملء الزمان، عرفنا الله منعطفاً نحونا انعطافاً جوهرياً، متنازلاً إلينا حتى إلى الجوع والعطش والصليب. هذا التنازل كان إيجابياً مطلقاً، به استُدعي الإنسان للارتفاع لبلوغ صلة أبدية بالله والدخول في عهد بنوَّة ومحبة فائقة في لُطفها وتودُّدها نحو الإنسان.

لقد كشف الله لنا بواسطة المسيح عن أعماق حبه، الحب الباذل المتنازل، ثم قدَّم لنا في شخص يسوع المسيح صورة حية ناطقة نموذجية للكيفية التي ينبغي أن تقوم عليها علاقات وصلات جوهرية أبدية لا تنفصم عُراها بين الله والإنسان: «ولست أسأل من أجل هؤلاء فقط بل أيضاً من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا ...» (يو ١٧: ٢٠ و٢١)

وهكذا صار المسيح المَثَل الأعلى للإنسان الذي يبحث عن مستقبله الروحي في الله، وهكذا صار أيضاً الرجاء الحي المتجدِّد كل يوم لدى ضمير الخاطئ الذي يئن من فساد طبيعته يطلب الفداء المجاني «بالرجاء خَلَصْنَا.» (رو ٨: ٢٤)

+ يا يسوع المسيح أعلن ذاتك لكل مَنْ يحبك ويطلب اسمك.



ماذا صنع ظهور ابن الله بالجسد، في حياتنا ومستقبلنا؟

لقد ظهر ابن اللهِ في الجسد، فاستُعلن في الوجود البشري بعد أن كان مستتراً في اللهِ. ودخول ابن اللهِ دائرة الزَمان الإنساني لم يكن بدون تمهيد مناسب، إذ استلزم ذلك آلافاً من السنين كانت مشحونة كلها بنبوات متراصة تشير بوضوح شديد إلى المسيح الآتي، فلم يأت نبي قط ولا أتت نبوَّة ما إلا وكان المسيح فيها هو الألف والياء سواء بالنسبة للمُرسَل أو الرسالة.

لقد انفتح التاريخ الإنساني يوم ميلاد المسيح ليحوي حوادث خالدة: التجسُّد الإلهي، ثم الموت الكفّاري الذي يحمل ماضي الإنسان الميت، ثم القيامة بالجسد لحياة جديدة، ثم الصعود بالجسد نحو السماء للدخول فيما وراء الوجود المادي والجلوس عن يمين الله. لذلك فإن تاريخ المسيح ليس مجرَّد حوادث عجيبة ينبغي أن نؤمن بها، بل هي حوادث تخصُّني أنا، هي تاريخ حياتي الجديد كإنسان.

تاريخ المسيح هو تاريخ الإنسان كله بكل ماضيه وكل حاضره وكل مستقبله.

المسيح على الصليب ألغى كل ماضي الإنسان، ماضي الخطية المحزن الكئيب؛ فكل مَنْ دخل حقيقة الصليب انفكَّ من ماضيه الأثيم وعُتِقَ من سلطان الخطية القاتل للنفس.

المسيح بقيامته بالجسد الميت حياً أدخل البشرية في عهد جديد مع الله، في حاضر جديد، في حياة جديدة، حياة ليست من نوع الحياة الأرضية التي تستمد وجودها من الماء والتراب!!

فكل مَنْ دخل حقيقة القيامة فقد انتقل من حياة إلى حياة: من حياة تنتهي بالموت إلى حياة أبدية منزَّهة عن الموت، حياة مع الله وبالله،

تبتدئ هنا في صميم الحاضر ولا تنتهي قط، تتجاوز الموت وتعبره في شموخ بديع.

المسيح بصعوده إلى السماء وجلوسه عن يمين الله، أدخل البشرية في مستقبل مجد مذهل، في صميم العلاقة التي تربط الابن بالآب حيث تصبح البشرية في دالة البنوية تعيش، وتملك مع المسيح إلى الأبد في كل مُلك الله.

إذن، فتاريخ تجسُّد المسيح وموته وقيامته وصعوده هو تاريخ كامل للبشرية يحملها لينقلها من وضعها المغلق المربوط بالماضي وعبودية الخطية والموت المظلم، إلى وضعها المتطور الجديد كبشرية ناهضة من سقطتها، مفكوكة من كل رُبُطها منتصرة على الخطية والموت، عائشة في نور الله تتنسَّم من الآن رائحة الحياة الأبدية معه، وتعد نفسها بالإيمان والاتحاد بالمسيح لتعيش وتملك مع الله إلى أبد الآبدين.

لقد صعد المسيح إلى السماء عائداً إلى الآب من حيث أتى حاملاً بجسده الإنسان الذي كان قد سقط.

فبقدر ما كان سقوطنا من حضرة الله حادثة واقعة في صميم كياننا، تحمل آثارها المؤلمة في جسدنا وفكرنا وروحنا، وقد جعلتنا طريحي التراب واليأس؛ هكذا صار صعود المسيح حادثة واقعة في صميم طبيعتنا، أكملها المسيح لنا في جسدنا الذي أخذه منا مرتفعاً به هذا الارتفاع الشامخ فوق السماء وسماء السماء ليُجلسه عن يمين العظمة كباكورة تشير إلى اكتمال مشورة العلي من جهة مستقبل الإنسان الذي تبنَّاه الله وأحبه في شخص يسوع المسيح!

***

يا يسوع المسيح،

أتوسَّل إليك أن تكشف لكل مَنْ يطلب منك

عن سر تواضعك وحبك ومجدك وكمالك
الذي أعلنته وكشفته لمختاريك
في سر تجسُّدك وموتك وقيامتك وصعودك.

القمص متى المسكين

دير القديس أنبا مقار
٢٧ برمهات ١٦٨٦
٥ أبريل ١٩٧٠
عيد نياحة القديس أنبا مقار

تمهيد
كيف نفهم المسيح؟

ينبغي لنا أن نفرِّق دائماً أبداً بين طريق قبول الحق الإلهي وبين طريق قبول الحقائق العلمية والفكرية التي تتعلَّق بهذا الدهر؛ فالحقائق العلمية يفيدها جداً أن نمهِّد لها بالشك حتى تثبت صحتها بالقياس للحقائق الأخرى الثابتة، أما الحق الإلهي فلا يمكن أن يأخذ طريقه لقلب الإنسان وفكره إلا إذا سبق الإنسان وأعدَّ قلبه وفكره باتضاع لقبوله. بمعنى أن يكون لدى ضمير الإنسان الاستعداد للانفتاح للحق الإلهي وتصديقه قبل مناقشته والخوض فيه، حتى إذا بدأ الحق الإلهي يشع بنوره ويقرع القلب لا يجده مغلقاً بالشك والعناد فيمتنع على الإنسان الإحساس به والفرح له.

والحق المسيحي يمتاز بأنه لا يتعلَّق، أساساً، بقواعد ومبادئ تحتاج إلى الفحص العقلي وبالتالي تحتاج إلى الذكاء والقدرة الفكرية، بل يرتكز أول كل شيء على شخص يسوع المسيح الحي الذي يستطيع أن يبرهن هو بنفسه على حقيقته، إذا كان عند الإنسان الاستعداد الإيماني لقبوله في القلب: «هأنذا واقف على الباب وأقرع، إن سمع أحد صوتي وفتح الباب أدخل إليه وأتعشَّى معه وهو معي» (رؤ ٣: ٢٠).

لذلك، فإن مفتاح اللاهوت المسيحي كله هو الإيمان بشخص يسوع المسيح إيماناً قلبياً، فيه يصبح المسيح نفسه هو الشارح للاهوته: «فتح ذهنهم ليفهموا الكتب!» (لو ٢٤: ٤٥) فكل الدراسات التي يأتيها الإنسان لمعرفة العقيدة الإيمانية في المسيحية، بل وحتى كل المبادئ التي يستقر فيها الإنسان ذهنياً فيما يختص بلاهوت المسيح تظل واقعة تحت

الظلمة العقلية الكثيفة إلى أن يدخل المسيح نفسه داخل القلب فينيره، وحينئذ تتبدَّد الظلمة وتُستعلن الحقيقة، بدون أي جهد أو برهان: «أنا هو نور العالم. مَنْ يتبعني فلا يمشي في الظلمة» (يو ٨: ١٢).

كما لا يخفى على كل إنسان أن التعبير عن الحقيقة الإلهية المعلَنة في شخص يسوع المسيح وحياته، بل وكل الحقائق الإلهية على وجه العموم، من العسير غاية العسر أن توضحها للعقل الكلمات والاصطلاحات بنفس القدر الذي تكون فيه واضحة للقلب. فإنه على قدر ما يكون الإنسان في أقصى حالات النشوة الروحية والاستعلان والرؤيا القلبية، بقدر ما ينحصر الفكر ويعجز اللسان عن التعبير والوصف: «أعرف إنساناً في المسيح ... اختُطف إلى الفردوس وسمع كلمات لا يُنطَق بها ولا يسوغ لإنسان أن يتكلم بها» (٢كو ١٢: ٢-٤).

لذلك، كان من النتائج الواضحة والحتمية لهذا القصور في التعبير عن الحق الإلهي الكائن في المسيح، أن أصبح من الصفات الملازمة للعقيدة المسيحية اعتمادها على الإلهام الذي يتدفق في القلب بمجرد قبول شخص الرب يسوع.

ما هو التجسُّد:

إن ميلاد المسيح من العذراء القديسة مريم، يُعتبر من جهة اللاهوت تجسُّداً. بمعنى أن المسيح المولود، بالرغم من كونه إنساناً ذا جسد طبيعي ونفس طبيعية، إلا أن له وجوداً إلهياً شخصياً سابقاً على ميلاده.

ويوحنا الرسول في مطلع إنجيله يوضح هذه الحقيقة بأسلوب لاهوتي قاطع، فهو يعلن أن المسيح هو كلمة الله الابن الأزلي. وكلمة الله كان العامل الإلهي للخلق الذي خلق الله بواسطته كل شيء والذي كان قبل الخليقة كلها قائماً مع الله منذ البدء ككلمته التي لا تفارقه، وكلمة الله

هو ابن الله: «في البدء كان الكلمة. والكلمة كان عند الله. وكان الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله. كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان ... والكلمة **صار جسداً** وحلّ بيننا ورأينا مجده مجداً كما **لوحيد من الآب** مملوءاً نعمةً وحقًّا» (يو ١: ١-٣، ١٤).

أي أن المسيح المتجسِّد من العذراء مريم هو نفسه كلمة الله، الابن الأزلي، الخالق، القائم مع الله منذ البدء.

وعقيدة التجسُّد تُعتبر الأساس اللاهوتي الذي يقوم عليه كل الإيمان بالمسيح وبأعماله الخلاصية من موت وقيامة وصعود إلى السماء.

فعلى أساس التجسُّد، يكون الموت الذي ماته المسيح قد ماته بالجسد فقط، أما بصفته كلمة الله الأزلي فهو باقٍ كما هو منذ الأزل، حيًّا لم يُمتْ، قائماً مع الله - وبذلك يكون الموتَ الذي ماته ليس عن نفسه لأنه هو الحياة وكان قادراً أن لا يموت قط (كولوسي ١: ٢١، ٢٢؛ ١بط ٣: ١٨؛ ٢: ٢٤)، لذلك صار موته محسوباً كعقاب (دخل الطبيعة البشرية منذ سقوط آدم) تحمَّله تكفيراً عن آخرين، ومصالحة لهم مع الآب.

كذلك، على أساس التجسُّد، تكون القيامة التي قامها المسيح بالجسد عبارة عن قوَّة حياة جديدة بعد الموت أدخلها على الطبيعة البشرية التي أخذها منا، أما بصفته كلمة الله الأزلي فهو قائم وحي من الأزل وإلى الأبد، فالموت لم يكن له عليه سلطان البتة. وبذلك تكون القيامة عبارة عن غلبة سلطان الموت وقد أكملها عنا وليس عن نفسه، معطياً لنا بها قوَّة حياة أبدية جديدة بعد الموت.

كذلك، على أساس التجسُّد يكون الصعود الذي صعده أمام أعين تلاميذه بالجسد، والجلوس عن يمين الآب الذي أكمله أيضاً بالجسد لم يكن عن نفسه لأنه ابن الله وهو قائم دائماً في السماء في حضن الآب

كقوله: «ليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نـــزل من السماء، ابـــن الإنسان الذي هو في السماء» (يو ٣: ١٣). فصعوده بالجسد وجلوسه بهذا الجسد عن يمين الآب هو عمل فائق أكمله بالجسد، ليُعطي طبيعتنا التي وحَّدها بلاهوته قوَّة وحقَّ الصعود إلى السماء والوجود مع الله الآب «بعدما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا» (عب ١: ٣)، وصالح طبيعتنا هذه مع الآب بطهارته وتقديس دمه.

إذن، فعقيدة تجسُّد كلمة الله هي أساس الإيمان بالمسيح وأساس فهم قيمة حياته وأعماله وموته وقيامته وصعوده. لذلك يعتبرها يوحنا الرسول المحك الوحيد الذي يكشف الإيمان الصحيح من الإيمان المزيف: «أيهـــا الأحباء لا تصدِّقوا كل روح بل امتحنوا الأرواح هل هي مـــن الله لأن أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم. بهذا تعرفون روح الله ... كل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه **قد جاء في الجسد** فليس مـــن الله» (١يو ٤: ١-٣)، «قد دخل إلى العالم مُضلُّون كـــثيرون لا يعترفـــون بيسوع المسيح آتياً في الجسد. هذا هو المُضِلُّ والضدُّ للمسيح. انظروا إلى أنفسكم لئلا نُضَيِّع ما عملناه ... من يثبت في تعليم المسيح فهـــذا لـــه الآب والابن جميعاً. إن كان أحد يأتيكم ولا يجيء بهذا التعليم فلا تقبلوه في البيت ولا تقولوا له سلام» (٢يو ١: ٧-١٠).

أساس عقيدة التجسُّد:

الإنجيل كله يقدِّم الأساس العملي للاهوت المسيح كعقيدة ثابتة أزلية لا تقبل الشك أو الجدل. فقصة ميلاد المسيح من الروح القدس ومن العـــذراء ثم سلوكه في حياته بلا أدنى خطية، مع كل كلمة قالها المسيح وكل تعلـــيم علَّم به، وكل الآيات والمعجزات التي صنعها بقوته، وكيفية موتـــه الإرادي وقيامته من بين الأموات بسلطانه المطلق كما سبق وأنبأ عـــن ذلـــك: «لي

سلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضاً» (يو ١٠: ١٨)، وكـــذلك صعوده إلى السماء أمام أعين تلاميذه، كل هذه معاً تلقي أشعة قوية وهَّاجة تتجمع من كافة زوايا حياة المسيح لتتركَّز في بؤرة واحـــدة يظهـــر فيهـــا لاهوت المسيح في النهاية بصورة لا يمكن أن تُعانَد أو تُناقَش:

+ «وبعد ثمانية أيام كان تلاميذه أيضاً داخلاً (في العُلِّيَّة) وتوما معهـــم. فجاء يسوع والأبواب مغلَّقة ووقف في الوسط وقال: سلامٌ لكم. ثم قال لتوما: هات إصبعك إلى هنا وأبْصر يديَّ (جـــروح المـــسامير). وهات يدك وضَعْها في جنبي (موضع الحربة). ولا تكن غير مؤمن بل مؤمناً. أجاب توما وقال له: ربي وإلهي، قال له يسوع: لأنك رأيـــتني يا توما آمنتَ. طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (يو ٢٠: ٢٦-٢٩).

واضح، إذن، أن الإيمان بقيامة المسيح يعني بلوغ الإيمان بالمسيح أنـــه رب وإله بلا أدنى شك، لا بسبب القيامة بحد ذاتها فقط إنما على أساس أن القيامة جاءت نتيجة حتمية لكونه إلهاً متجسِّداً؛ فكان يـــستحيل أن يُمسَك الجسد منه في القبر أو يتسرَّب إليه الفساد: «الـــذي أقامـــه الله ناقضاً أوجاع الموت إذ لم يكن ممكناً أن يُمسَك منه. لأن داود يقول فيه كنت أرى الرب أمامي في كل حين أنه عن يميني لكي لا أتزعـــزع ... فإذ كان نبياً وعلم أن الله حلف له بقَسَم أنه من ثمرة صلبه يُقيم المسيح حسب الجسد ليجلس على كرسيه، سبق فرأى وتكلَّم عن قيامة المسيح أنه لم تُتْرَك نفسه في الهاوية ولا رأى جسده فساداً» (أع ٢: ٢٤-٣١).

لقد جعل المسيح بالقيامة التي قامها بنفس الجسد الذي مـــات بـــه والذي تمزَّق على الصليب والذي طُعِنَ في جنبه بالحربة طعنة نافذة حـــتى القلب - جعل من هذه الحقيقة نهاية باهرة ملموسة تنطق بلاهوتـــه الحـــي الدائم: «والحي وكنت ميتاً» ... «أنا هو الألف والياء، البداية والنهاية ...»

(رؤ ١: ١٨، ٨)

ولقد سبق أن صرَّح المسيح كثيراً جداً أثناء تعليمه عن حقيقة لاهوته، ولكنه لم يحاول قط أن يدفع بهذه التعاليم لكي تكون عقيدة نظرية في ألفاظ وجمل، بل تركها لكي تبرهنها الأعمال نفسها: «إن كنت لست أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا بي. ولكن إن كنت أعمل، فإن لم تؤمنوا بي، **فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا** أن الآب فيَّ وأنا فيه» (يو ١٠: ٣٧ و٣٨).

وكانت قمة هذه الأعمال هي قيامته من بين الأموات، التي لما تحققها توما وآمن بها استطاع في الحال أن يتحقق من لاهوت المسيح بدون أي تعليم، إذ أدرك في الحال أن المسيح حقاً في الآب والآب فيه كما سبق وقال لهم، وانتهى توما بتشكيل أول عقيدة أو أول قانون للإيمان: «ربي وإلهي»! (يو ٢٠: ٢٨)

فالذي لا يستطيع أن يصدِّق تجسُّد المسيح كإله ثم يتعذر عليه أن يصدق تعاليم المسيح بخصوص لاهوته، ماذا يعمل أمام قيامته من بين الأموات، التي برهن بها على صدق تجسُّده وصدق تعاليمه الإلهية وصدق موته الإرادي بصورة محسوسة وملموسة ومنظورة؟ لذلك يقول المسيح: «إن لم تؤمنوا بي (أي بكونه ابن الله المتجسِّد)، فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيَّ وأنا فيه» (يو ١٠: ٣٨).

شهادة المسيح عن نفسه فيما يختص بلاهوته:

إن أقوال المسيح عن نفسه فيما يختص بلاهوته ليست بأقل من أعماله في قيمتها، لأن كافة الأعمال التي عملها المسيح، عملها ليثبت صحة وحقيقة ما قاله عن نفسه. والمسيح لم يتركنا لكي نستنبط صفاته أو نخترع صلات نربطه بها مع الله، بل سبق وحدَّد بكل دقة وبكل تأكيد ووضوح كافةً صفاته الإلهية وكافة العلاقات الجوهرية التي تربطه بالله.

وبعكس جميع أصحاب الديانات التي في العالم كله، ظل يسوع كل مدة حياته على الأرض لا يهتم بتعليم حقائق عن الله أو الدين الذي يدعو إليه، ولكن كان كل تعليمه وبالدرجة الأولى ينصبُّ في إعلان نفسه أنه "ابن الله الذي جاء من عند الآب ليخلّص العالم،" وبالتالي معلناً شخص الآب، بأقواله وأعماله، و لم يكن تعليمه يتبع منهجاً لاهوتياً خاصاً ولكن كان عبارة عن استعلان متواصل لشخصه بأقوال باهرة وبتعاليم أخّاذة وبقوّات ومعجزات خارقة.

فكانت النتيجة الحتمية لتعاليمه باستمرار هي:

+ «هلموا انظروا إنساناً قال لي كل ما فعلت ألعلّ هذا هو المسيح فخرجوا من المدينة وأتوا إليه» (يو ٤: ٢٩، ٣٠).
+ «وقالوا للمرأة إننا لسنا بعد بسبب كلامكِ نؤمن، لأننا نحن قد سمعنا ونعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلِّص العالم» (يو ٤: ٤٢).
+ «فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا: ... بالحقيقة ... هذا هو المسيح» (يو ٧: ٤٠ و٤١).
+ «فآمن به كثيرون من الجمع وقالوا: ألعلّ المسيح (المسيَّا) متى جاء يعمل آيات أكثر من هذه التي عملها هذا»؟ (يو ٧: ٣١).
+ «وبينما هو يتكلّم بهذا آمن به كثيرون» (يو ٨: ٣٠).

وإن كان المسيح لم يشأ أن يعلن نفسه جهاراً أنه هو المسيَّا المذكور في الأسفار المقدسة، فذلك كان بسبب تلوث أفكار اليهود بخصوص وظيفة المسيَّا، إذ كانوا يترقّبونه بفارغ الصبر ليجمع شمل اليهود كملك ويحارب الرومان ويُوطِّد مملكة إسرائيل على الأرض بالسلاح مستخدماً في ذلك قوَّة الله الفائقة. فبسبب هذه الأفكار الدنيوية الفاسدة عن المسيَّا ووظيفته، كان دائماً يرفض كل محاولة يضطرونه فيها لكي يُعلن عن نفسه أنه هو المسيَّا، غير

أنه لم يُحجم في مرات كثيرة هادئة عن أن يقرِّر أنه هو المسيَّا:

+ «قالت له المرأة أنا أعلم أن مسيَّا الذي يُقال له المسيح يأتي. فمتى جاء ذاك يُخبرنا بكل شيء. قال لها يسوع أنا الذي أُكلِّمك هو» (يو ٤: ٢٥ و٢٦).
+ «فاحتاط به اليهود وقالوا له: إلى متى تُعلِّق أنفسنا؟ إن كنت أنت المسيح فقُلْ لنا جهراً. أجابهم يسوع: إني قلت لكم ولستم تؤمنون» (يو ١٠: ٢٤ و٢٥).

وبالرغم من أنه كان يشفي المرضى بدافع الحب الشخصي والشفقة العالية على الضعفاء والمساكين، إلا أن القصد الأساسي في كافة الآيات والمعجزات التي كان يعملها كان ينصبُّ في الإعلان عن لاهوته كابن الله، لأنه كان يَعْلَم أن إيمان المريض بالمسيح كمخلِّص وغافر الخطايا أجدى له وأنفع له من أن يعرف المسيح كشاف لأمراض الجسد وحسب، لأن الإيمان بابن الله يهب الخلاص والمغفرةً والحياة الأبدية، وبالتالي يهب الصحة للروح والنفس والجسد:

+ «فسمع يسوع أنهم أخرجوه خارجاً (الأعمى الذي شفاه المسيح) فوجده وقال له: أتؤمن بابن الله؟ أجاب ذاك وقال: مَنْ هو يا سيد لأومن به؟ فقال له يسوع: قد رأيته والذي يتكلَّم معك هو هو. فقال: أومن يا سيد، وسجد له» (يو ٩: ٣٥-٣٨).

الباب الأول

ابن الله

لقد وصف المسيح نفسه أنه «ابن الله» في مواضع كثيرة جداً، إذا فحصناها جيداً نستطيع أن ندرك العمق اللاهوتي الذي يشمله هذا اللقب.

ففي كل مرة يعلن فيها المسيح عن نفسه، كان كأنه يُخرج شعاعاً يكشف به في الحال عن صلة أو صفة جديدة عميقة تحدِّد علاقته بالله. فإذا جمعنا هذه الصلات أو الصفات معاً، فإنه يتجمع لدينا كمية من النور كافية جداً لتوضيح معنى لاهوت المسيح وبنوَّته لله.

وسوف نُقسِّم هذه الصفات الإلهية الجوهرية التي تُحدد علاقة المسيح (كابن)، بالله (كآب) إلى ثلاثة أقسام.

الفصل الأول

تساوي الآب بالابن

في هذا الفصل نعرض الصفات الخاصة التي يصف بها المسيح نفسه ليوضح بها قدرته الشخصية الفائقة المساوية لله أبيه مساواة مطلقة بصفته ابناً لله، له كل ما للآب، موضحاً أنه من صميم جوهره وطبيعته وذاته وحياته ومجده:

+ «قال أيضاً إن الله أبوه معادلاً نفسه بالله» (يو ٥: ١٨).

١ - وحدة الوجود أو التساوي المطلق للكيان، للآب والابن (أو وحدة الجوهر والذات التي تجمع الآب والابن):

+ «أنا في الآب والآب فيَّ» (يو ١٤: ١٠).
+ «صدِّقوني أني في الآب، والآب فيَّ» يو ١٤: ١١).
+ «**أنا والآب واحد** - فتناول اليهود أيضاً حجارة ليرجموه» (يو ١٠: ٣٠، ٣١).
+ «**كل ما للآب هو لي**» (يو ١٦: ١٥).
+ «أيها الآب ... **كل ما هو لي فهو لك**، وما هو لكَ فهو لي» (يو ١٧: ١، ١٠).
+ «هذا هو ضد المسيح الذي ينكر الآب والابن. **كل مَنْ ينكر الابن ليس له الآب أيضاً ومَنْ يعترف بالابن فله الآب أيضاً**» (١يو ٢: ٢٢، ٢٣).
+ «الذي يبغضني يبغض أبي أيضاً.. أما الآن فقد رأوا وأبغضوني **أنا**

وأبي. لكن لكي تتم الكلمة المكتوبة في ناموسهم أنهم **أبغضوني** بلا سبب» (يو ١٥: ٢٣-٢٥).

+ «إن كنت لست أعمل **أعمال أبي** فلا تؤمنوا بي. ولكن إن كنت أعمل، فإن لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب **فيَّ** وأنا فيه» (يو ١٠: ٣٧، ٣٨).
+ «لأني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني» (يو ٨: ١٦).

٢ - وحدة الإلهام اللازم لمعرفة الآب والابن (أي أن معرفة الآب والابن هي معرفة واحدة للاهوت واحد):

+ «أجاب يسوع: لستم تعرفونني أنا ولا أبي. لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً» (يو ٨: ١٩).
+ «لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً» (يو ١٤: ٧).
+ «أنا معكم زماناً هذه مدته و لم تعرفني يا فيلبُّس. الذي رآني فقد رأى الآب، فكيف تقول أنت أرنا الآب. ألست تؤمن أني أنا في الآب والآب فيَّ» (يو ١٤: ٩، ١٠).
+ «الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر» (يو ١: ١٨).
+ «الذي **يراني يرى** الذي أرسلني» (يو ١٢: ٤٥).
+ «والكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا ورأينا **مجده مجداً** كما **لوحيد من الآب مملوءاً** نعمة وحقاً» (يو ١: ١٤).
+ «وسيفعلون هذا بكم لأنهم **لم يعرفوا** الآب **ولا عرفوني**» (يو ١٦: ٣).

٣ – وحدة المعرفة الذاتية المتبادلة بين الآب والابن (أي تساوي الجوهر العقلي للآب والابن):

+ «الآب **يعرفني** وأنا **أعرف الآب**» (يو ١٠: ١٥).
+ «ليس أحد **يعرف** الابن **إلا** الآب، ولا أحد **يعرف** الآب **إلا** الابن ومَنْ أراد الابن أن يُعلِن له» (مت ١١: ٢٧).
+ «أنا **أعرفه** لأني **منه**» (يو ٧: ٢٩).
+ «ليس أن أحداً **رأى الآب** إلا الذي **من** الله. هذا قد رأى الآب» (يو ٦: ٤٦).

٤ – وحدة المجد بين الآب والابن:

+ «أيها الآب قد أتت الساعة مجِّد ابنك ليمجدك ابنك أيضاً» (يو ١٧: ١).
+ «والآن مجِّدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم» (يو ١٧: ٥).
+ «فلما خرج (يهوذا) قال يسوع: الآن تمجَّد ابن الإنسان وتمجَّد الله فيه. إن كان الله قد تمجَّد فيه فإن الله سيمجِّده في ذاته ويمجِّده سريعاً» (يو ١٣: ٣١، ٣٢).
+ «ومهما سألتم باسمي فذلك أفعله ليتمجَّد الآب بالابن» (يو ١٤: ١٣).
+ «ذاك (روح الحق) يمجِّدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم» (يو ١٦: ١٤).
+ «هذا المرض ليس للموت بل لأجل مجد الله ليتمجَّد ابن الله به» (يو ١١: ٤).
+ «وأما يسوع فأجابهما قائلاً: قد أتت الساعة ليتمجَّد ابن الإنسان» (يو ١٢: ٢٣).
+ «مجداً من الناس لست أقبل»، «أبي هو الذي يمجِّدني» (يو ٥: ٤١، ٨: ٥٤).

+ «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا لينظروا مجدي الذي أعطيتني لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم» (يو ١٧: ٢٤).

٥ – وحدة القدرة على الإقامة من الأموات، أو تساوي السلطان الإلهي في الإحياء والإقامة من الموت بين الآب والابن، كدليل على تساوي الحياة الذاتية:

+ «لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويُحيي، كذلك الابن أيضاً يُحيي مَنْ يشاء» (يو ٥: ٢١).
+ «أيها الشاب لكَ أقول قم» (لو ٧: ١٤).
+ «يا صبية قومي فرجعت روحها وقامت في الحال» (لو ٨: ٥٤، ٥٥).
+ «الحق الحق أقول لكم إنه تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون. لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته» (يو ٥: ٢٥، ٢٦).
+ «أنا **هو القيامة والحياة**» (يو ١١: ٢٥).
+ «فيه كانت الحياة» (يو ١: ٤).
+ «نخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهِرت لنا» (١يو ١: ٢).
+ «كما أرسلني الآب الحي وأنا حي بالآب، فمَنْ يأكلني فهو يحيا بي» (يو ٦: ٥٧).
+ «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو ٥: ١٧).
+ «لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضاً» (يو ١٠: ١٨).

٦ – وحدة الإيمان بالله والإيمان بالمسيح

على أساس تساوي النتائج التي يقوم عليها وينتهي إليها:

+ «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل **مَنْ يؤمن به** بل تكون له الحياة الأبدية» (يو ٣: ١٦).

+ «**الذي يؤمن به** لا يُدان والذي لا يؤمن قد دين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد» (يو ٣: ١٨).

+ «**الذي يؤمن بالابن** له حياة أبدية والذي لا يؤمن بالابن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله» (يو ٣: ٣٦).

+ «الحق الحق أقول لكم مَنْ يسمع كلامي **ويؤمن بالذي أرسلني، فله حياة أبدية** ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يو ٥: ٢٤).

+ «هذه هي مشيئة الذي أرسلني، أنَّ كل مَنْ يرى الابن **ويؤمن به** تكون له حياة أبدية وأنا أُقيمه في اليوم الأخير» (يو ٦: ٤٠).

٧ – وحدة الحق الإلهي الواجب العبادة والإيمان، أو تساوي السلطان الإلهي بين الآب والابن في استجابة الدعاء وتقبُّل العبادة:

+ «أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي (أو آمنوا بالله وآمنوا بي)» (يو ١٤: ١).

+ «الذي أرسلني **هو حق**» (يو ٨: ٢٦)، «أنا **هو** ... **الحق**» (يو ١٤: ٦).

+ «وتعرفون **الحق** والحق **يحرِّركم** ... فإن حرَّركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً» (يو ٨: ٣٢ و٣٦).

+ «الحق الحق أقول لكم إن كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم **(هو)**» (يو ١٦: ٢٣).

+ «ومهما سألتم باسمي فذلك أفعله **(أنا)** ليتمجَّد الآب بالابن» (يو

١٤: ١٣).

+ «إن سألتم شيئاً باسمي **فإني** أفعله (أنا)» (يو ١٤: ١٤).

+ «أتؤمن **بابن الله** ... فقال (المولود أعمى): أومن يا سيِّد، وسجدَ له» (يو ٩: ٣٥، ٣٨).

+ «أجاب توما وقال له **ربي وإلهي**» (يو ٢٠: ٢٨).

+ «ولما رأوه **سجدوا له**» (مت ٢٨: ١٧).

+ «وفيما هو يباركهم انفرد عنهم وأُصعد إلى السماء. **فسجدوا له** ورجعوا إلى أورشليم بفرحٍ عظيم» (لو ٢٤: ٥١، ٥٢).

٨ - وحدة المُلك والملكوت، أو التساوي المطلَق في الإمكانيات بين الآب والابن:

+ «كل ما هو لي فهو لكَ، وكل ما هو لكَ فهو لي» (يو ١٧: ١٠).

+ «كل ما للآب هو لي» (يو ١٦: ١٥).

+ «وأقول لكم إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً **في ملكوت أبي**» (مت ٢٦: ٢٩).

+ «أنتم الذين ثَبَتُوا معي في تجاربي وأنا أجعل لكم كما جعل لي أبي **ملكوتاً** لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في **ملكوتي**» (لو ٢٢: ٢٨-٣٠).

٩ - وحِدة الوجود في كل مكان وزمان أو تساوي الآب والابن في الوجود المطلق:

+ «لأنه حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم» (مت ١٨: ٢٠).

الوجود في كل زمان:

+ «ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر.» (مت ٢٨: ٢٠)

الوجود فوق المكان:

+ «ليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء» (يو ٣: ١٣).

الوجود فوق الزمان:

+ «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» (يو ٨: ٥٨).
+ «أنا هو الألف والياء، البداية والنهاية، يقول الرب الكائن والذي كان والذي يأتي القادر على كل شيء» (رؤ ١: ٨).

١٠ – وحدة الكرامة بين الآب والابن، أو التساوي المطلق في استحقاق التكريم بين الآب والابن:

+ «لكي يكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب. مَنْ لا يكرم الابن لا يكرم الآب الذي أرسله» (يو ٥: ٢٣).
+ «ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي» (يو ١٤: ٦).
+ «لا يقدر أحد أن يُقبل إليَّ إن لم يجتذبه الآب» (يو ٦: ٤٤).
+ «وأيضاً متى أدخل البكر إلى العالم يقول: ولتسجد له كل ملائكة الله» (عب ١: ٦).
+ «وكل خليقة مما في السماء وعلى الأرض وتحت الأرض وما على البحر، كل ما فيها سمعتها قائلة **للجالس على العرش وللخروف:** البركة والكرامة والمجد والسلطان إلى أبد الآبدين» (رؤ ٥: ١٣).
+ «الحق الحق أقول لكم مَنْ **يؤمن بي** فله حياة أبدية ... أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء، إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد» (يو ٦: ٤٧ و٥١).

+ «**مَنْ آمن بي** كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حـي» (يو ٧: ٣٨).
+ «الحق الحق أقول لكم إن كان **أحد يحفظ كلامي** فلن يرى الموت إلى الأبد» (يو ٨: ٥١).
+ «**خرافي تسمع صوتي** ... وأنا أعطيها حياة أبدية ولن تهلك إلى الأبد ولا يخطفها أحد من يدي» (يو ١٠: ٢٧، ٢٨).
+ «أنا هو القيامة والحياة. **مَنْ آمن بي** ولو مات فسيحيا. وكل مَـنْ كان حيًّا وآمن بي فلن يموت إلى الأبد» (يو ١١: ٢٥، ٢٦).
+ «أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي (أو آمنوا بالله وآمنوا بي)» (يو ١٤: ١).

من هذا كله يتضح، بكل تأكيد وبكل تحقيق، أن كلمة «ابـن الله» تعني علاقة جوهرية صميمية بين الابن والآب تقوم علـى صـفات لا تحتمل الفُرْقة أو الانفصال أو التمايز أو التعالي، لا زمنياً ولا مكانياً ولا ذاتياً ولا كيانياً، فالإرادة واحدة بين الآب والابن، وكـذلك المـشيئة والفكر والعمل والقول. وهذا كله يوضح الوحدة اللاهوتية أو الإلهية الـتي تجمع الآب والابن، فهما إله واحد، آب وابن معاً(١)، ذاتٌ إلهية واحدة فيها الأُبوَّة كاملة مشخَّصة بالآب وفيها البنوَّة كاملة مشخَّصة بالابن.

وهكذا نجد أن الآب والابن متساويان تساوياً مطلقاً،

لذلك هما إله واحد:

لذلك نستطيع أن نقول: "الله الآب" و"الله الابن"، فالله هنا واحد أي ذات واحدة، والآب والابن هما أقنومان (الأقنوم = شخص، ذاتـه متكاملة في آخر) متساويان تساوياً مطلقاً، هذا التـساوي يجعلـهما في

(١) ينبغي أن يُقال هنا: "وروح قدس". ولكن أرجأنا الكلام عن الروح القدس بصفته الأقنـوم الثالث حتى نوفي معنى ابن الله أولاً.

وحدة متكاملة، أي ذات واحدة، فهذا التساوي المطلق لا يُخرجهما عن الذات الواحدة أي الأُلوهة الواحدة، حيث الله الذات الواحدة هو الجوهر المفرد البسيط غير المنقسم ولا المتعدد. والآب والابن الأقنومان هما صفتان ذاتيتان جوهريتان متلازمتان في الذات الواحدة، فالله إله واحد، آب وابن معاً.

أما من جهة وجود آب وابن في الذات الإلهية الواحدة، أو بعبارة أخرى أن الله يكون "آب" و"ابن"، فهذا ضرورة حتمية، لأن الأبوَّة والبنوَّة من مكونات الذات، إذ يستحيل أن توجد ذات إلا ويكون فيها روح الأُبوَّة وروح البُنوَّة معاً. فإذا خلت الذات من روح الأبوَّة فإنها تصبح منعطفة اضطرارياً إلى غيرها، وإذا خلت من روح البنوَّة فإنها تتعالى وتنفصم عن غيرها، لذلك فمن المحتم أن يكون هناك توازن بين هاتين الصفتين الجوهريتين في الذات حتى تتكامل الذات في عطفها واستقلالها في آن واحد. على أن التساوي المطلق بين روح الأبوَّة وروح البنوَّة في الذات هو أمر حتمي، لكي تبلغ الذات منتهى خصبها وحيويتها من جهة فاعليتها في الوجود. تعطف على الآخرين وتظل غير محتاجة إلى عطف الآخرين، خالقة وفي نفس الوقت مستقلة عن كل الخليقة.

وفي المخلوقات نجد أن كل ذات تحمل الأُبوَّة والبنوَّة معاً بصورة كامنة كصفتين ذاتيتين متلازمتين، والذي يبرزهما للوجود هو التناسل الذي يكشف البنوَّة المستترة في حضن الأبوَّة ويفرزها ويبرزها إلى الوجود بعد الكمون. ولكن التناسل لا يخلق الأبوَّة في الإنسان ولا يخلق البنوَّة أيضاً، بل يبرزهما وينقلهما من الصفة الذاتية الجوهرية الكامنة في الذات إلى الصفة الشخصية. فأي إنسان هو ذات، وفيه الأُبوَّة والبنوَّة معاً بصورة ذاتية كامنة، وبالتناسل تتحوَّل الصفات الذاتية إلى أشخاص إذ يبرز إلى الوجود الملموس شخص أب وشخص ابن. ولكن لا يقضي

التناسل على الصفات الذاتية الكامنة، إذ يظل كل إنسان هو ابـــن لأب وأب لابن في آن واحد. إذن، فالتناسل حدَثٌ عرضي بالنسبة للصفات الذاتية، يبرزها للوُجود، ولكن لا يخلقها من عدم.

فإذا تأملنا في الذات الإلهية، وجدنا الصفات الجوهرية - أي الأبـــوَّة والبنوَّة الذاتية - في كمالها المطلق وقوَّتها وفاعليتها المطلقة، فهي ليست صفات في حالة كامنة تحتاج إلى حدث زمني عرضيٍ كالتناسل ليبرزهـــا للوجود، لأنها موجودة بذاتها وواجبة الوجود أيضاً لأنها أصل الوجـــود كله، وكل أبوَّة وكل بنوَّة في الخليقة تستمد روحها وكيانها ودوامها منها.

فالله روح، وهو أبو الأرواح جميعاً، أصل كل أبوَّة وأصل كل بنـــوَّة في السموات والأرض، فهو الذات الموجودة بذاتها، الحاملة لروح الأبوَّة الإلهية الفائقة في كمالها، المشخَّصة في الآب كأقنوم حي فعَّال، والحاملة لـــروح البنوَّة الإلهية الفائقة في كمالها المشخَّصة في الابن كأقنوم حي فعَّال أيضاً.

أقنومان لا يلزم أن يُظهرهما إلى الوجود زيجة - حاشا - فهما واجبا الوجود بذاتهما موجودان وظاهران في الخليقة كخالقين لكـــل وجـــود أبوي وكل وجود بنوي: «بسبب هذا أحني ركبتيَّ لدى (الآب) أبي ربنا يسوع المسيح الذي منه تسمَّى كـــل عـــشيرة (أُبـــوَّات وبنُـــوَّات) في السموات وعلى الأرض» (أف ٣: ١٤ و١٥).

وأُبوَّة الله الروحية حقيقة فعَّالة في البشرية على المستوى الروحي، أي قادرة أن تخلق من أرواحنا الضالة بنين روحيين بـــسلطانها الـــذاتي، إذا خضعنا لها: «أما كل الذين قبلوه (أي قبلوا يسوع المـــسيح ابـــن الله) فأعطاهم **سلطاناً أن يصيروا أولاد الله**، أي المؤمنون باسمه، الذين وُلدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل مـــن الله» (يو ١: ١٢، ١٣).

أي أن قبولنا للمسيح كابن الله يهبنا لياقة روحية (بالفداء والتقديس بالدم) أن نصير بنين، ثم خضوعنا للآب (بالطاعة العملية) يعطينا بالفعل ميلاداً روحياً فنحيا كأولاد لله: «ثم قد كان لنا آباء أجسادنا مؤدِّبين وكنا نهابهم، أفلا نخضع بالأَوْلَى جداً لأبي الأرواح فنحيا!» (عب ١٢: ٩)

وبسبب أن الأبوَّة في الله حقيقة قائمة دائمة بذاتها، أصبح باب التبني مفتوحاً أمامنا على الدوام، وكذلك أيضاً البنوَّة في الله، التي ظهرت لنا في شخص يسوع المسيح الذي جعل لنا مدخلاً سريًّا إليها بدمه، ففتح أمامنا إمكانية الحياة الأبدية والوجود الدائم مع الله بواسطة الاتحاد به جسداً ودماً.

وبذلك صار سر خلاصنا وحياتنا مع الله متوقفاً بصورة أساسية على فهمنا وقبولنا وخضوعنا لسر البنوَّة والأبوَّة في الله الواحد كصفتين ذاتيتين جوهريتين مشخَّصتين تشخيصاً حياً كاملاً متساوياً في الآب والابن، موجودتين في الذات الإلهية الواحدة قبل الزمان وقبل الخليقة كلها. الآب يباشر صفة الأُبوَّة الذاتية، والابن يباشر صفة البنوَّة الذاتية بتساوٍ مطلق. الابن دائماً ابن والآب دائماً آب، ليس فيهما سابق ولا لاحقٌ ولا كبير ولا صغير، لأنهما ذات واحدة، إله واحد.

وهكذا نرى أن أقنوم الآب وأقنوم الابن في الله من أبرز الصفات الجوهرية التي يتوقَّف عليها ليس فقط خلاصنا وحياتنا ورجاؤنا، بل وفهمنا وحبنا وتقديسنا لذات الله الواحدة الكاملة في عطفها وحبها وإشفاقها وحنانها وبذلها، وتوافقها توافقاً كليًّا متكاملاً معنا، الأمر الذي صار يغذي روح الإنسان سرًّا بكل معنى الأُبوَّة الإلهية في ترفقها وعطفها وكل معنى البنوَّة الإلهية في انعطافها وتعلقها بنا.

ولولا ذلك الاستعلان الإلهي الذي كشفه لنا ابن الله بتجسُّده وإظهاره للأُبوَّة الإلهية الحانية علينا وللبنوَّة الإلهية في أكمل صفاتها الباذلة

وحبها المنعطف نحونا بالرغم من خطايانا: «ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا» (رو ٥: ٨)، وأيضاً لولا أن المسيح سكب روحه فينا بدمه وقدَّمنا كبنين لله الآب لنكون محبوبين فيه وبلا لوم، كذلك لولا أن الآب قَبِلَنا وتبنانا فعلاً وسكب فينا من روحه الأبوي؛ نعم لولا ذلك كله لانشطَرت العلائق البشرية وتمزَّقت الأبوَّة الروحانية وانعدمت الصفات البنوية التقوية وتفسَّخت الروح البشرية وصار الإنسان كالبهيمة، لا يعرف من الأُبوَّة إلا شهوة سيطرة وتناسل، ولا يعرف من البنوَّة إلا شهوة منفعة وتحفز.



الروح القدس في الذات الإلهية:

الانبثاق من عند الآب يفيد نفس معنى الولادة من الآب ولكن كصفة خاصة بالروح القدس. ولكن الولادة تعبير خاص بالابن = "خروج دائم من حضن الآب"، بمعنى أن الابن حامل لكل صفات ومشيئة الأُبوَّة، ومصبٌّ دائم لمحبة الآب. لذلك فإن إرسال الآب للابن حَمَلَ لنا كل صفات الآب ومشيئته وعمله وقوله: «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩)، حسب تصريحات المسيح الواضحة. ثم بعد انتهاء الرسالة عاد الابن إلى الآب بعد أن أتمَّ خلقة الإنسان روحياً خلقة ثانية جديدة على صورة خالقه، أي الآب والابن؛ أما انبثاق الروح القدس من الآب فهو يفيد خروجاً دائماً للروح القدس من الآب إلى الابن، ثم انسكابه بتوسُّط المسيح في قلوب المؤمنين انسكاباً متواصلاً حاملاً روح الآب والابن وكل صفاتهما لدوام قيام الأُبوَّة الروحية ولمنح الإنسان روح البنوَّة التي بها نصرخ نحو الآب: «يا أبَّا، الآب».

فالابن حمل لنا صورة الآب، والروح القدس حمل لنا صورة الابن، والروح القدس هو خلقنا على صورة الآب والابن بسكناه الدائم فينا،

والآب هو الذي سكب في قلوبنا هذا الروح القدس بتوسُّط الابن الذي أرسل لنا الروح القدس المنبثق من الآب.

الروح القدس بحسب مدلول اسمه هو جوهر الحياة التي بلا نهاية ولا بداية، فهو أصل الحياة موجود وواجب الوجود بذاته، لذلك فهو مساوٍ للآب ومساوٍ للابن من حيث جوهره الإلهي الذاتي، فالآب والابن والروح القدس جوهر واحد وذات واحدة، أبوَّة وبنوة وروح قدوس، والثلاثة ذات واحدة إله واحد. ليس فيهم متقدِّم ولا متأخر لأنهم جوهر واحد وذات واحدة لا بداية ولا نهاية لها: «أنا والآب واحد» (يو ١٠: ٣٠).

الآب له حياة (روح قدس) في ذاته، والابن له حياة (روح قدس) في ذاته.

الآب يُحيي مَنْ يشاء (بالروح القدس الذي فيه).
والابن يُحيي مَنْ يشاء (بالروح القدس الذي فيه).
ولكن لأن العطاء من خصائص أقنوم الأبوَّة،
والأخذ من خصائص أقنوم البنوَّة،
فالروح القدس ينبثق من الآب إلى الابن.

لذلك يقول المسيح: «كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك **أعطى** الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته» (يو ٥: ٢٦). كما يقول: «أنا حي بالآب» (يو ٦: ٥٧).

فبالرغم من أن الآب والابن والحياة الذاتية فيهما (التي هي الروح القدس) ذات واحدة، إلا أن هذه الذات الواحدة هي آب محب، وابن محبوب، وروح لهذه الذات كحياة منبثقة من الآب في الابن. وهكذا بالأبوَّة الذاتية والبنوة الذاتية والحياة الذاتية تكتمل الذات الإلهية بالكمال الفائق بالاكتفاء الذاتي المطلق، لا تستمد أبوتها وبنوتها والحياة التي فيها

من آخر. فالله ذات، فيها المحبة مكتملة عطاءً وأخذاً، وكذلك فيها الحياة حيَّة ومحيية.

فالله محب ومحبوب، حي ومحيي، أي أن الذات الإلهية مكتملة من كافة الأحاسيس والمشاعر الفعالية الذاتية، ففي الذات الإلهية العطاء الأبوي والأخذ البنوي كلي ومطلق. فالآب يعطي كل ما له للابن، والابن يعطي كل ما له للآب. كما أن الحياة في الذات الإلهية فعَّالة إلى أقصى كمالها، فالله حي في نفسه حياة أبدية أزلية كاملة كمالاً مطلقاً كخالق لا نهائي القدرة، ومحيي أيضاً بذاته.

كذلك الكينونة أو الوجود الذاتي للذات الإلهية، فيها الاكتفاء المطلق، فالآب كائن في الابن، والابن كائن في الآب: «أنا في الآب والآب فيَّ» (يو ١٤: ١٠).

فالآب هو الله، لأن فيه الابن وفيه الروح القدس.
والابن هو الله، لأن فيه الآب وفيه الروح القدس.
والروح القدس هو الله، لأنه كائن في الآب وفي الابن.

والله ذات واحدة كلية لأنه كلي الأُبوَّة، كلي البنوَّة، كلي الحياة. ولا يمكن أن توجد أُبوَّة بدون بنوَّة، ولا أُبوَّة وبنوة بدون حياة.

فالله آبٌ وابنٌ وروحٌ قُدسٌ، ذات واحدة كلية الكمال، جوهر واحد فائق القدرة.

وهذا الثالوث استُعلن لنا في الذات الواحدة عندما تجسَّد الابن، وكشف لنا سر الآب الذي أرسله، وسر الروح القدس الذي أُرسل بواسطته، وسر نفسه بالقيامة؛ مُعلناً عن الوحدة الكاملة التي بين الآب والابن والروح القدس: «أنا والآب واحد» (يو ١٠: ٣٠).

أما النعمة والرحمة والمجد التي نالها الإنسان بسبب استعلان هذا الثالوث، فهو أمر يفوق التصور. لأن وجود صفة البنوَّة في الله هي التي

فتحت المجال للتجسُّد، فقَبِـلَ ابن الله أن يكون ابناً للإنسان، والتجسُّد أعطى ابن الله الفرصة للتشفُّع عنا أمام أبيه، وصفة البنوَّة أهَّلَتْه لطاعـة الآب عنا كابن حتى الموت لتكميل الفداء، وفي النهاية أهَّلتنـا نحـن أن نصير باتحادنا بالمسيح أبناءً لله!

وصفة الأُبوَّة في الله كانت هي مصدر التعطُّف لإرسال ابنـه إلينـا وبذله عنا: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» (يـو ٣: ١٦). وأهَّلتنـا كأبناء في المسيح أن نكون محبوبين لـدى الآب، لأن الأُبـوَّة مُحبَّـة بطبيعتها، والأبوة مصدر إرسال الروح القدس لنا من خـلال المسـيح كابن لله، لأن الروح القدس أصلاً لا ينبثق من الآب فينا، ولكن ينبثـق من الآب في الابن، ثم باتحادنا بالمسيح نقبله منه فيحل فينا. لذلك يقول: «أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم» (غل ٤: ٦).

فالأبوة هي التي تمنح روح البنوَّة، ولا يمكن للبنوة أن تمنح نفسها من ذاتها. وصفات الروح القدس أهَّلتنا للحياة الأبدية مع الآب والابن، لأن الروح القدس الساكن فينا هو في الآب وفي الابن في آن واحد، لـذلك فالروح القدس هو الذي يجعلنا في النهاية متحدين بالابن والآب، واحداً مع الآب بالابن.

✠ إذا علمنا أن الحياة (الروح القدس) التي في الآب هي نفسها الحياة (الروح القدس) التي في الابن، يظهر لنا بوضوح أن الآب والابن لهمـا حياة واحدة، روحٌ قُدْسٌ واحد، فهما متحدان معاً اتحاداً جوهرياً حيوياً لا فُرقة فيه مطلقاً. وكذلك يظهر لنا أيضاً وبوضوح أن الروح القـدس متحد بالآب والابن اتحاداً جوهرياً حيوياً لا فُرقة فيه مطلقاً.

✠ وإذا علمنا أن الآب هو الذي أعطى الابن هذه الحياة مصدر وحيـاة ابنه: «كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أن تكون له حيـاة

في ذاته» (يو ٥: ٢٦)، لوضح لنا أن الروح القدس منبثق من الآب في الابن؛ وهذا الانبثاق هو في الحقيقة أزلي أبدي دائم وجوهري، لأن الآب والابن متساويان لا سابق فيهما ولا لاحق من جهة الجوهر.

✠ وإذا علمنا أن الروح الأبوية يحملها الروح القدس ويسكبها في الابن على الدوام «الآب يحب الابن» (يو ٣: ٣٥)، لتحقق لنا من ذلك، الاكتفاء الأبوي والاكتفاء البنوي بصورة مطلقة في الذات الإلهية الواحدة. فالآب آب دائماً لأنه محبٌ دائماً، والابنٍ ابن دائماً لأنه محبوب دائماً. ولا يمكن أن يكون الآب ابناً ولا الابن آباً، لأن الروح القدس الحامل للروح الأبوية منبثق من الآب فقط ومنسكب في الابن.

الآب في الابن بواسطة الروح القدس الحامل لروح الأُبوَّة والمنسكب في الابن. فالآب في الابن بروح الأُبوَّة المنسكبة بالحب. ولكن لا يُقال إن الابن في الآب بانسكاب الروح القدس الحالِّ في الآب، لأن الروح القدس الحامل للأبوة يحمل من الآب للابن فقط وليس العكس، إنما يُقال إن الابن في الآب لأن الحب الأبوي يحتوي البنوَّة بالحب، فالابن لا يفارق الآب إطلاقاً. لذلك يُقال إن الابن كائن في حضن الآب، وذلك تعبير دقيق عن احتواء الأُبوَّة للبنوة وليس العكس. فالآب في الابن بالأبوة المنسكبة في البنوَّة. أما كون الابن في الآب، فذلك لأن البنوَّة قائمة بالحب الأبوي في الحضن الأبوي.

✠ من هذا يظهر أن الذات الإلهية ذات كبيرة وعظيمة وكلية الاكتفاء، أصل ومصدر حقيقي للأبوة المُحبَّة، وأصل ومصدر حقيقي للبنوة المحبوبة، وأصل ومصدر حقيقي للروح الحامل الحياة والحامل أيضا لروح الأُبوَّة ولروح البنوَّة لكل الخليقة وبالأخص الإنسان!

✠ كما يظهر لنا بوضوح أن الوحدة الكلية القائمة بين الآب والابن والروح القدس في الذات الإلهية الواحدة كاملة ومطلقة. هذه الوحدة

الكاملة والمطلقة التي في الآب والابن والروح القدس معقود عليها الأمل لتكون مصدر توحيد مقتدر فائق للبشرية بل والخليقة كلها، كرجاء حي لنا جميعاً بواسطة الابن الذي سيجمع كل شيء في ذاته: «ليجمع كل شيء في المسيح ما في السموات وما على الأرض» (أف ١: ١٠)، «ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا ... أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد وليعلم العالم أنك أرسلتني وأحببتهم كما أحببتني» (يو ١٧: ٢١، ٢٣)

الفصل الثاني

إرسالية الآب للابن

هنا نعرض للصفات الخاصة التي يصف بها المسيح نفسه كابن مُرسَل من أبيه، وفيها يحدد علاقته بالآب في حدود الرسالة التي أُرسل من أجلها لتكميلها حيث تبدو العلاقات بين الآب والابن في صورة جديدة وفريدة تشير إلى تكميل مطلق بين المرسِلِ والمرسَل.

أولاً: الاتفاق في الإرادة والمشيئة:

فيظهر التوافق الكلي والمطلق بين الآب والابن في المشيئة، ولكن بسبب أن الابن أخلى ذاته وتجسَّد وأخذ شكل العبد وصار في الهيئة كإنسان ليتبنى قضية الإنسان الخاطئ، أصبحت صورة التوافق بين الابن والآب في المشيئة والإرادة على صورة إنسان أو عبد يطيع الله، مع أنه هو هو لا يزال الابن المساوي للآب في كل شيء.

كما يظهر **الاتفاق المطلق بين الآب والابن أثناء تأديته إرساليته على** الأرض في اتجاهين واضحين متلازمين معاً:

(١) اتجاه إلهي في صورة بنوَّته الأزلية مع الآب، فظهر المسيح كمساوٍ للآب في المشيئة والإرادة في توافق مطلق كمثيل له تماماً، حيث يبدو المسيح كالله تماماً على أساس وحدة المشورة والهدف.

(٢) واتجاه بشري محض، وفيه ظهر المسيح ينفذ مشيئة الآب بالطاعة والخضوع حيث يبدو المسيح كإنسان أقل من الله على أساس ما

تقتضيه الفوارق بين الآمر والمنفِّذ.

وهكذا نشأ في تعبيرات المسيح عن إرساليته تعارض **ظاهري** بين مساواته المطلقة لله كابن مُرسَل من الآب له نفس المشورة والهدف، وبين حقيقة بشريته كإنسان ينفذ مشيئة الله حاملاً طبيعة آدمية هي في واقعها الإنساني أقل من الله.

لذلك نسمع المسيح تارةً يقول: «**أنا والآب واحد**» (يو ١٠: ٣٠). وذلك حينما يعرض لصلته الجوهرية الدائمة بالله، كابن، ثم هو نفسه يعود تارةً أخرى فيقول: «أبي أعظم مني» (يو ١٤: ٢٨) وذلك حينما يعرض لصلته البشرية بالله، كممثل عن الإنسان عامة.

ولكن هذا التعارض الظاهري، أو هذه التضادة اللاهوتية بين لاهوت المسيح وناسوته في التعبيرات الإنجيلية هي من أعمق الموضوعات الإيمانية وأخصبها لروح الإنسان، حيث أن عائدها كله يخصنا نحن؛ فنحن، مع المسيح وفي المسيح، نصبح واحداً مع الله كأبناء، بالرغم من كوننا عبيدا، ومن كون الله أعظم منا بما لا يُقاس!

وهكذا نجد المسيح حينما يتكلم عن إرساليته على المستوى البشري، نحس برنة الخضوع والالتزام كممثل لبني آدم:

+ «أنا لا أقدر أن أعمل من نفسي شيئاً» (يو ٥: ٣٠).

ولكن حينما يتكلَّم المسيح عن إرساليته على المستوى الإلهي كابن الله الممثِّل للآب السمائي، يقول:

+ «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو ٥: ١٧).
+ «أنا قد أتيت باسم أبي» (يو ٥: ٤٣).
+ «مَنْ يُقْبِل إليَّ لا أُخرجه خارجاً» (يو ٦: ٣٧).
+ «كل مَنْ سمع من الآب وتعلَّم يُقْبِل إليَّ» (يو ٦: ٤٥).

+ «الذي أرسلني هو معي و لم يتركني الآب وحدي» (يو ٨: ٢٩).
+ «أنا لست وحدي لأن الآب معي» (يو ١٦: ٣٢).
+ «أنا والآب واحد» (يو ١٠: ٣٠).

وعلى قياس ذلك، نجد أن كل الآيات التي قالها المسيح فيما يخص إرساليته ينبغي أن ننظر إليها من كلا الجهتين حتى تبدو شخصية المسيح واضحة: "**إله وإنسان معاً**"، لاهوته كامل مطلق مساوٍ للآب، وناسوته كامل مطلق مساوٍ لنا في كل شيء ما خلا الخطية وحدها.

ثانياً: انفراد الابن بأعمال خاصة بفداء الإنسان أعطاها له الآب لتبدو فيها إرسالية المسيح فريدة وفائقة عن إمكانية أي إنسان أو نبي أو حتى ملاك، وفي نفس الوقت ضرورية وحتمية لخلاص الإنسان:

+ «الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة للابن» (يو ٥: ٢٢).
+ «أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء ... الواهب حياة للعالم. أنا هو خبز الحياة مَنْ يُقبل إليَّ فلا يجوع. ومَنْ يؤمن بي فلا يعطش أبداً» (يو ٦: ٣٢-٣٥).
+ «أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد. والخبز الذي أنا أُعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم» (يو ٦: ٥١).
+ «مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أُقيمه في اليوم الأخير ... فمَنْ يأكلني فهو يحيا بي» (يو ٦: ٥٤، ٥٧).
+ «قلت لكم إنكم تموتون في خطاياكم لأنكم إن لم تؤمنوا أني أنا هو تموتون في خطاياكم» (يو ٨: ٢٤).
+ «إذ أعطيتَه (أي أعطيتَ الابن) سلطاناً على كل جسد ليعطي حياة أبدية لكل مَنْ أعطيته» (يو ١٧: ٢).

+ «إن كان أحد يحفظ كلامي فلن يرى الموت إلى الأبد» (يو ٨: ٥١).

+ «لهذا يحبني الآب لأني أضع نفسي (أبذلها على الصليب) لآخذها أيضاً. ليس أحد يأخذها مني بل أضعها أنا من ذاتي. لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضاً. هذه الوصية قبلتُها من أبي» (يو ١٠: ١٧، ١٨).

+ «ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي» (يو ١٤: ٦).

من هذه الآيات تبدو لنا شخصية المسيح أنها فائقة حقاً، إذ تولّى أهم وأخطر صفات الله التي عرفناها عنه، والتي تخصنا في الصميم مثل الدينونة. فالمعروف قطعاً أن الله **هو الديان الوحيد** الذي يدين الأحياء والأموات، وهو الذي **يحكم الأرض كلها بالعدل والقسطاس**، سواء في هذا الدهر أو في الدهر الآتي، فإن كان الله قد أعطى كل هذه الدينونة للمسيح، فماذا يكون المسيح؟

كذلك إن كانت أهم صفات الله بالنسبة لنا باعتباره مصدر حياتنا وموتنا قد صارت من اختصاص المسيح إذ أصبح يُحيي مَنْ يشاء وأصبح هو الحق نفسه والحياة، بل وأصبح كل مَنْ لا يؤمن بالمسيح لا يكون له حياة، فماذا يكون المسيح بالنسبة لله؟ وبالنسبة لنا بالتالي؟

وهكذا تكشّفت لنا في إرسالية الله للمسيح، ليس فقط حقيقة شخصية المسيح بالنسبة لله، بل وأهمية المسيح القصوى لحياتنا أو موتنا. فالمسيح أصبح قاضي البشرية الوحيد وفاديها المحيي، فإذا قبلناه قبلنا الحياة الأبدية والخلاص، أما إذا رفضناه نكون قد حكمنا على أنفسنا بالدينونة والموت الأبدي.

الفَصْلُ الثَّالِث

طبيعة رسالة المسيح الإلهية وأهدافها

أولاً: طبيعة الرسالة:

من مجموع التحديدات والتعبيرات التي عبَّر بها المسيح عن علاقة الابن بالآب كمرسل، يتضح لنا أن أقنوم الابن هو الذي تعيَّن أن يمثل ذات الله لدى البشر إنما في صورة متجسدة كإنسان.

غير أننا علمنا سابقاً بالتساوي المطلق بين الآب والابن كأقنومين يُشخِّصان الصفتين الجوهريتين في ذات الله. لذلك فالإرسال هنا كصفة من اختصاص الآب لا تفيد تمايزه عن صفة المرسَل التي من اختصاص الابن.

فالمرسِلُ والمرسَلُ متساويان في كل شيء، ولكن لأن الابن بتجسُّده وأخْذِه صورة عبد قد أخلى نفسه من كل مظاهر اللاهوت أصبح من الضروري أن يعتبر نفسه ممثلاً للآب إذ يتعذر أن يمثل نفسه تعذراً كاملاً لأنه هو قد أخلى نفسه. لذلك نسمعه يقول: «أنا قد أتيت باسم أبي» (يو ٥: ٤٣)، فأصبح قبوله أو رفضه في صورته الضعيفة المهينة كعبد مصلوب هو قبول أو رفض للآب الذي أرسله: «الذي يقبلني يقبل الذي أرسلني» (يو ١٣: ٢٠)، «الذي يبغضني يبغض أبي أيضاً» (يو ١٥: ٢٣).

على أن مجيئه باسم الآب لم يكن ادعاءً، بل كان مدعَّماً بكل برهان. فكان يتكلَّم بكلام الآب بكل حكمة وفطنة، ويعمل المعجزات المذهلة باسم الآب؛ ويتمِّم مشيئة الآب التي لم يكن فيها لنفسه راحة بل تألُّم

وموت. فالكلام والعمل والمشيئة تثبت قطعاً أنه مرسَلٌ من عند الآب وهي التي تشهد له شهادة حية ملموسة أنه من عند الله خرج وليس من نفسه: «خرجتُ من عند الآب وقد أتيتُ إلى العالم، وأيضاً أتركُ العالم وأذهبُ إلى الآب» (يو ١٦: ٢٨)، لذلك فهو لا يطالب أحداً أن يؤمن به وحسب بل يطلب أن يؤمن الناس بالآب الذي أرسله، وذلك بناء على الأعمال التي يعملها باسم أبيه، وحينئذ يكون الإيمان به هو شخصياً كابن مُرسَل من عند الآب، أمراً لابد منه: «إن كنت لست أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا بي؛ ولكن إن كنت أعمل، فإن لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيَّ وأنا فيه» (يو ١٠: ٣٧، ٣٨).

كان المسيح قادراً أن ينسب لنفسه فقط كل الأقوال والأعمال، وكان قادراً أن يشهد لنفسه وتكون شهادته حقاً لأنه ابن الله بالحق وليس مجرد نبي أو إنسان كما كان يظن الفريسيون: «فقال له الفريسيون أنت تشهد لنفسك، شهادتك ليست حقاً. أجاب يسوع وقال لهم: وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق لأني أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب؛ وأما أنتم فلا تعلمون من أين آتي ولا إلى أين أذهب» (يو ٨: ١٣، ١٤).

ولكن المسيح لم يعتمد على شهادة نفسه فقط حينما كان يقول إنه ابن الله، فقد كان دائماً يعتمد على شهادة الآب: «أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الآب الذي أرسلني» (يو ٨: ١٨). أما شهادة الآب له فلم تقتصر على التعاليم والأعمال الفائقة التي كان يقولها ويعملها الابن، ولكن الآب أيضاً كان يشهد له بالروح في قلوب سامعيه: «لا يقدر أحد أن يُقبل إليَّ إن لم يجتذبه الآب» (يو ٦: ٤٤).

لذلك كل إنسان لا يفتح قلبه لشهادة الله الآب عن ابنه يسوع المسيح المرسَل في الجسد، لا يستطيع أن يؤمن بالمسيح كابن مُرسَل من

أبيه بل يظنه نبياً مُرسَلاً من الله، وخصوصاً عندما يسمع عن طاعة المسيح لله كعبد مُهان مذلول حتى الموت! ولكن طاعة المسيح لله لم تكن طاعة إنسان عادية لله تقوم على الاجتهاد واحتمال السقوط والتعثر، بل طاعة فائقة كاملة مطلقة تُنبئ عن اتصال جوهري في المشيئة مع الآب يجعلها لا تخطئ البتة: «لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما ينظر الآب يعمل» (يو ٥: ١٩).

هذا الارتفاع الهائل في القدرة على معرفة إرضاء الآب: «في كل حين أفعل ما يرضيه» (يو ٨: ٢٩) هو سر إلهي لم يتأخر المسيح نفسه عن أن يكشفه لنا: «الآب فيَّ وأنا فيه» (يو ١٠: ٣٨)، «أنا حيٌّ بالآب» (يو ٦: ٥٧)، «لأني منه وهو أرسلني» (يو ٧: ٢٩). إذن، فسرُّ هذه الطاعة الفائقة يكمن في تساوي المشيئة!

وهذه الطاعة التي أطاعها المسيح لله كعبد حتى الموت موت الصليب، يبدو جلالها وتبدو هيبتها ويتضح هدفها الفائق عندما تَقْرن بها قول المسيح عن نفسه: «لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويُحيي، كذلك الابن أيضاً يُحيي مَنْ يشاء» (يو ٥: ٢١)، «أنا هو القيامة والحياة» (يو ١١: ٢٥). وقد قام بالفعل!

إذن، فالطاعة التي أطاعها المسيح لله حتى الموت موت الصليب لا تفيد أبداً أنه كان مجرد إنسان نبي مُرسَل ليموت، بل تفيد أنه ابن الله بالحق تجسَّد في صورة إنسان ليكمِّل عنا نحن العبيد الطاعة الواجبة لله والتي تعذر علينا تكميلها، ويتحمَّل عنا الموت، هذا الموت الذي كان لنا عقوبة عدم الطاعة، هذا الموت عينه جعله المسيح آية لطاعته! لهذا، بطاعة المسيح كعبد حتى الموت نلنا الحرية والحياة الأبدية كبنين لله.

والموت الذي جازه يسوع المسيح على الصليب كان هدفاً أساسياً لإرساليته منذ البدء، وقد كشف عنه المسيح منذ أول لحظة خرج فيها

يعلّم عن ملكوته الروحي وعن سر الفداء المزمع أن يكمله: «هكذا أحب الله العالم **حتى بذل** ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» (يو ٣: ١٦).

أما منظر المسيح كعبد مقيَّد يُحاكَم أمام كلٍّ من رئيس الكهنة وهيرودس وبيلاطس ثم ذهابه للصليب بعد أن خرجت القضية عليه أنه مُدان وأنه مستحق الموت، ثم قبوله حكم الموت صلباً، هذا المنظور بحوادثه المتتابعة لا يمكن فهمه وتكريمه إلا إذا وضعنا مقابله الكلمات التي قالها المسيح عن نفسه بصفته ديان العالم كله الذي وضع الآب في سلطانه كل الدينونة: «لأن الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة للابن ... وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً لأنه ابن الإنسان ... أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً. كما أسمع أدين ودينونتي عادلة لأني لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني» (يو ٥: ٢٢، ٢٧، ٣٠)

ونلاحظ هنا في قوله: «وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً لأنه **ابن الإنسان**»، أن المسيح أكمل بالفعل، وهو في حالة بشريته، دينونة العالم لا بحكم أصدره ضد الناس بل بمقتضى تعاليمه وأعماله وموته الذي أكمل به رسالته، فأكمل بموته وقيامته استعلان النور الذي فيه، وهكذا ظهر كابن الله وكمُرسَل لخلاص العالم، وبذلك أصبح كلٌّ مَنْ رفض المسيح الذي جاء في الجسد "كابن الإنسان" فهو إنما يرفض النور الحقيقي والخلاص الذي يتم بواسطته.

لذلك، فاللحظة التي ظهر فيها المسيح على أضعف صورة كعبد مُهان مذلول مقيَّد وقد حُكِمَ عليه أنه مُدان ومستحق الموت كخاطئ هي هي نفسها اللحظة التي فيها تمت بواسطته دينونة الخطية والعالم كله بل ودينونة الذين قتلوه: «لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالاً لم يعملها أحد

غيري لم تكن لهم خطية. وأما الآن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي» (يو ١٥: ٢٤).

ولا يزال حتى الآن موقف المسيح الضعيف المهان المصلوب إمَّا مصدر حياة ومجد وخلاص أبدي، وإمَّا مصدر دينونة وموت وهلاك أبدي أيضاً. فالذي يكرم دم المسيح الذي سفكه على الصليب ثمناً للخطية ودينونة للعالم والشيطان فإنه ينال غفراناً وتقديساً وحياة أبدية؛ ومَنْ يزدري بصليب المسيح وبدمه المسفوك تبقى عليه خطاياه ويدوم تحت الدينونة إلى الأبد حيث لا يكون له عذر يوم الدينونة: «مَنْ آمن بي ولو مات فسيحيا»، «مَنْ رذلني و لم يقبل كلامي فله مَنْ يدينه. الكلام الذي تكلَّمت به هو يدينه في اليوم الأخير» (يو ١١: ٢٥، ١٢: ٤٨).

ونلاحظ هنا أن إرسالية المسيح في مظهرها الإنساني الضعيف على الصليب تحمل مجداً وقوة إلهية مزدوجة فائقة الوصف: حياة وخلاصاً للعالم، ودينونة له أيضاً. فساعة الصليب رآها المسيح رؤية مزدوجة بالنسبة لنفسه وللعالم:

- الرؤيا الأُولى ظهر فيها الصليب كمجد للمسيح وكل مَنْ يؤمن به.
- «الآن تمجَّد ابن الإنسان وتمجَّد الله فيه، إن كان الله قد تمجَّد فيه فإن الله سيمجِّده في ذاته ويمجده سريعاً» (يو ١٣: ٣١ و٣٢). وقد **أمَّن الآب فعلاً على قول المسيح** فجاء صوت من السماء: «مجَّدتُ وأُمجِّدُ أيضاً» (يو ١٢: ٢٨).
- والرؤيا الثانية ويظهر فيها الصليب كدينونة للعالم ولكل مَنْ لا يؤمن بالمسيح.
- «الآن دينونة هذا العالم» (يو ١٢: ٣١).

وهكذا من وراء مناظر المحاكمة والجلد والمهانة والصلب والموت

تُستعلن لنا شخصية المسيح كواهبِ الحياة الأبدية للعالم وكديَّان للأحياء والأموات! ولكن إن كان الآب قدَ أعطى المسيح أن يعمل هذه الأعمال، إلا أنه لم يتركه وحده لأنها أعمال الله الخالق والمحيي والديان، لذلك يتحتم أن يكون الآب معه في كل خطوة وكل كلمة، لهذا نسمع المسيح يوضِّح هذه الحقيقة بأجلى بيان:

+ «لأن هذه هي مشيئة الذي أرسلني أن كل مَنْ يرى الابن ويؤمن به تكون له حياة أبدية وأنا أُقيمه في اليوم الأخير» (يو ٦: ٤٠).

+ «الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة للابن ... وإن كنت أنا أدين فدينونتي حق لأني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني» (يو ٥: ٢٢، ٨: ١٦).

ومن هذا يتبين أن يسوع المسيح أُرسِل إلى العالم، لا من نفسه ولا بنفسه، بل باسم الآب ليعمل عمل الآب وعمل الابن معاً في وحدة مشيئة وإرادة فائقة:

+ «لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما ينظر الآب يعمل، لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك» (يو ٥: ١٩).

+ «وأنا أعلم أن وصيته هي حياة أبدية، فما أتكلَّم أنا به فكما قال لي الآب هكذا أتكلَّم» (يو ١٢: ٥٠).

+ «لأني قد نزلتُ من السماء ليس لأعمل مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني» (يو ٦: ٣٨).

فالآب والابنُ ممثَّلان في كل قول وكل عمل أكمله المسيح على الأرض من الميلاد حتى الصليب والقيامة!

ومن هذه الوحدة الجوهرية في القول والعمل والمشيئة **القائمة** بين

الآب والابن في حياة المسيح بصورة واقعية حية ملموسة، يتعيَّن أن يكون المسيح هو بالحق ابن الله الوحيد الذي نزل من السماء من عند الآب معلناً أن الله ظهر في الجسد.

ثانياً: مظهر الرسالة:

النزول من السماء والصعود إليها: «لأني قد نزلت من السماء» (يو ٦: ٣٨).

من أهم التعبيرات اللاهوتية التي استخدمها المسيح لتحديد المعنى الخاص لبنويته لله، أي علاقته الجوهرية بالآب، هي كلمة ”نزوله من السماء“ موضحاً بها درايته الحقيقية بالمصدر الحقيقي الذي جاء منه ليتجسَّد ويظهر للعالم، كذلك ”صعوده إلى السماء“ الذي أكمله بالفعل جهاراً أمام تلاميذه بعد القيامة بأربعين يوماً على جبل الزيتون موضحاً به حقيقة نزوله الأول من السماء، ثم كنهاية لرسالته وعودته منتصراً حاملاً طبيعتنا فيه إلى المصدر الذي انحدر منه إلينا؛ حيث كان نزوله من السماء هو الوسيلة العظمى التي حمل فيها كل ما للآب لنا: رؤيا ذاتية للآب ومعرفة كاملة ذاتية للآب ولمشيئته. على أنه ظل محتفظاً بعد نزوله من السماء بوجوده في السماء أيضاً وفي صميم كيان الآب الذاتي:

+ «ليس أحد صعد إلى السماء **إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء**» (يو ٣: ١٣).

+ «ليس أن أحداً رأى الآب إلا الذي من الله **هذا قد رأى الآب**» (يو ٦: ٤٦).

+ «الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو

خبَّر» (يو ١: ١٨).

+ «**لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته** وليست لكم كلمته ثابتة فيكم» (يو ٥: ٣٧، ٣٨).

+ «أنا أعلم من **أين أتيتُ** وإلى **أين أذهب**. وأما أنتم فلا تعلمون من أين آتي ولا إلى أين أذهب» (يو ٨: ١٤).[٢]

+ «فقال لهم: أنتم من أسفل **أما أنا فمن فوق**، أنتم من هذا العالم **أما أنا فلست من هذا العالم**. حيث أمضي أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا» (يو ٨: ٢٣، ٢١).

هذه المعرفة اليقينية بالآب، وهذا الإحساس بالوجود الدائم في حضن الآب، وهذا النزول من السماء إلى الأرض الذي أكمله بإرادته دون أن يفقد وجوده الدائم في السماء، ثم هذا الصعود الذي أحس أنه لابد متمِّمه - هذا كله أراد أن يكشف به المسيح عن حقيقة إرساليته إلى العالم من عند الآب، دون أن تكون هذه الإرسالية، التي تمت في صورة عبد، قادرة أن تُبطِل وجودِه الدائم في السماء وفي حضن الآب أو صعوده أخيراً ظافراً منتصرا!

وكان تعبير المسيح عن هذه الحقيقة الجوهرية لتلاميذه والعالم ليس مجرَّد كلام أو تعليم، بل كان بإحساس شخصي وبدعم سرِّي إلهي تيقَّنه التلاميذ بإحساس مشابه وصدّقوه وآمنوا به: «قال له تلاميذه... الآن

---

(٢) هنا يتحقق في المسيح التقليد السائد بين اليهود بخصوص أن المسيَّا حينما يأتي لا يعرف أحد حينئذ من أين أتى: «وأما المسيح فمتى جاء لا يعرف أحد من أين هو» (يو ٧: ٢٧)، وهو ينصبُّ على وجوده قبل التجسُّد، أما معرفة أصل المسيح بالجسد وحدها فلا تفيد شيئاً بل هي الجهل كل الجهل: «أليس هذا هو النجار ... فكانوا يعثرون به» (مر ٦: ٣)، هذه المعرفة التي وقفت حائلاً دون استعلان حقيقة المسيح.

نعلم أنك عالم بكل شيء... لهذا نؤمن أنك من الله خرجت» (يو ١٦: ٢٩، ٣٠).

والمسيح نفسه شهد لتلاميذه أنهم استطاعوا فعلاً أن يقبلوا منه هذه الحقيقة العظمى: «وهم قبلوا وعلموا يقيناً أني خرجت من عندك وآمنوا أنك أنت أرسلتني» (يو ١٧: ٨).

وكلمة «خرجتُ من عند الآب» لا تفيد الإرسال الظاهر فقط بل في أصل اللغة اليونانية (ἐκ) تفيد «خرج من الأصل»، حيث هنا تنسجم الإرسالية الظاهرة إلى العالم تماماً مع العلاقة الجوهرية التي تبين ثبوت الابن في الآب. كل هذا يوضح سَبْقَ وجود المسيح وجوداً إلهياً في السماء على ظهوره في الجسد إنسانياً على الأرض، هذا الوجود الذي لم يشأ المسيح أن يجعله سرًّا مكتوماً بل أعلنه جهاراً أمام عامة اليهود بكل دقة: «أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومي فرأى وفرح، فقال له اليهود: ليس لك خمسون سنة بعد، أفرأيت إبراهيم؟ (منذ ألفي سنة تقريباً). فقال لهم يسوع: الحق الحق أقول لكم قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» (يو ٨: ٥٦-٥٨)؛ حيث «أنا كائن» هنا تفيد الكينونة الدائمة الأزلية! ἐγώ εἰμι الواردة في التوراة كصفة دائمة لله.

وعلى قياس هذا التصريح الخطير استطاع يوحنا الرسول في إنجيله أن يكشف سر رؤيا إشعياء النبي التي وصف فيها مجد الرب كما رآه، فاعتبر يوحنا الرسول أنها هي هي رؤية مجد المسيح قبل تجسُّده: «رأيت السيد جالساً على كرسي عال ومرتفع وأذياله تملأ الهيكل، السرافيم واقفون فوقه لكل واحد ستة أجنحة باثنين يغطِّي وجهه وباثنين يغطي رجليه وباثنين يطير. وهذا نادى ذاك **وقال قدوس قدوس قدوس رب الجنود مجده ملء كل الأرض** ... ثم سمعت صوت السيد قائلاً: مَنْ

أُرسلُ؟ ومَنْ يذهبُ من أجلنا؟ فقلتُ (إشعياء) هأنذا أَرسلني. فقال: اذهبْ وقُلْ لهذا الشعب اسمعوا سَمْعاً ولا تفهموا وأبصروا إبصاراً ولا تعرفوا، غَلِّظ قلب هذا الشعب وثقِّل أذنيه واطمس عينيه لئلا يبصر بعينيه ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه ويرجع فيُشْفَى» (إش ٦: ١-٣، ٨-١٠).

وعن هذه النبوة يقول يوحنا الرسول: «ومع أنه كان قد صنع أمامهم آيات هذا عددها لم يؤمنوا به، ليتم قول إشعياء النبي الذي قاله: يا رب مَنْ صدَّق خبرنا ولمنِ استُعلنتْ ذراع الرب، لهذا لم يقدروا أن يؤمنوا؛ لأن إشعياء قال أيضاً: قد أَعمَى عيونهم وأَغْلَظَ قلوبهم لئلا يبصروا بعيونهم ويشعروا بقلوبهم ويرجعوا فأشفيهم. قال إشعياء هذا حين رأى مجده وتكلَّم عنه» (يو ١٢: ٣٧-٤١).

فلما ظهر المسيح جسدياً على الأرض كان هو هو بنفسه القائم في حضن الآب: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررتُ» (مت ٣: ١٧). كما يوضح أيضاً أن مجده السابق على تجسده والذي **تخلَّى عنه بإرادته** لكي يباشر عمله كإنسان، ظل محفوظاً له هو كما هو إلى حين صعوده بعد تكميل رسالة اتضاعه! «والآن مجِّدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي **كان لي عندك قبل كون العالم**» (يو ١٧: ٥). وبقدر العار والمذلَّة والانسحاق على الصليب وبقية آلامه التي عاينها تلاميذه، فانسحقوا بسحقه، كان محفوظاً لهؤلاء التلاميذ ولكل مَنْ حمل عار المسيح أن يعاينوا ويشتركوا في مجده الذي له والذي سوف يظهر فيه مع مجد الآب! «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا لينظروا مجدي الذي أعطيتني لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم» (يو ١٧: ٢٤).

ثالثاً: برهان ألوهيَّة الرسالة:

المعرفة الذاتية المتبادلة بين الآب والابن:

المسيح كمُرسَلٍ من الآب لم يحمل إلينا رسالة من عنده بل كان هو رسالة الآب، فهو الابن الذي جاء ليخبرنا عن كل ما عند الآب حتى أخص خصائصه: «الله لم يَرَه أحد قط، الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر» (يو ١: ١٨).

معرفة المسيح لله الآب[٣] ليست كمعرفة أي إنسان أو نبي.

فكلُّ إنسان، معرفته لله مكتسبة، لذلك فهي ناقصة. أما معرفة المسيح لله الآب فهي ليست مكتسبة بل ذاتية جوهرية كاملة كما يعرف الإنسان ذاته، فذات الابن من ذات الآب: «أنا أعرفه لأني منه» (يو ٧: ٢٩). ومما يؤكد أن معرفة الابن للآب معرفة ذاتية هو تبادلها الكامل المطلق المتساوي بينهما، فكما أن الآب يعرف الابن فالابن يعرف الآب تماماً: «الآب يعرفني وأنا أعرف الآب» (يو ١٠: ١٥).

فعلى المستوى البشري قد يكون الإنسان أو النبي معروفاً لدى الله، ولكن يستحيل قط أن يدَّعي أيُّ إنسان أو نبي أنه يعرف الله كما يعرفه الله. فحتى وفي ملء عهد المعرفة التي بالروح القدس وعلى ضوء معرفة المسيح كلمة الله الذاتي، لم يستطع أحد ولا حتى الرسول بولس أن يدَّعي أنه يعرف الله كما يعرفه الله. وكل ما أمكن للرسول بولس أو الرسول يوحنا أن يقولاه عن معرفة الله في الحاضر، هو أنها جزئية وكأنها لغز أو رؤيا من خلال مرآة حيث يصرِّح أن معرفة الإنسان لله لا يمكن أن تصير مساوية لمعرفة الله للإنسان إلا في الحياة الأبدية عندما يُستعلَن الله لنا كما هو: «الآن أعرف

---

(٣) لم يُذكر قط في كل الإنجيل أن المسيح "آمن بالآب" أو "آمن بالله" بأية صورة من الصور، ولكن قيل عنه وقال هو عن نفسه إنه «يعرف الآب» و«يعرفه في ذاته» كما يعرف نفسه، لأنه منه.

بعض المعرفة لكن حينئذ سأعرِف كما عُرِفتُ» (١كو ١٣: ١٢). وكلمة «حينئذ» هنا تفيد المستقبَل في الحياة الآتية.

فإذا تتبعنا كلمة «المعرفة» التي وردت في جميع الأسفار وفي جميع الحالات تقريباً فيما يختص بمعرفة الله في التركيب اللغوي سواء بالعبري أو اليوناني، نجدها لم تأت قط بالمعنى الكامل المباشر للمعرفة، فقط انحصرت إمكانيتها في الزمَن المستقبل فقط أي بمعنى «سنعرف»؛ كما اقترنت مثل هذه المعرفة بالحياة الأبدية وليست الزمنية. ومن الآيات الواضحة في ذلك قول هوشع النبي: «يُحيينا ... **يُقيمنا فنحيا** أمامه. **لنَعْرِفْ** فلْنتتبَّعْ، لنعرف الرب، خروجُه يقينٌ كالفجر» (هو ٦: ٢، ٣). أَي أن المعرفة الكاملة لله لا تأتي إلا مع الحياة الأبدية، وذلك بالقيامة عندما نقف أمامه لنراه كما هو.

وشهوة الإنسان الصالحة ظلت منذ البدء متركزة في إمكانية معرفة الله كما هو، هذه الشهوة للمعرفة كانت أنين الإنسان الذي عبَّر عنه موسى بسؤاله المباشر لله: «أرِني مجدك»، فلم يَرَ إلا جُوده! (خر ٣٣: ١٨ و١٩).

كما نسمع على لسان إرميا أن أفخر ما يمكن أن يقتنيه الإنسان هو معرفة الله: «لا يفتخرنَّ الحكيم بحكمته، ولا يفتخر الجبار بجبروته. ولا يفتخر الغني بغناه. بل بهذا ليفتخرِنَّ المُفتَخر بأنه يفهم ويعرفني أني أنا الرب الصانع رحمة وقضاء وعدلاً في الأرَض لأني بهذه أُسَرُّ، يقول الرب» (إر ٩: ٢٣، ٢٤).

ولكن إشعياء يبكِّت إسرائيل كله أنه لم يعرف الله «الثور يعرف قانيه والحمار معْلَف صاحبه، أما إسرائيل فلا يعرف، شعبي لا يفهم» (إش ١: ٣).

وهذه الحقيقة تيقنها إسرائيل تماماً لأنه بأعماله وسلوكه وعدم حفظه الوصايا، اعتبره جميع الأنبياء أنه شعب لم يعرف الله بعد حتى صار هذا معلوماً لدى كل إنسان. ولذلك يقارن المسيح بين إسرائيل وبين نفسه من جهة هذا الأمر مبكِّتاً حالتهم: «أبي هو الذي يمجِّدني الذي تقولون أنتم إنه إلهكم ولستم تعرفونه. وأما أنا فأعرفه وإن قلتُ إني لست أعرفه أكون مثلكم كاذباً، لكني أعرفه وأحفظ قوله» (يو ٨: ٥٤، ٥٥).

والمسيح، بسبب معرفته ورؤيته الذاتية الخاصة والمباشرة للآب كونه الابن الوحيد له، صار:

١ - الواسطة الوحيدة لمعرفة ورؤية الآب.

٢ - وفي نفس الوقت فإن معرفته ورؤيته هو صارتا بحد ذاتهما صورة طبق الأصل لمعرفة ورؤية الآب نفسه.

+ «ليس أن أحداً رأى الآب إلا الذي من الله. هذا قد رأى الآب» (يو ٦: ٤٦).

+ «ليس أحد يعرف الابن إلا الآب ولا أحد يعرف الآب إلا الابن» (مت ١١: ٢٧).

+ «الله لم يَرَه أحد قط، الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو خَبَّر» (يو ١: ١٨).

+ «لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً» (يو ٨: ١٩).

+ «ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي» (يو ١٤: ٦).

+ «الذي يراني يرى الذي أرسلني» (يو ١٢: ٤٥).

+ «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩).

+ «لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً» (يو ١٤: ٧).

ومن هنا يتضح لنا أن المعرفة الذاتية الخاصة المشتركة بين الابن والآب والرؤيا الذاتية الخاصة المشتركة بينهما هما خاصتان من الخصائص اللاهوتية التي جعلت رسالة المسيح إلى العالم فائقة جداً أعلى من مستوى الأنبياء والملائكة بدون مقارنة؛ فهو وإن كان في الجسد على صورة عبدٍ وفي الهيئة كإنسان، إلا أنه حمل إلى العالم كيان الله وأبرزه ونطقه ذاتياً: «أنا هو» الكائن بذاته؛ وحمل لنا مشيئة الله: «الابن أيضاً يُحيي مَنْ يشاء» (يو ٥: ٢١)؛ وحمل لنا عمل الله: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو ٥: ١٧)؛ وحمل لنا صورة ناطقة لجوهر ذات الله: «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩)، «ولكن إن كنت أعمل فإنْ لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيَّ وأنا فيه» (يو ١٠: ٣٨)، وحمل لنا فكر الله وعقله: «لو كنتم عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً» (يو ١٤: ٧)، وحمل لنا حق الله: «خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني وأنا أعطيها حياة أبدية ولن تهلك إلى الأبد» (يو ١٠: ٢٧، ٢٨)، و«أنا هو القيامة والحياة» (يو ١١: ٢٥)، وحمل لنا الحرية بمفهومها الإلهي أي التحرر منٍ الخطية وسلطانها القاتل: «فإن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحرارا» (يو ٨: ٣٦).

كل هذا جعل دخول المسيح إلى العالم بمثابة استعلان مجسَّد لذات الله: «الله ظهر في الجسد» (١تي ٣: ١٦). ومع هذا الظهور الإلهي المخفي في جسد المسيح دخلت الحياة الأبدية إلى العالم ومعها كل هبات الله ومواعيده، وعرف الإنسان الله ورآه في شخص يسوع المسيح: «ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه» (يو ١٤: ٧)، أي انفتحت المعرفة أمامٍ الإنسان إلى أقصاها حيث تبلغ الرؤيا في الحياة الأبدية إلى مستوى «وجهاً لوجه» وذلك من خلال فكر المسيح وقلبه اللذين سوف نسكن فيهما حسب مسرَّة إرادته لمختاريه: «ليس أحد يعرف الابن إلا الآب ولا أحد يعرف الآب إلا الابن

ومَنْ أراد الابن أن يُعلن له» (مت ١١: ٢٧).

وكون المسيح تجسَّد في طبيعتنا بلحمها وعظامها ونفسها وروحها وكل مكونات الشخصية الإنسانية الكاملة، صار المسيح يعرف الإنسان كما يعرف ذاته وكما يعرف أباه في آن واحد؛ وهكذا صار المسيح: «الوسيط الوحيد بين الله والناس» (١تي ٢: ٥) الذي يوصل فكرنا ووجودنا وحبنا إلى الله ويوصل فكر الله ووجوده وحبه لنا: «أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد ... عرَّفتهم اسمك وسأُعرِّفهم ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به» (يو ١٧: ٢٣، ٢٦). أما معرفة الآب التي أوصلها إلينا يسوع المسيح فهي ليست معرفة كلام أو مبادئ أو حكمة أو علم بالأمور بل هي هي الحياة الأبدية نفسها: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك» (يو ١٧: ٣). فمعرفة الآب التي حملها إلينا المسيح وأوصلها لنا لم يحملها ويوصلها ككلمة مفهومة، بل كروحٍ وحياة كفعل وعمل إلهي ناطق بذاته:

+ «الله بعدما كلَّم الآب بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة، كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه، الذي جعله وارثاً لكل شيء، الذي به أيضاً عمل العالمين» (عب ١: ١، ٢).

وهكذا قبلنا من المسيح روح ذات الله، روح الآب والابن معاً: «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يو ٦: ٦٣)، «الذي يقبلني يقبل الذي أرسلني» (يو ١٣: ٢٠)، «أنا والآب واحد» (يو ١٠: ٣٠). وهكذا قبلنا الحياة الأبدية وقبلنا الإله الوحيد لما قبلنا كلمة الآب أي ابنه. لأنه كما أن معرفة الآب والإيمان به يعطيان حياة أبدية، كذلك معرفة الابن والإيمان به يعطيان حياة أبدية تماماً: «كل مَنْ يرى الابن ويؤمن به تكون له حياة أبدية وأنا أُقيمه في اليوم الأخير» (يو ٦: ٤٠).

ومعرفة الآب هذه التي هي بعينها حياة أبدية لم يعرفها نبي من قبل ذلك قط ولا حملها ملاك، إلا الابن الوحيد يسوع المسيح الذي أرسله الآب ليعطي هذه الحياة الأبدية باسم الآب وباسم نفسه في آن واحد: «أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو ١٧: ٣).

فالآب الذي هو الإله الحقيقي وحده حمله إلينا يسوع المسيح الابن الوحيد وأوصله إلينا بذاته وحياته، لا كمجرَّد نقل معرفة عقلية، بل بتوصيل الآب إلينا بالرؤيا الذاتية: «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩)، وفي قبول الوجود والكيان والاتحاد الذاتي بالله الموجود في ذات المسيح: «الذي يقْبلني يقبل الذي أرسلني» (يو ١٣: ٢٠)، فالآب الذي هو الإله الحقيقي وحده هو والابن واحد: «أنا والآب واحدٌ» (يو ١٠: ٣٠)، فلما أعطانا الابن ذاته الإلهية وحياته الإلهية مبذولاً ومذبوحاً عنا بإرادته ومسرَّة أبيه، أعطانا في نفس الوقت ذات الآب وحياته: «كما أنك أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا ... أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد. وليعلم العالم أنك أرسلتني وأحببتهم كما أحببتني» (يو ١٧: ٢١، ٢٣)، حيث أن هذا الاتحاد الذي أكمله المسيح معنا «أنا فيهم» هو نتيجة مباشرة لمعرفة الآب الذاتية التي أوصلها لنا الابن بذاته وحياته معطياً إياها كحياة أبدية انفتحت علينا في سر جسده الإلهي الموهوب للعالم، الجسد الإلهي الذي يمكن أن يحتوي كل إنسان: فمعرفة الآب الإله الحقيقي وحده التي أوصلها لنا يسوع المسيح، أوصلها لنا بكلامه المحيي أي بحياته، حياته الشخصية السرية المستترة في الجسد. وهكذا يكون الإيمان بالمسيح هو بمثابة حياة أبدية تنفتح مباشرة على معرفة ذاتية للإله الحقيقي وحده، التي تنتهي حتماً باتحاد سري بالآب وبالابن في وحدة الروح الفائقة على العقل والمنطق.

غير أن المعرفة الذاتية للآب كإله حقيقي وحيد التي يوصلها لنا المسيح بذاته وسكبها فينا كحياة أبدية وكقوة إلهية فعَّالة لمنحنا نعمة الاتحاد بالله، لم تبلغ أَوَجَها فينا كمعرفة ذاتية لله إلا بعد موت المسيح على الصليب وقيامته وإرساله الروح القدس الذي كشف لنا سر الآب والابن، أي بعد أن تيقّن لنا تماماً أنه ابن الله **الوحيد**: «وتعيَّن ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات» (رو ١: ٤)؛ «ومتى رفعتم ابن الإنسان فحينئذ تفهمون أني أنا هو» (يو ٨: ٢٨)؛ «وأنا إنْ ارتفعتُ عن الأرض أجذب إليَّ الجميع» (يو ١٢: ٣٢). فشهادة المسيح عن معرفته الذاتية للآب أنه هو والآب إله واحد، أدركها اليهود من كلامه بكل وضوح: «فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً» (يو ١٠: ٣٣)؛ «وقال أيضاً إن الله أبوه معادلاً نفسه بالله» (يو ٥: ١٨). هذه المعرفة الذاتية التي أنكرها عليه اليهود تحققت بعد ذلك كقوة فعَّالة في العالم، استُعلِنَت أولاً بموت المسيح وقيامته، ثم انسكبت في قلوبنا وأذهاننا بالإيمان بواسطة الروح القدس جهاراً.

فالمعرفة الذاتية لله الآب، التي حملها لنا المسيح بحياته، كانت بمثابة رؤيا ذاتية للآب محيية: «كل مَنْ يرى الابن ويؤمن به تكون له حياة أبدية» (يو ٦: ٤٠)، و«الذي رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩)؛ كما كانت هذه المعرفة بمثابة قوّة فعَّالة للحياة الأبدية سرت فينا من خلال موته وقيامته. هذه القوَّة لم يكمل عملها فينا إلا بعد حلول الروح القدس الذي اضطلع بتعريفنا كل الحق المختص بالآب والابن؛ فالروح القدس أكمل كشف وتوصيل الذات الإلهية لنا بصفته روح الله العارف لعمق أعماق الله: «لأن الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله» (١كو ٢: ١٠). وهنا اتضح الرباط الإلهي السرِّي الذي يربط بين المعرفة

الذاتية لله، وبين إعطائنا الحياة الأبدية، لأن الذي اضطلع بتكميل هذه المعرفة لنا هو الروح القدس نفسه المحيي والحامل للحياة الإلهية في ذات الله!

فالروح القدس الذي هو الحياة في ذات الله أكمل لنا توصيل معرفة ذات الآب والابن بتوصيله لنا ذات الحياة الأبدية التي في الآب والابن: «وأنا أطلب من الآب فيعطيكم مُعزِّياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يستطيع العالم أنا يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم ... إني أنا حيٌّ فأنتم ستحيون. في ذلك اليوم تعلمون أني أنا في أبي وأنتم فيَّ وأنا فيكم» (يو ١٤: ١٦-٢٠).

فالابن أعطانا معرفة الآب الذاتية، والروح القدس أعطانا معرفة الابن الذاتية (يو ١٥: ٢٦)، والآب سكب فينا الروح القدس الذي عرفناه كروح ذات الله؛ فكملت فينا معرفة ذات الله معرفة فعَّالة تنبع فينا حياة أبديةً وتُبلغنا الاتحاد بالآب والابن والروح القدس!

رابعاً: قوَّة الرسالة:

الحب المتبادَل بين الآب والابن:

+ «الآب يحب الابن وقد دفع كل شيء في يده» (يو ٣: ٣٥).
+ «لأن الآب يحب الابن ويُريه جميع ما هو يعمله» (يو ٥: ٢٠).
+ «... ليَفْهَمَ العالم أني أُحب الآب» (يو ١٤: ٣١).

الآب والابن متساويان في الجوهر تساوياً مطلقاً، لذلك فإن ذاتهما واحدة ولكنهما متمايزان كلٌّ منهما له الصفة الذاتية التي تميِّزه. فالآب تميِّزه الأُبوَّة والابن تميِّزه البُنُوَّة، ولكن هاتين الصفتين تعودان فتتحدان اتحاداً كليًّا ومطلقاً بالمحبة المتبادلة. فالآب بالمحبة الكلية يمنح كل ما له للابن، والابن إذ يأخذ كل ما للآب يعود فيطيع الآب في كل ما له.

فالمحبة الأبوية المتبادلة مع الطاعة البنوية جعلت الذات الإلهية في وحدانية فائقة العمل والغنَى من جهة الحب والطاعة معاً؛ فالمحبة الإلهية الكاملة التي تفيض من الآب نحو الابن بلا قيود أو حدود حتى بكل أعماق الأُبوَّة تُعتبر الصفة الطبيعية التي تجعل الأقنومين في اتحاد ذاتي مطلق؛ ويقابلها الطاعة الإلهية المطلقة التي يحتفظ بها الابن من نحو الآب بلا قيود ولا حدود حتى إلى أعماق البنوَّة التي تجعل كل ما للآب الذي صار للابن مردوداً بالطاعة إلى الآب. وهكذا تؤمِّن طاعة الابن المطلقة سخاء محبة الآب المطلقة:

+ «لهذا يحبني الآب لأني أضع نفسي لآخذها أيضاً. ليس أحد يأخذها مني بل أضعها أنا من ذاتي. لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضاً» (يو ١٠: ١٧ و١٨).

ولكن محبة الآب للابن وطاعة الابن للآب هما صفتان طبيعيتان أزليتان في كيان الآب والابن. فالآب يحب الابن من قبل الخليقة قبل إنشاء العالم: «لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم» (يو ١٧: ٢٤)؛ والابن قائم بطبيعته في طاعة الآب كيانيًّا «أنا حيٌّ بالآب» (يو ٦: ٥٧) «لأني منه» (يو ٧: ٢٩)، «لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلاَّ ما ينظر الآب يعمل» (يو ٥: ١٩). وقد ظهرت طاعة الابن بصورة عميقة وفائقة على العقل البشري في نزوله من السماء وتجسُّده من العذراء: «لأني لم آت من نفسي بل ذاك أرسلني» (يو ٨: ٤٢)، «من نفسي لم آتِ بل الذيَ أرسلني هو حق الذي أنتم لستم تعرفونه. أنا أعرفه لأني منه وهو أرسلني» (يو ٧: ٢٨، ٢٩).

وإزاء هذه الطاعة التي فيها بذل الابن نفسه ليكرم الآب الذي أرسله: «لكني أكرم أبي وأنتم تهينونني» (يو ٨: ٤٩)، نرى الآب لا يترك ابنه وهو في حال تجسُّده قط: «وأنا لست وحدي لأن الآب معي» (يو ١٦: ٣٢).

وفي كلٍّ من إرسالية الابن من السماء، أي نـــزوله من حضن الآب، ثم في احتضان الآب للابن المتجسِّد المُرسَل في هيئة عبد، تظهـــر المحبـــة والطاعة الإلهيتان صفتين عاملتين معاً للخـــلاص في أروع أعمـــال الله الخالق! لأن صفتي المحبة والطاعة اللتين في الذات الإلهية ليستا منغلقـــتين على نفسيهما في الآب والابن بل فائضتين بالخير العميم علـــى الخليقـــة كباقي صفات الله! وهكذا أحبَّ الآب العالم من خلال حبـــه لابنـــه: «الذي يحبني يحبه أبي» (يو ١٤: ٢١)، «الآب نفسه يحبكم لأنكم قـــد أحببتموني وآمنتم أني من عند الله خرجت» (يو ١٦: ٢٧). وكـــذلك أيضاً فدى الابن العالم من خلال طاعته لأبيه! «العمل الـــذي أعطيـــتني لأعمل قد أكملته» (يو ١٧: ٤) «فلما أخذ يسوع الخلَّ قـــال: قـــد أُكمل. ونكَّس رأسه وأسلم الروح» (يو ١٩: ٣٠).

وحتى الوحدة الذاتية الكاملة والمطلقة التي في الطبيعة الإلهية التي تبدو كنتيجة حتمية لالتحام الحب الأبوي والطاعة البنوية بين الآب والابـــن: «أنا والآب واحد» (يو ١٠: ٣٠)، لا تقف هـــذه الوحـــدة جامـــدة منحصرة في الذات الإلهية، بل نجد أن هذه الوحدة الذاتية الإلهيـــة قـــد فاضت علينا من خلال المسيح كقوة فعَّالة: «ليجمع أبناء الله المتفـــرقين إلى واحد» (يو ١١: ٥٢). فالحب الأبوي المتدفق في الابـــن اســـتطاع الابن أن ينقله إلينا ويسكبه فينا من خلال طاعته للآب على الـــصليب حتى الموت. فمن جهة، حصلنا على محبة الآب التي في الابن؛ ومن جهة أخرى حصلنا على طاعة الابن للآب. وأينما وُجدَت هاتان الـــصفتان تفاعلتا معاً بقوة الله الواحد لتكوين وحدة على مستوى الآب والابـــن بالروح القدس: «ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا ليؤمن العالم أنك أرسلتني ... أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد وليعلم العالم أنك أرسلتني وأحببتهم

كما أحببتني ... عرَّفتُهم اسمك وسأُعرِّفهم ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم» (يو ١٧: ٢١، ٢٣، ٢٦).

ولكن لئلا يعثر الذهن البشري في معنى طاعة الابن للآب كأنها إجبارية أو اضطرارية بمقتضى صفتها الطبيعية كطاعة الأضعف للأقوى أو الأقل للأكثر، يعود المسيح وينبه بشدة ذهن العالم أن هذه الطاعة البنوية هي التعبير الأصيل العملي لمفهوم محبة الابن نحو الآب: «ولكن ليَفْهَمَ العالم أني أحب الآب» (يو ١٤: ٣١).

إذن، فليس فقط من خلال طاعة الابن استطاع الآب أن يرسل ابنه ويبذله عن حياة العالم، بل ومن خلال محبة الابن للآب المساوية لطاعته للآب تماماً، فالابن أطاع على قدر حبه للآب وأحب على قدر طاعته للآب.

كذلك لئلا يعثر ذهن الإنسان في المفارقة بين محبة الآب للابن وطاعة الابن للآب بسبب إرسال الآب للابن إلى العالم، نجد الابن يقوم بعملية إرسال مشابهة تماماً لما صنعه الآب معه، فالابن قام بإرسال الروح القدس من عند الآب إلى العالم: «ومتى جاء المعزِّي (الباراكليت) الذي **سأُرسله أنا إليكم** من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي» (يو ١٥: ٢٦).

فهنا يتضح بأجلى صورة سلطان الابن المساوي للآب في الإرسال والقائم على أساس الحب والسرور المتبادل بين الآب والابن والروح القدس. فكما أرسل الآب الابن من عنده؛ هكذا أرسل الابن الروح القدس من عند الآب.

والمحبة القائمة بين الآب والابن وبين الابن والآب هي من صميم طبيعة الله الأزلية «الله محبة» (١يو ٤: ٨). فالمحبة المتبادلة بين الآب

والابن محبة أزلية ومجيدة وفريدة كطبيعة الله، لذلك نسمع الآب من السماء يدعو المسيح جهاراً بصوت مسموع وهو على نهر الأردن: «أنت ابني الحبيب الذي به سررت» (مر ١: ١١). وهذه الشهادة يعتمد عليها المسيح في الإعلان عن شخصه: «الآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي» (يو ٥: ٣٧)، حيث كلمة «الحبيب» تفيد معنى «المحبوب الوحيد». وهذه إشارة إلى البنوَّة الإلهية الكاملة الوحيدة والفريدة في الله المعبَّر عنها بالبنوَّة الوحيدة "μονογενής".

والإنجيل قد أشار إليها في عدة مواضع إما صراحةً كما في (يو ١: ١٨): «الله لم يره أحد قط، **الابن الوحيد** الذي هو في حضن الآب هو خبَّر»؛ وقول المسيح نفسه عن نفسه: «الذي يؤمن به (بابن الله) لا يُدان؛ والذي لا يؤمن قد دينَ لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد» (يو ٣: ١٨). كما أشار إليها تَلميحاً في مَثَل الابن الوحيد لصاحب الكرم الذي قتله الكرَّامون الأردياء (مر ١٢: ٦).

وهنا إذ تظهر المحبة الإلهية أنها من صميم طبيعة الله المعبِّرة عن الذات الإلهية، يكون التجسُّد الإلهي لفداء العالم استعلاناً ملموساً لمحبة الله، وبالتالي استعلاناً لذات وطبيعة الله: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» (يو ٣: ١٦).

فالمحبة الإلهية لم تنحصر في الذات الإلهية لتبقى مجهولة بل ظهرت واستُعلنت واستفاضت في البذل والفداء العجيب الذي أكمله الله بالتجسُّد لتكميل عمله الذي بدأه بالخلقة، وهكذا عرفنا محبة الله الذاتية التي سكبها علينا وفينا في شخص يسوع المسيح ابنه الوحيد المحبوب لما بذله لخلاصنا وفدائنا من الموت الأبدي.

ولذلك أصبح الدخول إلى معرفة الله معرفة ذاتية والإيمان به وتقدير

أعماله يستحيل أن يتم إلا من خلال معرفة «محبة المسيح الفائقة المعرفة» (أف ٣: ١٩) التي استُعلنت ببساطة وبغاية الوضوح في الفداء الذي أكمله لنا الله بابنه: «ونحن قد نظرنا ونشهد أن الآب قد أرسل الابن مخلِّصاً للعالم، مَنْ اعترف أن يسوع هو ابن الله فالله يثبت فيه وهو في الله. ونحن قد **عرفنا وصدَّقنا المحبة** التي لله فينا» (١يو ٤: ١٤-١٦).

إذن، فالمسيح المتجسِّد المصلوب هو استعلان لمحبة الله. ومَنْ يصدِّق ويؤمن بالمسيح يصدِّق ويؤمن بالمحبة الإلهية؛ فالله هو محبة بحسب طبيعته، ومحبته هذه الأزلية والقائمة بين الآب والابن التي كانت مخفية كسرٍّ مكتوم منذ الدهور قد انكشفت لنا في تجسُّد ابنه وتوضَّحت لنا في عمل الصليب، فأصبح كل مَنْ يثبت في المسيح يثبت في ذات الله لأنه يثبت في المحبة المصلوبة التي هي صميم طبيعة الله. «الله محبة. ومَنْ يثبت في المحبة يثبت في الله والله فيه» (١يو ٤: ١٦). بحيث أن الإيمان بالله، بدون الثبوت في محبته المتجسِّدة المعلَنة في صليب ابنه، يصبح عاجزاً وغير معبِّر عن حقيقة الله المحبة! لأن الإيمان لا يحيا أو يعمل إلا بالمحبة: «الإيمان العامل بالمحبة» (غل ٥: ٦).

وليس ذلك فقط بل والنتيجة الحتمية لهذه المحبة المعروضة علينا مجاناً أن كل مَنْ يثبت في المسيح المصلوب يصير ابناً لله: «كل مَنْ يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد وُلِدَ من الله» (١يو ٥: ١)، لأن الثبوت أو الاتحاد بالابن هو دخول في سر البنوَّة.

وكل مَنْ يحصل على البنوَّة لله يوهَب بالتالي روح المحبة والطاعة عينها التي في المسيح بطبيعتها الإلهية السخية الباذلة، ليصبح قادراً بالتالي أن يحب ويطيع الله، كابن له، حيث ينال روح البذل التي للمسيح أي روح الصليب: «لأن المحبة هي من الله وكل مَنْ يحب فقد وُلِدَ من الله ويعرف الله. ومَنْ لا يحب لم يعرف الله لأن الله محبة. بهذا أُظهرت محبة الله فينا

أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به ... إن أحبَّ بعضنا بعضاً فالله يثبت فينا ومحبته قد تكمَّلت فينا ... مَنْ يحب الله يحب أخاه أيضاً» (١يو ٤: ٧-٩، ١٢، ٢١)، «ومَنْ لا يحب أخاه يَبْقَ في الموت» (١يو ٣: ١٤). وبهذا أصبح الإيمان بالمسيح والثبوت في محبته هو الباب الوحيد المؤدِّي إلى الحياة الأبدية في محبة الله ومحبة الناس التي هي بمثابة الانتقال من الموت إلى الحياة ومن الظلمة إلى النور. لأنه لما انسكبت فينا محبة الله بواسطة روح المحبة (رو ٥: ٥)، الذي مهَّد له ابن الله بغسل قلوبنا وتقديسها بدمه، استطعنا أن ندخل في مجال المحبة الإلهية المتبادلة بين الآب والابن بفعل الروح القدس فصارت لنا «شركة مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح» (١يو ١: ٣)؛ كما صار لنا بالتالي «شركة بعضنا مع بعض، ودم يسوع المسيح ابنه يطهِّرنا من كل خطية» (١يو ١: ٧).

وفي النهاية نرى أن محبة الله المذخرة لنا في شخص يسوع المسيح ابن الله الوحيد إذا عرفناها وقبلناها في قلوبنا عرفنا النور والحياة والخلود وتنسمنا رائحة القداسة في سرٍّ ودخلنا بالتالي في الحب الإلهي.

خامساً: مجد الرسالة:

المجد المتبادل بين الآب والابن:

+ «مجِّد ابنك ليمجِّدك ابنُك أيضاً» (يو ١٧: ١).

كلمة "المجد" في المفهوم الإلهي أو بالاصطلاح اللاهوتي غير كلمة "المجد الدنيوي" أو "مجد الناس"، لأن المجد الدنيوي أو مجد الناس هو إظهار الشيء أكثر من طبيعته وحقيقته، أما المجد الإلهي أو مجد الله فهو إظهار حقيقة الله وطبيعته كما هي أو إعلان وجوده أو حضرته، لذلك فالمجد الإلهي يُرمَز إليه بالنور أو البهاء، والمسيح بهذا المعنى جاء لمجد الله الآب أي ليعلن عن طبيعة الله وعن حقيقته وعن وجوده وحضوره فهو

«بهاء مجد الله» (عب ١: ٣)، وفي نفس الوقت هو «نور العالم» (يو ٨: ١٢)، بمعنى ظهوره أو حضوره علناً في العالم.

المجد المتبادَل بين الآب والابن، في حديث المسيح لنا، هو إحدى علائق الاتحاد الشخصي في الله للإعلان عن التساوي المطلق بين الآب والابن كالمحبة المتبادَلة وكالمعرفة المتبادَلة والوجود المتبادَل، وذلك لتكميل صورة وحدة الذات الإلهية في ذهننا.

- فالآب يعرف الابنٍ معرفةٍ كلية، والآب يحب الابن حباً مطلقاً، والآب يمجِّد الابن تمجيداً كاملاً، والآب في الابن وجوداً أبدياً أزلياً.
- كذلك فالابن يعرف الآب معرفة كلية، والابن يحب الآب حباً مطلقاً، والابن يمجِّد الآب تمجيداً كاملاً، والابن في الآب وجوداً أبدياً أزلياً.

لذلك "الآب والابن واحد".

والابن لَمَّا تجسَّد ظل يمارس عمله الأقنومي الأزلي من جهة تمجيد الآب، وإنما علناً بالقول والعمل، على مستوى الإنسان. فإرسالية المسيح إلى العالم كانت في حقيقتها الخطوة العظمى لإعلان مجد الآب للعالم، لأن المسيح استطاع بأقواله وأعماله أن يُظهر مجد الآب وليس مجد نفسه: «لكني أُكرم أبي وأنتم تهينونني. أنا لست أطلب مجدي» (يو ٨: ٤٩، ٥٠).

ولما جاء وقت الصلب الذي بدا أمام التلاميذ كأنه إهانة وحطَّة للمسيح وللآب الذي أرسله، سأل المسيح من الآب أن يعلن بصوته عن حقيقة إرساليته، وصلَّى أمام التلاميذ: «أيها الآب مجِّد اسمك. فجاء صوت من السماء مجَّدتُ وأُمجِّد أيضاً» (يو ١٢: ٢٨). فـ«مجَّدتُ» هنا تفيد العمل المشترك بين الآب والابن في إرسالية الخدمة التي أكملها المسيح حتى بداية الصلب، وقد شهد بالفعل لهذه الخدمة من كافة الشعب، و«أُمجِّد أيضاً» تفيد العمل العجيب المزمع أن يكمِّله الآب مع

الابن في القيامة ثالث يوم لكشف مجد الصليب كموت إرادي كفَّاري سيتم بمسرة الآب والابن معاً. ولما حسب التلاميذ والجمع الواقف أن الصوت الذي جاء من السماء يختص بالابن وحده، صحَّح المسيح أفكارهم بقوله: «ليس من أجلي صار هذا الصوت بل من أجلكم» (يو ١٢: ٣٠). أي أن سؤال المسيح من الآب لم يكن توسُّلاً شخصياً من المسيح لأجلٍ ذاته، كأنه يحس بالصليب كمهانة لنفسه، ولا إجابة الآب كانت تطميناً للمسيح، كأن المسيح يرى في عمله وصليبه نقصاً أو امتهاناً لمجد الآب الذي أرسله، بل كان السؤال والجواب معاً من أجل التلاميذ والجمع ليعرف العالم أن: «يسوع المسيح هو ربٌّ لمجد الله الآب» (في ٢: ١١) بالحقيقة، سواء في تجسُّده أو خدمته أو موته أو قيامته.

إذن، فإرسالية المسيح إلى العالم التي انتهت بالصليب كانت امتداداً لعمل الابن منذ الأزل من جهة تمجيد الآب، إنما ما كان يتم سرًّا بين الابن والآب في ذاهما أعلنه المسيح جهاراً للعالم بالقول والعمل والحب والطاعة حتى الموت، فصار كل قوله وكل عمله وكل حياته على الأرض وكل آلامه وموته، وأخيراً قيامته فعْلاً واحداً متصلاً لتمجيد الآب: «أنا مجَّدتُك على الأرض» (يو ١٧: ٤).

وهكذا ثبت أن إرسالية المسيح على الأرض بالنسبة لله الآب هي نفسها صورة طبق الأصل من علاقته الذاتية بالآب كابن وحيد متحد بأبيه منذ الأزل. فرسالة المسيح كشفت بالتعبير العملي المنظور عن علاقة الابن بالآب أن «يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب» (في ٢: ١١).

أما فيما يختص بتمجيد الآب للابن، فالمسيح يشير إشارة عجيبة إلى أن تمجيد المسيح للآب تمجيداً كاملاً ومطلقاً هو بحد ذاته برهان قاطع على استحقاق المسيح لقبول تمجيد الآب له!

والمسيح يكشف هذه الحقيقة على مراحل:

فالمرحلة الأولى:

يعلن فيها المسيح أن هناك فرقاً جوهرياً بين المجد الذي من الله والمجد الذي من الناس، فكل مَنْ يأتي باسم نفسه ويطلب مجداً من الناس، هذا إنما يطلب كرامة ومجداً ومنفعة لذاته، وهذا لا يوافق الإيمان بالله أصلاً: «لكني قد عَرَفْتُكم أن ليست لكم محبة الله في أنفسكم. أنا قد أتيتُ باسم أبي ولستم تقبلونني. إن أتى آخر باسم نفسه فذلك تقبلونه. كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعض **والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه؟**» (يو ٥: ٤٢-٤٤). وهنا يلمِّح المسيح أن مجد الناس شيء ومجد الله شيء آخر كليةً.

المرحلة الثانية:

وفيها يعلن المسيح أن مَنْ يعمل أو يتكلَّم من نفسه فهو يطلب مجد نفسه، وبالتالي لا يعود مستحقاً لمجد الله. أما الذي يعمل ويتكلَّم من الله ويطلب مجد الذي أرسله فهو يكون صادقاً في تعليمه وليس فيه ظلم (عدم برٍّ) «مَنْ يتكلَّم من نفسه يطلب مجد نفسه؛ وأما مَنْ يطلب مجد الذي أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم» (يو ٧: ١٨).

وهنا كلمة «ليس فيه ظلم» ترجمتها الحرفية «ليس فيه عدم برٍّ البتة» مشيراً إشارة خاصة مميِّزة لنفسه من جهة صدقه المطلق وبرِّه الكامل دون جميع المعلِّمين.

المرحلة الثالثة:

إن المسيح ليس فقط لا يطلب مجداً لنفسه، بل إنه تخلَّى أصلاً عما له من مجد خصوصي أو طبيعي (وذلك عندما تجسَّد وظهر كإنسان تحت الناموس). وعندما تخلَّى عن مجده الخصوصي أعطى بالتالي كل المجد لله الآب دون أن يطلب قط مجداً لنفسه أو مجد نفسه:

+ «أنا لست أطلب مجدي، يوجد مَنْ يطلب ويدين» (يو ٨: ٥٠).

فالابن بعد أن تخلَّى عن مجده وظهر كعبد مطيع لله ليتمِّم مسرَّةَ الآب، أصبح من المحتم أن الآب نفسه هو الذي يمجِّده ويطلب له مجداً من البشر بحيث أن كل مَنْ لا يعطي المجد للابن يُدان: «مَنْ لا يُكرم الابن لا يكرم الآب الذي أرسله» (يو ٥: ٢٣)؛ كما أصبح من المحتم أن يضطلع الآب بإعادة كل المجد لابنه الذي كان له من قبل تجسُّده وإخلائه «والآن مجِّدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم» (يو ١٧: ٥)، وهنا يُظهِر المسيح نفسه بغاية الوضوح أنه هو هو الصادق الذي ليس فيه عدمَ برٍّ البتة، الذي مجَّد الآب بحياته وأصبح هو الوحيد المستحق أن يطلب المجد من الإله الوحيد. ولكن المسيح لا يطلب مجداً إضافياً لذاته بل يطلب مجده الخصوصي عند ذات الآب أو في ذات الآب!

المرحلة الرابعة:

وفيها يكشف المسيح فجأة عن المجد المشترك الذي له مع الله الآب حينما يعلن، بصورة خفية سرية، أنه عندما يضع نفسه للموت لمجد الله، فالله يُظهِر حتماً مجده فيه. وفي حادثة إقامة لعازر من الموت يسبق المسيح ليعطي صورة مسبقة لهذا عند إعلانه استعداده للموت لمجد الله: «... قال لتلاميذه: لنذهب إلى اليهودية أيضاً، قال له التلاميذ: يا معلِّم الآن كان اليهود يطلبون أن يرجموك وتذهب أيضاً إلى هناك؟ ... قال توما ... للتلاميذ رفقائه: لنذهب نحن أيضاً لكي نموت معه ... فلما سمع يسوع قال: هذا المرض ليس للموت بل لأجل مجد الله ليتمجَّد ابن الله به.» (يو ١١: ٧، ٨، ١٦، ٤).

وقبيل إقامة لعازر بلحظات، لَمَّا بدا من مرثا شك من جهة إمكانية المسيح لإقامة ميت منتن له أربعة أيام في القبر لأن هذا من عمل الله

وحده، بادرها المسيح بقوله: «إنْ آمنتِ ترين مجد الله» (يو ١١: ٤٠). وهكذا وقف المسيح في وسط القبور معَ الباكين على لعازر الميت، كمتسلِّط على الموتِ وعلى الحياة، وكشف عن مجد الله الذي فيه عندما سلَّم لعازر لأهله حياً، مشيراً في هذه الحادثة إلى قدرته الخاصة الذاتية على تمجيد الله جهاراً أمام الناس، لأنه لم يدعُ لعازر للقيام من الموت باسم نفسه بل باسم الآب: «ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال: أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لي، وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي، ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلتُ، ليؤمنوا أنك أرسلتني، ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم: لعازر هلمَّ خارجاً، فخرج الميت» (يو ١١: ٤١-٤٤). وهكذا قام لعازر «لأجل مجد الله ليتمجد ابن الله به» (يو ١١: ٤).

ولكنٍ إن كان المسيح قد مجَّد الآب بحياته بهذه الصورة فظهر وحده مستحقاً لمجد الله إذ استحق أن يُحيي مَنْ يشاء!! فكم بالحري استطاع المسيح أن يمجِّد الآب عندما تقدَّم هو نفسه ليقتحم الموت ومات فعلاً، فتمجد الله بطاعته وفي بذله لنفسه عن حياة الآخرين!

لذلك يُعتبر الصليب أقوى أعمال المسيح التي مجَّد بها الآب والذي استحق به أن يأخذ كل مجده من الآب في آن واحد، فالصليب هو مجد المسيح، والمسيح المصلوب هو مجد الآب. هكذا رأى المسيح مجده ساعة الصليب: «قد أتت الساعة ليتمجَّد ابن الإنسان» (يو ١٢: ٢٣). وهكذا رأى الآب مجده في المسيح المتقدِّم إلى الصليب: «أيها الآب **مجِّد اسمك**، فجاء صوت من السماء: مجَّدتُ وأُمجِّدُ أيضاً» (يو ١٢: ٢٨)؛ «قال يسوع: الآن تمجَّد ابن الإنسان وتمجَّد الله فيه، إن كان الله قد تمجَّد فيه فإن الله سيمجِّده **في ذاته** ويمجِّده سريعاً!» (يو ١٣: ٣١، ٣٢)

هكذا يرتبط إعلان مجد المسيح الابن بمجد الله الآب في آن واحد في الصليب! الابن يركز في الصليب كل طاعته المنظورة للآب، معطياً كل المجد للآب وحده علانية بهذه الطاعة، وبهذا الموت الكفاري عن الآخرين (يو ١٩: ٣٠)؛ والآب يركِّز في المسيح المصلوب كل قوَّة حبه فيقيمه من الموت ويعطيه كل مجده!!

+ «لهذا يحبني الآب لأني أضع نفسي لآخذها أيضاً» (يو ١٠: ١٧).
+ «ولكن الذي وُضِعَ قليلاً عن الملائكة، يسوع، نراه **مكلَّلاً بالمجد** والكرامة من أجل ألم الموت» (عب ٢: ٩).
+ «أمَا كان ينبغي أن المسيح **يتألَّم بهذا** ويدخل **إلى مجده**» (لو ٢٤: ٢٦).

على أن مجد الصليب سواء بالنسبة للابن، أو بالنسبة للآب بواسطة الابن المصلوب، قد استُعلن جهاراً بقيامة المسيح من بين الأموات وصعوده إلى السموات فتعيَّن أنه هو بلا شك ابن الله الوحيد وأنه دخل إلى مجده الذي كان له: «والكلمة صار جسداً وحلّ بيننا ورأينا مجده (بالقيامة) مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً» (يو ١: ١٤).

ولكن الذي يسترعي انتباهنا جداً هو أنه حتى المجد الخصوصي الذي للابن الذي أخذه باستحقاق طاعته للآب في الموت موت الصليب قد أعطاه لنا أيضاً «أنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد» (يو ١٧: ٢٢).

ولكن هنا مجد المسيح الخصوصي في حدوده المنظورة ليس بمفهوم مجد الناس الذي نعرفه أنه انتفاخ وتعظُّم ومنفعة ذاتية، بل هو مجد الصليب الذي هو سر المجد الإلهي الحقيقي وجوهره، والباب الوحيد المؤدِّي إلى المجد الحق. فكما أَعطى الآب أن يتمجَّد الابن بالصليب، هكذا منح المسيح لنا هذا السر عينه: «لأنه قد وُهِبَ لكم لأجل المسيح لا أن

تؤمنوا به فقط بل أيضاً أن تتألَّموا لأجله ... لأننا إن كنا **نتألم معه** لكي **نتمجَّد أيضاً معه**» (في ١: ٢٩؛ رو ٨: ١٧). «كما أرسلني الآب أرسلكم أنا» (يو ٢٠: ٢١). المسيح هنا يهبنا شيئاً من صميم العلاقة التي تربطه بالآب إنما في صورة خدمة ومعاناة وصليب، التي هي مفتاح المجد الحقيقي وبرهان استحقاقه. لأن بالصليب تم أعظم أسرار الله فينا وهو اتحادنا بالمسيح المصلوب والممجَّد!! «وأنا **ممجَّد فيهم**» (يو ١٧: ١٠) بمعنى «أنا مصلوب فيهم» أي أنهم يتألَّمون معي ومن أجلي!! فكما أن الابن ممجد في الآب والآب ممجد في الابن ببرهان الحب والطاعة وهذا كله استُعلن عملياً بالصليب؛ كذلك أصبح المسيح ممجَّداً فينا ونحن ممجَّدين في المسيح بهذا الصليب نفسه الذي عليه قد تألَّم المسيح عنا، ونحن مستعدون أن نتألم معه لطاعة الآب. وهكذا انتقل مجد الصليب إلينا كرباط إلهي يربطنا بالله كما ارتبط الابن بالآب!!

المجد الآتي المشترك بين الآب والابن:

على أن مجد الابن الذاتي، الذي تخلَّى عنه في التجسُّد ثم استعاده المسيح بطاعته على الصليب واستُعلن بقيامته وصعوده إلى السموات، هذا المجد لن يكمل استعلانه لنا علناً بصورته الإلهية الكاملة الفعَّالة إلا في مجيئه الثاني لدينونة العالم حيث كرسي الدينونة هو آخر استعلان لمجد المسيح: «متى جاء ابن الإنسان **في مجده** وجميع الملائكة القديسين معه فحينئذ يجلس على **كرسي مجده** ويجتمع أمامه جميع الشعوب فيميِّز بعضهم من بعض» (مت ٢٥: ٣١، ٣٢).

على أنه يستحيل حينئذ أن يُستعلن مجد المسيح بدون مجد الآب لأن كلاًّ منهما يتمجَّد بالآخر: «متى جاء **بمجده ومجد الآب**» (لو ٩: ٢٦)، حيث يُفهم هنا تماماً أن مجد الآب ومجد الابن هما معاً ذات الله الواحد،

وأن استعلاهما معاً في مجيء المسيح سوف يرفع معرفتنا للآب والابن إلى أقصى حد، إلى حد الحب والاتحاد!!

فإن كنا محصورين الآن في مفهوم مجد الصليب باعتباره مدخلاً حسيًّا للمجد العتيد أن يُستعلن فينا حسب قول الإنجيل: «لأن خفة **ضيقتنا** الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثقَلَ مجد أبدياً»، «إن آلام الزمان الحاضر لا تُقاس بالمجد العتيد أن يُستعلَنَ فينا»، «وإن كنا **نتألم** معه لكي **نتمجَّد** أيضاً معه» (٢كو ٤: ١٧؛ رو ٨: ١٨؛ رو ٨: ١٧). إلا أن المجد الآتي الذي سيُستعلَن لنا في المسيح سيكون بحد ذاته حضرة إلهية كاملة؛ عندما نُدعى إليها نكون قد بلغنا أعمق أسرار الله التي في المسيح، لأن رؤية مجد المسيح هو هو الوجود معه، وهو في آن واحد وجود في حضرة الله، وبالتالي اشتراك فعلي في الحياة الأبدية معه لأنه يستحيل أن نُدعَى للحضرة الإلهية دون اتصال بل دون اتحاد. لذلك يجعل المسيح الوجود معه في السماء مرادفاً عملياً لرؤية مجده، وبالتالي مدخلاً للاطلاع على سر حب الآب الأزلي له: «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا لينظروا **مجدي** الذي أعطيتني، لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم» (يو ١٧: ٢٤).

مجد الله، كما قلنا، هو هو حضرته تماماً وهو بالنسبة لنا نور يتم فيه انكشاف واقعي لطبيعة الله في عملها وفعلها: «أنا هو نور العالم» (يو ٨: ١٢). فالخلاص والفداء الذي أكمله المسيح بسفك دمه على الصليب باعتباره عملاً صميمياً من أعمال طبيعة الله، يُعتبر سرًّا من أسرار مجد الله المعلَنَة للإنسان بالمسيح من خلال محبة الآب وطاعة الابن. ولكن الخلاص بدأ إعلانه بالفداء بسفك دم المسيح؛ ثم تحقَّق لنا بالقيامة؛ ولكن كماله سيتم فينا بمجيء المسيح عندما يأتي لنا في تمام مجده ومجد

أبيه حيث نبلغ تمام وجودنا في الحضرة الإلهية وبالتالي تمام اشتراكنا الفعلي في طبيعة الله المعلَنة في المسيح.

أما رؤية مجد المسيح الآتي في الحاضر الزمني، أي الآن، فهي مرهونة بالإيمان بحقيقة المسيح: «إن **آمنت** (بالقيامة) ترين **مجد** الله» (يو ١١: ٤٠) باعتبار أن المسيح هو هو الحَضرة الإلهية وهو هو الطبيعة الإلهية المتجسِّدة «أنا هو القيامة والحياة» (يو ١١: ٢٥).

سادساً: سلطان الرسالة:

الدينونة كعمل مشترك بين الآب والابن:

الدينونة حسب التعبير اللاهوتي في العهد القديم تفيد السيادة المطلقة على كرسي الحكم الإلهي غير المنظور، للقضاء بمعاقبة الأشرار ومجازاة الأبرار بمقتضى فكر الله الذي يدين ويعاقب، كما يفدي ويخلِّص «لأني أنا الرب إلهك إله غيور **أفتقد ذنوب** الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضيَّ **وأصنع إحساناً** إلى ألوف من محبيَّ وحافظي وصاياي» (خر ٢٠: ٥، ٦)، حيث الدينونة التي يُجريها هنا ليست فعل قصاص طبيعي أعمى، كما يظن البعض، بل تفيد اقتفاء أثر الخطية وكشفها في الإنسان والعالم على حد سواء حتى يفتضح مخترعها وعاملوها معاً كنوع من التشخيص «لكي تظهر الخطية خاطئة جداً» (رو ٧: ١٣)، وحينئذ تُفرَز وتُباد.

لذلك ففعل الدينونة في العهد القديم لا ينصب على شعب الله وأخصَّائه فقط بل يشمل أعداء الله وآلهة الأمم الكاذبة (الشياطين) وكافة شعوب الأرض، حيث لا ينصبُّ غضب الله عليهم جزافاً بل بقصد كشف أعمال الخطية وفضح سلطان الظلمة وتمييز الحق من الباطل:

+ «في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسي العظيم الشديد لَوِيَاثان

الحيَّةَ الهاربة (الشيطان)، لَوِيَاثان الحية المتحوِّية (الشيطان المختفي في غيره)، ويقتل التنين الذي في البحر (الشيطان المهيِّج السخط في العالم)» (إش ٢٧: ١).

+ «الرب مخيف إليهم لأنه يُهْزِل جميع آلهة الأرض، وسيسجد له الناس كل واحد من مكانه» (صف ٢: ١١).

أما أدوات الدينونة فهي في العهد القديم كل وسائل التأديب والإبادة كالسيف والحرب والجوع والوبأ والزلازل والحريق والغرق وكل ما في الطبيعة من قوَّة مدمِّرة. وقد انصبَّ فعل الدينونة في العهد القديم على القصاص بصورة شديدة لاجتزاز أصول الشر وتمهيداً لإظهار رحمته.

وقد أجرى الرب الإله أنواعاً كثيرة من الدينونة والقصاص في العالم على شعبه وعلى كافة القوات والشعوب التي عَصَتْ أوامره وتدبيره. وكانت الغاية الواضحة من عنف الدينونة كقصاص وانتقام، في العهد القديم، هي تأسيس قاعدة ثابتة للتفريق بين الخطية والبر وللتمييز بين الخاطئ والبار، وذلك في ذهن الإنسان وشعوره الديني؛ كما أرسى الله قاعدة للدينونة على أساس الناموس. ولكن كان العهد القديم يتطلع إلى قضاء جديد لعهد جديد فيه يتم التمييز والفصل بين الحقِ والباطل من داخلِ الإنسان وليس من خارجه: «ولا يُعلِّمون بعدُ كلٌّ واحد صاحبه وكلٌّ واحد أخاه قائلين اعرفوا الرب، لأنهم كلهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم، يقول الرب» (إر ٣١: ٣٤)، حيث يُجازَى عاملو الحق بالرحمة. وهنا نجد إشارات في غاية الوضوح تشير إلى المسيَّا، أي المسيح، الآتي كقاضٍ يقضي قضاء الله بالرحمة حتى يُخرِجَ الحق من قلب الإنسان كما يخرج النور من وسط الظلمة: «الله الذي قال أن يُشرق نورٌ من ظلمة هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه

يسوع المسيح» (٢كو ٤: ٦)؛ «لأن الظالم يُبيدُ وينتهي الخراب، ويفنى عن الأرض الدائسون (عهد الله) فيُثبَّتُ الكرسي بالرحمة ويجلس عليه بالأمانة في خيمة داود قاضٍ ويطلب الحق ويُبادر بالعدل» (إش ١٦: ٤ و٥).

أما الدينونة، بحسب التعبير اللاهوتي في لغة العهد الجديد ومفهومه، فهي تفيد الفصل والتمييز بين الحق والباطل، بين الخطية والبر، ليس بحسب قاعدة خارجية كالناموس القديم، بل بحسب قاعدة داخلية تكون في أعماق الضمير الإنساني؛ حيث هذه القاعدة الداخلية ليست بدورها شيئاً محدداً إنما هي انفتاح بصيرة بواسطة نور داخلي لا يكشف الحق أمام الضمير فقط بل ويكشف الضمير أمام الحق أيضاً: «**هذه هي الدينونة إن النور قد جاء إلى العالم**» (يو ٣: ١٩)، هذا النور الذي يهب الإنسان انفتاحاً لبصيرته، ليس من عنصر الإنسان أصلاً بل هو من الله، لذلك فهو قادر أن يتغلغل إلى أعماق الطبيعة البشرية بحيث لا يمكن أن يَدَعَ فيها شيئاً مظلماً قط أو غير واضح أمام الضمير!!

هذا النور الإلهي الداخلي يقبل أن يتحد بالضمير الصالح فينيره ويجعله نوراً، ولكنه غير قابل للاتحاد بالباطل البشري أو للتهاون معه قط. لذلك فعمله الأول هو للدينونة، بمعنى أنه يكشف الباطل أينما وُجِدَ ويفرزه ويدينه قبل أن يهب نفسه للضمير.

وهكذا نجد أن الدينونة في مفهوم العهد الجديد تقوم أساساً على عمل النور الإلهي داخل القلب، أي أن الدينونة والنور الإلهي هما فعلان متلازمان لغاية واحدة، هذه الغاية هي كشف عنصر الخطية المظلم من داخل الضمير وليس من خارج الإنسان تمهيداً لجعل الضمير منيراً ليصير في النهاية من طبيعة هذا النور، أي من طبيعة الله.

بهذا المعنى نجد المسيح يصف نفسه بأنه «نور العالم»، ولكن ليس كمجرد نور يمكن أن ينطفئ أو قد تدركه الظلمة بأي نوع، بل نور حقيقي. وكلمة «**الحقيقي**» هنا = ἀληθινόν ، كصفة للنور، تفيد الحق المطلق الذي ينير ذاتياً بقوة فائقة لا تُقهَر، الحق الذي لا يحده زمان أو مكان ولا يؤثر فيه أي مؤثر، لا يفسد ولا يزول ولا يتغير، لا يكشف الظاهرات فحسب بل يكشف خبايا القلب والضمير، ويضيء في الظلمة والظلمة لا تدركه قط!

والمسيح، بصفته النور الحقيقي، لما دخل إلى العالم أصبح هكذا قائداً إلى الحق كما أصبح في الحال ديَّاناً للعالم. أما كيف صار المسيح دياناً للعالم فهو كالآتي:

أولاً: من واقع وجوده «ما دمتُ في العالم فأنا نور العالم» (يو ٩: ٥). فمجرد استعلان وجود المسيح أي دخوله إلى العالم متجسداً أحْدَث زعزعة عظمى في مملكة الظلمة والجهل والخطية: «رأيتُ الشيطان ساقطاً مثل البرق من السماء» (لو ١٠: ١٨)، وبالتالي بدأت في الحال عملية القصاص، فالشياطين لما أبصرته صرخت متوجعة لأنها رأت في وجوده بين الناس قضاءً مبرماً على حرية حركتها وعملها، لا بسبب كلامه وحسب وإنما بسبب وجوده الدائم على الأرض، «أجئْتَ إلى هنا قبل الوقت لتعذبنا» (مت ٨: ٢٩)، «... الأثيم الذي الربُ يبيده بنفخة فمه ويبطله بظهور مجيئه» (٢تس ٢: ٨).

ثانياً: كما أصبح المسيح ديان العالم من واقع كلماته «مَنْ رذلني و لم يقبل كلامي فله مَنْ يدينه. الكلام الذي تكلَّمتُ به هو يدينه» (يو ١٢: ٤٨). ولأن كلام المسيح هو بحد ذاته «روح وحياة» (يو ٦: ٦٣)، لذلك إذا قَبِلَ الإنسان كلمات المسيح، استنار بها وعاش وصارت له

نوراً يقوده للحياة الأبدية، وإذا رفضها فإن هذه الكلمات تشهد ضده وتحكم عليه وتدينه دينونة الموت، لأن كلامه هو بحد ذاته حياة!!

ثالثاً: كما أصبح المسيح ديَّان العالم من واقع أعماله: «لو لم أكن قد عملتُ بينهم أعمالاً لم يعملها أحد غيري لم تكن لهم خطية، وأما الآن فقد رأوْا وأبغضوني أنا وأبي» (يو ١٥: ٢٤). وذلك لأن أعمال المسيح هي بحد ذاتها قوَّة نور. وليس أدل على ذلك من تفتيحه عينيَّ الأعمى الذي تحوَّلت له الظلمة إلى نور في الحال بلمسة يد المسيح، فآمن الأعمى بعد ذلك بالمسيح أنه بالحقيقة ابن الله «نور العالم» و«سجد له» (يو ٩: ٣٨). ولكن ليس معنى ذلك أن عمل المسيح هو مجرَّد نور مادي صامت بل نور خالق وفعَّال وناطق، يميِّز بين الحق والباطل ويحكم ويدين أعمال القلب ونياته، لأن في الوقت الذي آمن فيه الأعمى بالمسيح بسبب عمل المسيح معه وقف الفريسيون والمعاندون للمسيح يجحدون عمل المسيح الذي عمله للأعمى، فصار عملٍ المسيحِ بآن واحد نوراً للأعمى يقود إلى الإيمان، أما للفريسيين فظلمة مخيفة تقود إلى دينونة وموت: «فقال يسوع: لدينونة أتيتُ أنا إلى هذا العالم حتى يبصر الذين لا يبصرون ويعمى الذين يبصرون» (يو ٩: ٣٩).

وهكذا كانت كل أعمال المسيح لها صفة الدينونة، أي القضاء، فالذي يقبلها يُستعلَن له المسيح كمخلِّص وكنور حقيقي وحياة أبدية والذي يرفضها يمكث في الظلمة حيث لا يعلم إلى أين يسير!

رابعاً: كما أصبح المسيح ديَّاناً للعالم بسبب موته على الصليب. لأن موت المسيح على الصليب كان قمة أعماله المنيرة التي كشف بها منتهى عمل برِّ الله لنا ومنتهى عمل الخطية في الإنسان في آن واحد، كما فضح فيها الشيطان كمزيِّف ورئيس لكل أعمال الكذب والظلمة! فكان موت

الصليب دينونة عظمى وقضاءً للعالم، إنما بصورة إيجابية لا تكشف خطية الإنسان وتفضح رئيس هذا العالم وحسب ثم تترك الإنسان في يأس من نفسه ومن الخلاص، ولكن دينونة الصليب تكشف فوق ذلك وبالدرجة الأُولى قوَّة برِّ الله لخلاص الإنسان وحياته بموت المسيح!: «لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق ... ومتى جاء ذاك (الروح القدس) يبكِّت العالم على خطية، وعلى برٍّ وعلى دينونة» (يو ١٦: ٧ و٨)، لأن مجيء المسيح هو كشْف للخطية وكشف للبر وكشف للدينونة جميعاً، لذلك عبَّر لنا بولس الرسول عن موت المسيح كعمل مزدوج هكذا: «يسوع المسيح الذي أبطل الموت وأنار الحياة والخلود» (٢تي ١: ١٠).

ومن هذا يتبيَّن لنا أن مفهوم الدينونة اللاهوتي في العهد الجديد لا يتوقف قط عند معنى المحاكمة والقصاص كفعل سلبي، بل يتعدَّاه في الحال إلى الفعل الإيجابي ليضم معنى التمييز والفصل بين الحق والباطل وانفتاح البصيرة بالنور الإلهي لرفض الخطية وقبول بر الله!!

لذلك نجد المسيح يرفض بشدة أن يُنسَبَ إليه فعل الدينونة السلبي كقاض جاء ليقتصَّ من الخطاة ويعاقبهم ويُهلكَ الأشرار والفُجَّار: «لم آت لأَدينٍ العالم بل لأُخلِّص العالم» (يو ١٢: ٤٧)، «أما أنا فلستُ أدينَ أحداً» (يو ٨: ١٥)، «لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليَخْلُصَ به العالم» (يو ٣: ١٧).

وفي نفس الوقت يعلن المسيح نفسه ديَّاناً للعالم: «وإن كنت أنا أدين فدينونتي حقٌّ ... لأن الآب ... قد أعطى كل الدينونة للابن» (يو ٨: ١٦؛ ٥: ٢٢)، ويدين كل إنسان في العالم بالمعنى الجديد الإيجابي، أي بصفته النور الحقيقي الذي جاء ليَهَبَ قوَّة الإبصار الروحي للعالم، ليميِّز العالم بين الله والشيطان، كما جاء ليَهَبَ قوَّة التمييز القلبي لكل إنسان حتى يفرز أعمال الخطية من أعمال البر: «الذي يؤمن به لا يُدان. والذي

لا يؤمن به قد دينَ لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد. وهذه هي الدينونة إن النورَ قد جاء إلى العالم» (يو ٣: ١٨، ١٩).

إذن، فقول المسيح «أنا هو نور العالم» (يو ٨: ١٢) هو هو بعينه معنى الدينونة وقوهّا في العهد الجديد. فالذي يؤمن بالمسيح يكون قد انفتحت بصيرته وقَبِلَ النور، وحينئذ يشهد أنه يرى ويبصر برَّ الله، والذي لا يؤمن بالمسيح لا يكون قد انفتحت بصيرته، فلا يستطيع أن يرى النور ولا يستطيع أن يُبصر برَّ الله.

ومن هذا يتدرَّج مفهوم الدينونة في العهد الجديد إلى معنى عملي فردي واقعي، أي أن دخول المسيح كنور إلى العالم أوقف كل إنسان في العالم موقف الدينونة الحاسمة: فإما أن يقبل الإنسان النور فيرى بر الله الذي في المسيح للخلاص، وإما لا يقبل النور وحينئذ يُحرَم من بر الله الذي في المسيح، وبالتالي يبقى في الظلمة ويمكث عليه غضب الله ويظل تحت القصاص الأول: «الذي يؤمن به لا يُدان والذي لا يؤمن به قد دين» (يو ٣: ١٨). وهكذا يكون المسيح قد جاء ديَّاناً للعالم وفي نفس الوقت مخلِّصاً له ورافعاً عنه الغضب وقصاص التعدِّي.

لذلك نجد المسيح يجمع القولين معاً أنه ما جاء ليدين العالم بل ليخلِّصه، وفي نفس الوقت أنه يدين ودينونته عادلة.

هذه التضادة المزدوجة (Paradox) تكشف عن أن المسيح جاء حاملاً للعالم دينونتين: دينونة الآب ودينونة الابن معاً في شخصه: أما دينونة الآب للعالم فتتوقف على مجرَّد قبول أو رفض الإيمان **بالله كأب ليسوع المسيح**، وأما دينونة الابن للعالم فتتوقف على قبوله أو رفضه هو **شخصياً** كنور **جاء ليخلِّص بتعاليمه** ووصاياه وأعماله ثم موته الكفاري وقيامته المجيدة.

بهذا يكون المسيح قد حَمَلَ **في شخصه** كل الدينونة، أي دينونة الآب ودينونة الابن معاً: «لأن الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة

للابن» (يو ٥: ٢٢). وهذه نتيجة مباشرة حتمية للوحدة الكاملة المطلقة بين الآب والابن التي تمثلها المحبة المطلقة من جهة الآب للابن: «كل ما هو لي فهو لك وكل ما هو لك فهو لي» (يو ١٧: ١٠). ولكن نظـرًا لأن محبة الآب المطلقة للابن يقابلها طاعة مطلقة من الابن للآب: «كل ما هو لي فهو لك» (يو ١٧: ١٠)، أصبحت الدينونة التي أُعطيت كلها للابن هي بنفسها كلها للآب في آن واحد!! «وإن كنت أنـا أديـن، فدينونتي حق لأني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني» (يـو ٨: ١٦).

من هذا يتبين لنا أن الدينونة الحاضرة والمزمعـة أن تكـون، والـتي وُضعَت كلها على عاتق المسيح، تكشف بصورة فائقة وعميقة الوحدة المطلَقة بين الآب والابن: «الحق الحق أقول لكم إن **مَنْ يسمع كلامـي ويؤمن بالذي أرسلني** فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقـل من الموت إلى الحياة، الحق الحق أقول لكم إنه تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون ... لا تتعجَّبوا من هذا فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته، فيخرج الـذين فعلـوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة. أنـا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً، **كما أسمع أدين ودينونتي** عادلة لأني لا أطلب **مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني**» (يو ٥: ٢٤-٣٠).

الباب الثاني

ألقاب المسيح

ذات المدلولات اللاهوتية

عندما تجسَّد ابن الله ودخل إلى العالم بهيئة إنسان وحمل على عاتقه خلاص البشرية وتجديدها، أصبح من المحتم أن يوصف بأوصاف وأسماء ورموز متعددة تتناسب مع عمله الإلهي الفائق المتعدد الاتجاهات. والذي يسترعي اهتمامنا جداً في هذه الأوصاف والأسماء والرموز، التي يتجه بها الإنجيل رأساً نحو التعبير عن حقيقة الرب يسوع، هو أنها تحمل لنا معاني في غاية العمق اللاهوتي فيما يختص بشخصية المسيح، وتشرح لنا العلاقة الجوهرية التي ارتبط بها الله معنا بواسطة المسيح.

لذلك فألقاب المسيح تُعتبر مصدراً لا يُستهان به للتعرُّف على العلاقة التي تربطنا به كابن الله، كما أنها تكشف عن عمله فينا ومعنا بصورة تطبيقية غاية في الوضوح.

الفصل الأول

لقب "المسيح" أو "المسيَّا"

"مسيَّا" و"مسيحا" و"ماسياس" هي تعدُّد نُطْقي بين العبرية والآرامية واليونانية، وتُنطق أيضاً "خريسْتوس" باليونانية، وكلها تفيد معنى المسيح، أي الشخص الممسوح بقرن الدُّهن علناً، أو بقوة الله سرّاً للقيام بمهمة عظمى من قِبَلِ الله.

وهذا اللقب أُطلق في العهد القديم على عدة وظائف هامة معينة، أُختير لها أشخاص مُنحُوا قوَّة وسلطاناً للقيام بهذه الوظائف. فمنِ الأمور التي تستحق الاعتبارَ أن هذا اللقبِ "مسيح" لم يكن وقفاً على أشخاص معينين بقدر ما كان وقفاً على وظائف معينة؛ كما أن القيام بوظيفة المسيح أي الممسوح من الله لم يكن متوقفاً على قدرات طبيعية في الشخص الذي تعيَّن لهذه المسحة، وإنما قدرة القيام بوظيفة المسيح كانت بقوة وسلطان وحكمة من الله رأساً.

فنجد أن الملك الفارسي كورش[1] أطلق عليه الله «مسيح يهوه» (إش ٤٥ : ١)، مع أنه رجل أممي و لم يُمسح بقرن الدُهن حسب الطقس اليهودي، فعلى أي أساس دعاه الله مسيحا له؟ هنا نجد خمسة عوامل أساسية في حياة هذا الملك الأممي أشار إليها الكتاب وهي التي حددت

(١) الملك الذي حرَّكه روح الله لإعادة المسبيين إلى وطنهم وبناء بيت الرب في أورشليم. اعتلى العرش سنة ٥٥٨ ق.م. وبدأ حركات الإصلاح سنة ٥٣٨ ق.م. حسب تحقيق المؤرِّخين.

لياقته لكي يُدعَى مسيحاً:

أولاً: الاختيار: لقد اختار الله كورش للقيام بعمل خاص من قِبَله «هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش ... قد أنهضتُه من الشمال فأتى ...» (إش ٤٥: ١؛ ٤١: ٢٥)

ثانياً: الخلاص والإنقاذ والفداء المجاني من الأسر لأولاد الله هي المهمة العظمى لمسيح الله: «هكذا يقول الرب قدوس إسرائيل وجابلُه: «اسألوني عن الآتيات من جهة بنيَّ ومن جهة عمل يدي أوصوني. أنا صنعتُ الأرض وخلقتُ الإنسان عليها. يداي أنا نشرتا السموات وكل جندها أنا أمرتُ. أنا قد أنهضتُه (كورش) بالنصر وكل طرقه أُسهِّل. هو يبني مدينتي **ويطلق سبيي، لا بثمن ولا بهدية، قال رب الجنود**» (إش ٤٥: ١١-١٣).

ثالثاً: تسليم مسيح الله سلطة الدينونة وردع جميع الأعداء المقاومين مشورة الله لفداء أولاده:

+ «الذي أمسكتُ بيمينه لأدوسَ أمامه أُمماً (الكلدانيين مثلاً) وأحْقَاء ملوك أَحُلّ»،

«... آخذ نقمة ولا أُصالح أحداً، فادينا رب الجنود اسمه»»،

«اجلسي صامتة وادخلي في الظلام يا ابنة الكلدانيين لأنكِ لا تعودين تُدعَيْنَ سيدة الممالك» (إش ٤٥: ١؛ ٤٧: ٣، ٤، ٥).

رابعاً: تسليم مسيح الله سلطة السيادة فوق كافة شعوب الأرض وفوق كل قوَّة «أمسكتُ بيمينه (بيمين كورش) لأدوس أمامه أُمماً وأحْقاء ملوك أحلُّ، لأفتح أمامه المصراعين، والأبواب لا تُغلَقُ. أنا أسير قدامك والهضاب أُمهِّد. أكسر مصراعَي النحاس ومغاليق الحديد

أقصف. وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابئ» (إش ٤٥: ١-٣).

خامساً: الله هو هو الذي يعمل ولكن يعمل بيمين مَنْ يمسحه لتكميل مشورة الخلاص: «لكي تعرف أني أنا الرب إله إسرائيل الذي يدعوك باسمك (كورش)... لأجل عبدي يعقوب وإسرائيل مختاري. دعوتُك باسمك. لقَّبتك وأنت لست تعرفني (أعطاه لقب مسيح يهوه). أنا الرب وليس آخر» (إش ٤٥: ٣-٥).

فإذا تأملنا هذه العوامل الأساسية التي كانت تحدد وظيفة المسيَّا وعمله في العهد القديم، نجدها واضحة ومتمَّمة بصورة فائقة في حياة الرب يسوع، غير أن وظيفة المسَّيا قديماً كانت صورة رمزية مادية لوظيفة المسيح الحقيقية التي اضطلع بها الرب يسوع على مستوى روحي أبدي لانهائي.

ولكن لو تعمقنا أكثر في الوظائف الأساسية للممسوح من قِبَلِ الله في العهد القديم، نجد أنها كانت تشمل مهمات عظمى متعددة الاتجاهات، فلم يكن ممكناً بأي حال من الأحوال أن تجتمع معاً في شخصية بشرية واحدة؛ لذلك تعددت أنواع الشخصيات الممسوحة وتعددت أنواع المواهب على مدى التاريخ القديم لتناسب الوظائف العظمى التي يمكن أن يضطلع بها مسيح الله! فمن آدم بدأت وظائف المسيَّا تأخذ ملامحها ثم تركزت نوعاً ما في موسى وفي رؤساء الكهنة، وظهرت بصورة أخرى في داود ثم بصورة جديدة في الأنبياء، ولم يخلُ الأمر أن تظهر من حين لآخر في أشخاص غير إسرائيليين قط مثل حَزَائيل (الأرامي) الذي مسحه إيليا على آرام ليؤدب إسرائيل أو مثل كُورَش الفارسي الذي اختاره الرب ليخلِّص إسرائيل.

١ - أما ملامح وظائف المسيَّا في آدم الأول التي مُنحت له من قِبَلِ الله، فكانت سيادته المطلقة على كل المخلوقات والسلام والوفاق الكامل

الذي كان يعيش ويملك به على **كل الخليقة التي تحت سلطانه فكان آدم الأول هو المسيَّا في مملكة آدم الأول**: ولكن هذه الصفات أو المميزات المسيانية التي فقدها آدم بسقوطه وحلول اللعنة على الأرض بسببه، تحدَّد من قِبَلِ الله ومنذ البدء إعادتها للإنسان بصورة فائقة وممتازة بواسطة يسوع المسيح "المسيَّا الآتي"؛ الذي أُعطيٍ أن يسود على كل خليقة ليس في الأرض فقط بل ومما في السماء أيضاً، وليعيد الإنسان مرة أخرى إلى ملكوت الله ليعيش الإنسان ويملك مع المسيح. وهكذا دُعي يسوع المسيح «آدم الثاني» (انظر ١كو ١٥: ٤٥، ٤٧) لأنه استرد في ملكوت الله كل نصيب الإنسان الأول وأكثر! «دُفِعَ إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض» (مت ٢٨: ١٨)، «يسوع المسيح الشاهد الأمين البكر من الأموات ورئيس ملوك الأرض الذي أحبنا وقد غسَّلنا من خطايانا بدمه وجعلنا ملوكاً وكهنة لله أبيه» (رؤ ١: ٥، ٦).

٢ - أما وظيفة المسيَّا في حياة موسى فواضحة، أولاً: في اختياره لافتقاد شعب الله وإخراجهم من أرض العبودية والغُربة، وثانياً: في توسُّطه كنبي ووسيط عهد بين الله والشعب وحصوله من الله على شريعة العهد القديم وتسلُّمه إياها مكتوبة للشعب بكل عناية وتدقيق.

ولكن في نهاية حياة موسى يقرر أنه لا يزال على الشعب أن ينتظر «نبيًّا آخر مثلي» "المسيَّا" أو موسى الثاني أو الجديد الذي يكون وسيطاً آخر لعهد آخر بين الله والشعب كما كان موسى أولاً في حوريب، إنما على مستوى أعلى من موسى: «يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلي. له تسمعون، حسب كل ما طلبتَ من الله إلهك في حوريب يوم الاجتماع قائلاً: لا أعود أسمع صوت الرب إلهي ولا أرى هذه النار العظيمة أيضاً لئلا أموت ... أَجْعلُ كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به» (تث ١٨: ١٥-١٨).

والملاحَظ أن جميع الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى لم يكونوا قط وسطاء عهد كموسى ولا رأوا الله وجهاً لوجه كموسى، إنما كانوا شارحين للناموس ومذكرين بكل ما أوصى به موسى فقط وقد تقبّلوا كلمة الله بالوحي والرؤيا فقط. أما يسوع المسيح فقد جاء ليكمِّل ويعطي عهداً آخر جديداً ليس كالأول بل أعظم بما لا يُقاس، ليس عهد الحرف الذي يدين ويقتل بل عهد الروح الذي يبرر ويُحيي. وإن كان موسى قد تثبَّت أنه نبي ووسيط عهد مكتوب لأنه تكلم مع الرب ورأى "خَلْف" الرب، إلا أنه مات دون أن يرى أرض الميعاد، أما يسوع المسيح فقد تثبَّت أنه ابن الله بالقيامة من بين الأموات حيًّا ثم صعوده إلى السموات بالجسد جهاراً، معلناً بذلك أنه صار الوسيط الوحيد الحقيقي والحي والدائم بين الله والناس القائم الآن وإلى الأبد يشفع في المذنبين.

وإن كان موسى قد تقبَّل الكلمة مكتوبة بإصبع الله (كناية عن المسيح) على لوحي حجر، وبقية الأنبياء شرحوها حسب ما أعلنه الله لهم، فيسوع المسيح هو نفسه "كلمة الله" الحية المتجسِّده: «الله بعدما كلَّم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه» (عب ١: ١، ٢). وإن كان موسى رأى جُود الله: «أُجيز كلَّ جودتي قدامك» (خر ٣٣: ١٩)، فالمسيح يسوع هو هو «صورة الله غير المنظور» (كو ١: ١٥)، «الذي هو بهاء مجده ورسم جوهره» (عب ١: ٣)، «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩).

وإن كان موسى قد اعتبره الله خادماً للأقداس الأرضية وأميناً على بيته "خيمته" الأرضية، فالرب يسوع صار أعظم بما لا يُقاس، إذ يقول عنه القديس بولس الرسول في الرسالة إلى العبرانيين:

+ «من ثمَّ أيها الإخوة القديسون شركاء الدعوة السماوية، لاحظوا رسول اعترافنا ورئيس كهنته المسيح يسوع، حال كونه أميناً للذي

أقامه، كما كان موسى أيضاً في كل بيته. فإن هذا قد حُسب أهلاً لمجد أكثر من موسى بمقدار ما لباني البيت من كرامة أكثر من البيت. لأن كل بيت يبنيه إنسان ما، ولكن باني الكل هو الله. وموسى كان أميناً في كل بيته كخادم، شهادة للعتيد أن يُتكلَّم به. وأما المسيح فكابن على بيته. وبيته نحن إن تمسكنا بثقة الرجاء وافتخاره ثابتة إلى النهاية» (عب ٣: ١-٦).

إذن، فموسى وجميع الأنبياء من بعده أدوا وظائفهم جزئياً كمُسحاء الله ووسطاء، كلٌّ في زمانه وفي حدود إمكانياته، كتمهيد متواصل "للمسيَّا" الحقيقي ابن الله المتجسِّد الذي جاء فتكمَّلت فيه كل وظائف المسحة الفائقة من جهة النبوَّة كوساطة فريدة بين الله والناس، لأنه الوحيد الذي جمع في شخصه كل ما لله وكل ما للإنسان معاً!! فجمع بالتالي في نفسه كل ما مضى من نُبوَّة موسى بكمالها، مع كل النبوات التي انبثقت من نبوة موسى لتشرحها وتؤمِّن سريانها، حتى المعمدان: «ما جئت لأنقض بل لأُكمِّل» (مت ٥: ١٧)، ثم زاد على ذلك كله أن جعل المستقبل حاضراً ومكشوفاً أمام الإنسان على ممر الأيام والعصور والأجيال، وذلك بحضوره الدائم معنا بروحه الأزلي الذي سكبه علينا «فهو يرشدكم إلى جميع الحق» (يو ١٦: ١٣)، «ويخبركم بأمور آتية» (يو ١٦: ١٣)، ومعروف أن «شهادة المسيح هي روح النبوَّة» (رؤ ١٩: ١٠).

٣ - أما أوصاف المسيَّا في حياة داود الملك فهي عميقة جداً تجمع بين الحقيقة والرمز بصورة في غاية الروعة والجلال، فداود الملك هو نقطة الارتكاز التي ينطلق منها سهم النور حتى يستقر على المسيح نفسه، كما جاء في نبوة يعقوب بخصوص سبط يهوذا. فمن يهوذا سيخرج المسيَّا "شيلون" رجل السلام الملك الذي يكون له خضوع كل

الشعوب (تك ٤٩: ٩، ١٠)، ولكن "شيلون" سيكون من تسلسل ملكي «لا يزول قضيبٌ (الملوكية) من يهوذا ومُشْتَرِعٌ من بين رجليه (أي قاضي يحكم بالشريعة) حتى يأتي شيلون».

هنا يبرز داود كأول ملك من سبط يهوذا يفتتح طريق التسلسل الملكي أمام شيلون، أي ملك السلام، الذي سيكون له خضوع كل الشعوب!! حيث تكون هنا صفات أو مميزات داود المسيَّانية ذات نوعين:

الأول: نوع رمزي بصفته أول ملك حسب اختيار الله وحسب قلبه يُمسح بقرن الدهن ليحكم شعب الله بمقتضى الشريعة، فهو يحمل الصفات الملكية المسيَّانية الرمزية التي تشير، كنبوَّة في حد ذات الشخصية الداودية، إلى الصفات الملكية الكاملة المطلقة التي سيحملها المسيَّا، ملك السلام الذي يأتي على طقس ملوكية داود ويكون له خضوع كل الشعوب.

الثاني: صفات أو مميزات جوهرية حيث قد وعد الله مراراً على لسان أنبياء كثيرين وداود نفسه أن من سبط يهوذا من نسل يسَّى من بيت داود الملك سيأتي المسيَّا حسب الجسد:

+ «لا يزول قضيب من يهوذا ولا مشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون ...» (تك ٤٩: ١٠)
+ «أَقْسَمَ الرب لداود بالحق، لا يرجع عنه: من ثمرة بطنك أجعل على كرسيك» (مز ١٣٢: ١١).
+ «ويخرج قضيب من جِذع يسَّى وينبت غصن من أصوله ويحل عليه روح الرب ...» (إش ١١: ١ و٢)
+ «وأنتِ يا بيت لحم أرض يهوذا، لستِ الصُغرَى بين رؤساء يهوذا لأن منكِ يخرج مدبِّر يرعى شعبي إسرائيل»

(مت ٢: ٦).

ولهذا أصبح داود الملك أقوى مَنْ تسلَّط عليه نور الـوحي المقـدس لتوجيه ذهن الشعب نحو صفات المسيَّا الحقيقي القادم، حـتى أن كـل صفات المسيَّا نُسبت إلى داود بنوع من المجاز. وكان من نتيجة ذلك أن ارتبك كثير من الشعب في فهم معظم النبوات الخاصة بالمسيَّا حسبوها تخص داود الملك، ومن عينة ذلك ما أراد بطرس الرسول أو يوضحه للشعب:

+ «لأن داود (نفسه) يقول فيه: كنت أرى الرب أمامي في كل حين أنه عن يميني لكي لا أتـزعزع. لذلك سُرَّ قلبي وتهلّل لساني حتى جسدي أيضاً سيسكن على رجاء لأنك لن تترك نفسي في الهاوية ولا تدع قدوسك يرى فساداً ... أيها الرجال الإخوة يـسوغ أن يُقال لكم جهاراً عن رئيس الآباء داود إنه مات ودُفن وقبره عندنا حتى هذا اليوم. فإذ كان نبياً وعلم أن الله حلف له بقسمٍ أنه مـن ثمرة صُلْبه يقيم المسيح حسب الجسد ليجلس على كرسيه، سـبق فرأى وتكلَّم عن قيامة المسيح أنه لم تُترك نفسه في الهاوية ولا رأى جسده فساداً. فيسوع هذا أقامه الله ونحن جميعاً شهود لذلك. وإذ ارتفع بيمين الله وأخذ موعد الروح القدس من الآب سكب هـذا الذي أنتم الآن تبصرونه وتسمعونه؛ لأن داود لم يصعد إلى السموات؛ وهو نفسه يقول: قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعـداءك موطئاً لقدميك. فليعلم يقيناً جميع بيت إسرائيل أن **الله جعل يـسوع هذا الذي صلبتموه أنتم ربًّا ومسيحاً**» (أع ٢: ٢٥-٣٦).

وبقية المزامير مشحونة من أمثال هذه النبوات الخاصة بالمـسيا الآتي بصفته ملكاً والتي نُسبت إلى داود تجاوزاً والتي كان يلتبس فهمها دائما وباستمرار على الشعب، إذ حسبوها تخص داود الملك، مع أنها تشير إلى

المسيح بصورة واضحة غاية الوضوح. وعلى سبيل المثال نورد:

١ – في المزمور الثاني يصف الوحي كيفية قيام المسيح ملكاً على الأرض!:

+ «لماذا ارتجت الأمم وتفكَّر الشعوب في الباطل، قام ملوك الأرض وتآمر الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه ...».

+ «أما أنا فقد مَسَحتُ ملكي على صهيون جبلِ قدسي ...»؛ «اسألني فأعطيك الأمم ميراثاً لك وأقاصي الأرض مُلكاً لكَ ...» (مز ٢)

٢ – في المزمور التاسع والثمانين يصف الوحي العلاقة الجوهرية بين المسيح والله وأزلية ملكوت المسيح وسلطانه المتفوق على الشيطان:

مسيًّا الممسوح بدُهن الله المقدَّس الذي كرسيه مثل أيام السموات!!

+ «حينئذ كلَّمتَ برؤيا تَقيَّك وقلتَ جعلتُ عوناً على قَويٍّ. رفعتُ مختاراً من بين الشعب. وَجدتُ داود عبدي، بدُهن قدسي مسحتُه. الذي تَثْبُت يدي معه. أيضاً ذراعي تشدِّده. لا يرغمه عدو وابن الإثم لا يذلِّله. وأسْحَقُ أعداءَه أمام وجهه وأضرب مبغضيه. أما أمانتي ورحمتي فمعه وباسمي ينتصب قرنه. وأجعل على البحر يده وعلى الأنهار يمينه. **هو يدعوني أبي أنت، إلهي وصخرة خلاصي. أنا أيضاً أجعله بكراً أعلى من ملوك الأرض ... وكرسيه مثل أيام السموات**» (مز ٨٩: ١٩-٢٩).

٣ – المزمور الحادي والعشرون يقدِّم صورة عن الحياة الأبدية التي في المسيح!!

+ «يا رب بقوَّتك يفرح الملك. وبخلاصك كيف لا يبتهج جداً. شهوة قلبه أعطيته ومُلْتمس شفتيه لم تمنعه لأنك تتقدَّمه ببركات خير. وضعتَ على رأسه تاجاً من إبريز. حياة سألك فأعطيته طولَ

الأيام إلى الدهر والأبد» (مز ٢١: ١-٤).

فإذا تأملنا في هذه الأوصاف الملكية المسيَّانية العالية والفائقة جداً التي يستحيل أن تُنسبَ إلى أي بشر كائناً مَنْ كان، رأينا أن وظائف المسيَّا كانت أعظم فعلاً من أن يتحملها أعظم الأنبياء أو الملوك كموسى أو داود أو غيرهما، إنما كانت حياة هؤلاء بكل قوهما وجمالها لم تَزِدْ عن أن تكون صورة رمزية مصغَّرة جداً لأوصاف المسيَّا يسوع الذي «مسحه الله بالروح القدس والقوة» (أع ١٠: ٣٨).

ولكنِ ملوكية المسيَّا ومملكته كما أشار إليها العهد القديم مراراً وتكراراً لم تكن من نوع أرضي زمني تعتمد على القوَّة المادية والسلاح والإرهاب والسيادة بل كانت فائقة في سموها الروحي: «وكرسيه كأيام السموات» (مز ٨٩: ٢٩)، «كرسيك يا الله إلى دهر الدهور» (مز ٤٥: ٦)، «قال الرب لربي اجلس عن يميني» (مز ١١٠: ١).

ولما جاء المسيح نبَّه أذهاننا إلى كل ذلك بأقوال واضحة وقاطعة: «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» (يو ٨: ٥٨)، «مملكتي ليست من هذا العالم» (يو ١٨: ٣٦)، «ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (مت ٢٨: ٢٠).

والمسيَّا كملك، حسب فكر العهد القديم، لا يحكم بقانون أو شريعة أو بحسب نظر عينيه أو سمع أذنيه كالناس: «لا يقضي بحسب نظر عينيه ولا يحكم بحسب سمع أذنيه، بل يقضي بالعدل للمساكين ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض» (إش ١١: ٣، ٤).

ولما جاء المسيَّا حقق ذلك القول فعلاً: «أنتم حسب الجسد تدينون، أما أنا فلست أدين أحداً (حسب الجسد). وإن كنت أنا أدين (أُظهر الحق)، فدينونتي حق لأني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني» (يو ٨: ١٥، ١٦).

ومملكة المسيَّا حسب فكر العهد القديم لا تقوم على السيادة الشخصية بحد ذاتها بل على سيادة المعرفة الحقة!! «ويكون البر منْطَقة مَتْنَيْه والأمانة منْطقة حَقَويه» (إش ١١: ٥)، «لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كَما تغطي المياه البحر» (إش ١١: ٩).

ولما جاء المسيح حقق ذلك القول فعلاً: «ولكن الآن ليست مملكتي من هنا. فقال له بيلاطس أفأنت إذن ملك؟ أجاب يسوع أنتَ تقول إني ملك لهذا قد وُلدت أنا ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق. كل مَنْ هو من الحق يسمع صوتي» (يو ١٨: ٣٦، ٣٧).

فمملكة المسيح هي مملكة الحق، والمسيح لأنه حق «أنا هو ... الحق» (يو ١٤: ٦) صار هو الملك على ملكوت الله بلا نزاع، وكل مَنْ أحب الحق يصبح من ضمن مملكة المسيح!!

والمسيَّا كملك، في فكر العهد القديم، لا يقاوم ولا يصيح ولا يهدِّد ولا يحمل عصا ولا سيفاً ولا يأخذ بالعنف ولا يجازي عن شر بشر؛ ولكن كلمة الحق تخرج من فمه أشد ضراوة من لهيب النار أو من سيف ذي حدين، تقلب الأرض، وتبيد المنافق «يضرب الأرض بقضيب فمه ويميت المنافق بنفخة شفتيه» (إش ١١: ٤).

ولما جاء المسيح حقق ذلك القول فعلاً: لعن التينة «فيبست التينة في الحال» (مت ٢١: ١٩)، ورأته الشياطين فصرخت: «أجئت إلى هنا قبل الوقت لتعذبنا» (مت ٨: ٢٩)؛ «فوقعت دهشة على الجميع وكانوا يخاطبون بعضهم بعضاً قائلين ما هذه الكلمة لأنه بسلطان وقوة يأمر الأرواح النجسة فتخرج» (لو ٤: ٣٦)؛ «فخافوا وتعجبوا قائلين فيما بينهم: مَنْ هو هذا فإنه يأمر الرياح أيضاً والماء فتطيعه» (لو ٨: ٢٥).

على أن أسمى ما يمكن أن ندركه عن ملكوت المسيَّا أو ملوكيته هو ما حققه المسيح على الصليب يوم أن نصَّبه أبوه ملكاً على قلوبنا،

فخطبنا واشترانا لنفسه بدمه، وصارت المحبة ناموس مملكته الجديدة: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي» (يو ١٤: ١٥).

وبهذا يكون قد تم وكمل في المسيح يسوع كل فكر الأنبياء عن المسيَّا الذي «يبقى إلى الأبد» (يو ١٢: ٣٤)، الذي «كرسيه كأيام السموات»، والذي من فوق عرش الصليب «جعل نفسه ذبيحة إثم ... وسكب للموت نفسه. وأُحصي مع أثمة. وهو حمل خطية كثيرين وشفع في المذنبين» (إش ٥٣: ١٠، ١٢)، ليقدِّمنا إلى أبيه ملوكاً وكهنة وورثة في مجد ملوكيته إلى الأبد.

الفصل الثاني

لقب "الخادم المتألِّم"

دخول وظيفة الخادم المتألِّم جنباً إلى جنب مع وظيفة الملك الممجَّد في النبوَّات والرموز التي تشير إلى المسيَّا أربكت الفكر اليهودي وحيَّرت العقول الجامدة التي تلتزم بمنطق الناس! ورفعت سؤالاً لا يكف عن أن يفرض نفسه في كل جيل حتى اليوم: كيف أن المسيَّا الذي له هذه القوَّة الفائقة والسلطان الأبدي والمُلْك الذي لا يزول، الذي كرسيه مثل أيام السموات، يكون أيضاً خادماً متألماً مُهاناً ومظلوماً ومتروكاً حتى الموت؟

ولكن هذه التضادة العظمى في حياة المسيَّا هي وحدها التي تكشف معنى الفداء وقوته وشموله وعمقه الإلهي الذي لا يُحَد! «ابن الإنسان لم يأت ليُخدَم بل ليَخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين» (مت ٢٠: ٢٨). فالمَسيَّا الملك العظيم أو بحد تعبير دانيال النبي «قدوس القديسين، المسيح الرئيس ... ابن الإنسان الذي أُعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبَّد له كل الشعوب والأمم والألسنة، (الذي) سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض» (دا ٩: ٢٤، ٢٥؛ ٧: ١٣، ١٤)، هو هو المسيَّا الخادم المتألم أو بحد تعبير إشعياء النبي: «هوذا عبدي ... لا صورة له ولا جمال فننظر إليه ولا منظر فنشتهيه. محتقر ومخذول من الناس. رجل أوجاع ومختبر الحزن وكمستَّر غنه وجوهنا. مُحتقر فلم نعتَدَّ به. لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحمَّلها ونحن حسبناه مصاباً مضروباً من الله ومذلولاً. وهو مجروح لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا، تأديب

سلامنا عليه وبُحبُره شُفينا ... والرب وضع عليه إثم جميعنا» (إش ٥٢: ١٣؛ ٥٣: ٢-٦).

ولكن هاتين الصورتين: جلال الملك وحقارة الخادم، يجمعهما معاً الرب يسوع في نفسه ويعيهما تماماً في اتساع وعمق، في مواضع كثيرة، يكاد لا يلحظها قارئ الإنجيل!

+ «فلما كان قد غسل أرجلهم وأخذ ثيابه واتكأ أيضاً قال لهم ... مَنْ هو أكبر؟ الذي يتكئ أم الذي يخدم؟ أليس الذي يتكئ؟ ولكن أنا بينكم كالذي يخدم!! أنتم تدعونني معلِّماً وسيداً وحسناً تقولون لأني أنا كذلك، فإن كنت وأنا السيد والمعلِّم قد غسلت أرجلكم، فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض، لأني أعطيتكم مثالاً» (يو ١٣: ١٢، لو ٢٢: ٢٧، يو ١٣: ١٣-١٥).

+ «ابن الإنسان لم يأتِ ليُخدَمَ بل ليَخدِم وليبذل نفسه فِدْيةً عن كثيرين» (مت ٢٠: ٢٨).

ثم مرة أخرى يجمع المسيح هاتين الصورتين في نفسه، بوعي فائق: الملك المنتصر بالحق والعبد المظلوم المصلوب على الصليب!! ... فأمام محنة الصليب يقول: «لأجل هذا أتيتُ إلى هذه الساعة» (يو ١٢: ٢٧)؛ وأمام بيلاطس «فقال له بيلاطس: أَفَأَنتَ إذن ملك؟ أجاب يسوع: أنت تقول إني ملك. لهذا قد وُلِدتُ أنا ولهذا قد أتيتُ إلى العالم لأشهد للحق!» (يو ١٨: ٣٧)

ولكن كما اعتمدت كل النبوات قديماً على ملوكية داود في وصف ملكوت المسيَّا؛ كذلك اعتمدت النبوات على شخص "إسرائيل" في وصف عبودية المسيَّا المتألمة والمبذولة، وذلك لأنه بينما كان المفروض أن يكون شعب إسرائيل هو خادم خلاص لكل شعوب الأرض والمضطلع

بإنارة الأمم واستعلان الله للأرض كلها، نجده يرتد عن عبادة الله ويتنكر لمعرفة إلهه، لذلك تتطلع النبوات إلى المسيَّا القادم ليحل محل إسرائيل أو ليكون هو إسرائيل الحقيقي، أي كعبد أمين حقيقي يقوم بإنارة الأمم وإعلان محبة الله للشعوب. لذلك نسمع النبوات الخاصة بالمسيَّا خادم الخلاص تُصاغ في صورة مخاطبة إسرائيل بلغة غاية في الرقة وغاية في العمق:

+ «... الرب من البطن دعاني. من أحشاء أمي ذكر اسمي، وجعل (كلمة) فمي كسيف حاد. في ظل يده خبأني وجعلني سهماً مبريًّا. في كنَانته أخفاني. وقال لي **أنت عبدي إسرائيل** الذي به أتمجد ... والآن قال الرب **جابلي من البطن عبداً له، لإرجاع يعقوب إليه فينضم إليه إسرائيل** فأتمجد في عيني الرب، وإلهي يصير قوتي. فقال: **قليل أن تكون لي عبداً لإقامة أسباط يعقوب وردِّ محفوظي إسرائيل. فقد جعلتُك نوراً للأمم لتكون خلاصي إلى أقصى الأرض.** هكذا قال الرب فادي إسرائيل قدوسهُ للمُهان النفس لمكروه الأُمة لعبد المتسلِّطين ...» (إش ٤٩: ١-٧)

وليلاحظ القارئ قول النبوَّة: «**قليل** أن تكون لي **عبداً** لإقامة أسباط يعقوب ... فقد جعلتك نوراً للأمم، خلاصي إلى أقصى الأرض»، أي أن الله يستصغر مهمة خلاص شعب إسرائيل بالنسبة لكرامة عبده المسيَّا - (إن جاز هذا التعبير) - فيضيف إليه مهمة خلاص أقصى الأرض باعتبار أن هذا العبد هو نور للأمم أو نور العالم!! ولكن في نفس الوقت في نظر الأمة نفسها أي إسرائيل، وفي نظر رؤساء الأمة المتسلِّطين أي رؤساء الكهنة الذين صلبوه: «هكذا قال الرب **للمهان** النفس، **لمكروه** الأمة، لعبد المتسلِّطين»!!

أي أنه بينما يستصغر الله على مسيحه الذي ظهر في صورة عبد أن

يكون مخلِّصاً لشعب إسرائيل فقط فجعله نوراً للأمم وخلاصاً إلى أقصى الأرض، إذ بشعب إسرائيل يعثر في صورته كعبد فيهينه الشعب، وأُمته تكرهه ويشتريه الرؤساء المتسلِّطون كعبد فعلاً بثلاثين من الفضة[1] ويذبحوه! مع أن عبوديته التي ظهر في صورتها كانت هي البديل لعبودية إسرائيل التي أخفق الشعب في تقديمها لله بأمانة.

لقد تراءى لله فعلاً أن الأمة اليهودية قد خسرت اسمها "إسرائيل" كما خسرت علاقتها بالله كـ"عبد لله"، فما كان من الله إلا أن نطق بفم إشعياء النبي مخاطباً المسيَّا القادم بلقب «إسرائيل العبد الحقيقي الأمين»، الذي سيفتدي ليس إسرائيل فحسب بل وشعوب أقصى الأرض. وهكذا تصور المسيَّا في النبوة قديماً بديلاً عن كل شعب إسرائيل، كصاحب حق أوحد في لقب إسرائيل كعبد أمين! وقد تحققت هذه النبوة عندما نطق قيافا رئيس الكهنة بالنبوَّة قائلاً: «خيرٌ لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأُمة كلها. ولم يقل هذا من نفسه بل إذ كان رئيساً للكهنة في تلك السنة تنبَّأ أن يسوع مزمع **أن يموت عن الأمة. وليس عن الأمة فقط بل ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد**» (يو ١١: ٥٠-٥٢).

وفي هذا يظهر المسيح كواحد من الشعب (كعبد)، إنما بديلاً كاملاً عن شعب إسرائيل كله وعن الأمة كلها التي كان محكوماً عليها بالهلاك كقول الرب: «أين كتاب طلاق أمكم التي طلَّقتُها ... هوذا من أجل آثامكم قد بُعْتُمْ ومن أجل ذنوبكم طُلِّقَتْ أمكم» (إش ٥٠: ١).

وهكذا أصبح من المحتم على المسيَّا العبد الأمين، إسرائيل الحقيقي، أن يلبس خطية الشعب المرفوض، خطية أمة إسرائيل كلها وبالتالي خطية

(١) الثلاثين من الفضة كانت الثمن المحدد في إسرائيل لشراء العبد.

وعارٍ أقصى الأرض. لذلك ينظره إشعياء بعيني النبوة الخارقة للزمن فيراه بديلاً عن الشعب وهو حامل خطية الشعب مُساقاً إلى الذبح!!

+ «بذلتُ ظهري للضاربين وخَدَّيَّ للناتفين. وجهي لم أستر عن العار والبَصْق والسيد الرب يعينني لذلك لا أخجل. لذلك جعلتُ وجهي كالصَّوَّان وعرفتُ أني لا أخزى. قريبٌ هو الذي يبرِّرني» (إش ٥٠: ٦-٨).

ولكن لم يَفُتْ على إشعياء النبي أن يرى سمو هذا العبد العجيب وكيف ارتقى باتضاعه إلى منتهى العلو ونجح في مذلته فصار عمله مدهشاً للغاية حتى أنه بقدر ما تحمَّل الإذلال كعبد أكثر من كل الناس استطاع أن يطهر أُمماً برُمَّتها. وبقدر ما تنازل عن جلال ملوكيته وكرامته، بقدر ما استدَّت أمامه أفواه الملوك وتنازلوا له عن كرامتهم:

+ «هوذا عبدي **يعقل يتعالى ويرتقي ويتسامى جداً**، كما اندهش منك كثيرون، كان منظره كذا مفسَداً أكثر من الرجل وصورته أكثر من بني آدم. هكذا يَنْضِحُ أُمماً كثيرين. من أجله يسدُّ ملوك أفواههم لأنهم قد أبصروا ما لم يُخْبَرُوا به، وما لم يسمعوه (قط) فهموه!!» (إش ٥٢: ١٣-١٥)

وهذا القول يشير إليه المسيح في حديثه: «وأنا إن **ارتفعتُ عن الأرض، أجذبُ إليَّ الجميع**» (يو ١٢: ٣٢).

ثم يكشف إشعياء النبي الستار عن المشهد الأخير للفدْيَة الاختيارية التي قدَّمها ذلك العبد الأمين، وهي نفسه التي سكبها للَموت من أجل شعبه، ولكن شعبه ظن أنه كان مضروباً من الله مذلولاً من أجل نفسه: «لكن أحزاننا حملها، وأوجاعنا تحمَّلها، ونحن حسبناه مُصاباً مضروباً من الله ومذلولاً. وهو مجروحٌ لأجل معاصينا مسحوقٌ لأجل آثامنا، تأديب

سلامنا عليه ... أنه ضُرِبَ من أجل ذنب شعبي ... على أنه لم يعمل ظُلماً و لم يكن في فمه غش» (إش ٥٣: ٤-٩).

ولكن لم تكن تذللات ذلك العبد وآلامه الفادية إلا صورة طبق الأصل من مشيئة الله:

+ «كلنا كغنم ضللنا، ملْنَا كل واحد إلى طريقه. **والربّ وضع عليه** إثم جميعنا ... أما الربَ فسُرَّ أن يسحقه بالحزن. إن جعل نفسه ذبيحة إثم ... ومسرة الرب بيده تنجح» (إش ٥٣: ٦، ١٠)

ثم أخيراً يختتم إشعياء نبوته العجيبة معلناً أن برَّ ذلك العبد صار تبريراً للكثيرين وموته الكفاري تكفيراً عن خطايا المذنبين:

+ «**وعبدي البار بمعرفته يبرِّر** كثيرين وآثامهم هو يحملها ... من أجل أنه سكب للموت نفسه. وأُحصيَ مع أثَمَة. وهو حَمَلَ خطية كثيرين **وشفع في المذنبين!**» (إش ٥٣: ١١، ١٢)

ولكن مَنْ يكون ذلك العبد الذي يطهِّر أُمماً برمتها ويخلِّص شعبه ويحمل خطية الناس ويشفع في المذنبين؟

لا يتركنا إشعياء حيارى أمام سر العبد المتألِّم، فكما جعلت المزامير والنبوات كرسي المسيَّا الملك الآتي كأيام السموات، كعرش الله، وحياته إلى منتهى الدهر والأبد، وملكوته ما لن يزول لكي ندرك ألوهية ملكه وربوبية ملكوته، كذلك يكشف إشعياء النبي سر ألوهية ذلك العبد المتألم باعتباره «ذراع الله نفسه»، لأنه يستحيل على إنسان، مجرَّد إنسان، أن يخلِّص شعبه ويفدي كل إنسان!! وخصوصاً أنه ليس لإنسان قط أن يتبرَّر بذاته أمام الله:

+ «... فرأى الرب وساء في عينيه أنه ليس عدل. فرأى أنه ليس إنسان وتحيَّر من أنه ليس شفيع. **فخلَّصت ذراعه لنفسه وبرُّه هو**

عَضَدَهُ. فلبس البر كدرع وخوذة الخلاص على رأسه ولبس ثياب الانتقام كلباسٍ واكتسى بالغيرة كرداء» (إش ٥٩: ١٥-١٧).

+ «استيقظي، استيقظي، البسي قوَّة يا ذراع الرب. استيقظي كما في أيام القِدَم، كما في الأدوار القديمة ... ألستِ أنت هي المنشِّفة البحر ... الجاعلة أعماق البحر طريقاً لعبور المفديين ... أنا، أنا هو معزِّيكم» (إش ٥١: ٩، ١٠، ١٢).

ولكن الروح ينبِّه إشعياء النبي لكي يسبق فيعلن أن الأمر عميق وسرَّه خطير وهو أكثر من أن يفهمه إنسان ويدركه بشر، "فذراع الرب" حينما تستيقظ لتبدأ عملها، لن تبدو بمظهر الأُلوهة على صورة جوهرها ولن يبدو منظرها مرهباً أخاذاً أو جميلاً مبدعاً بل هي هي ستكون العبد نفسه في شكله المحتقر وفي خذلانه المريع من شعبه حينما يجيء ولا يَعتَدُّ به أحد:

+ «مَنْ صدَّق خبرنا؟ **ولِمَنْ استُعلنت ذراع الرب؟ نَبَتَ** قدَّامه كفرخٍ وكعِرْقٍ من أرضٍ يابسة. لا صورة له ولا جمال فننظر إليه ولا منظر فنشتهيه، مُحتقَر ومخذول من الناس، رجل أوجاع ومُختبر الحزن، يستر الناس وجوههم عنه (وهو على الصليب)، مُحتَقَر فلم نعتدَّ به» (إش ٥٣: ١-٣).

وبذلك استطاعت نبوات إشعياء أن تحدِّد الصلة السرية الجوهرية التي تربط ذلك العبد بالله كالذراع للجسد، ثم تجعله أخيراً كأنه هو والله واحد بقوله: «أنا أنا هو معزِّيكم» (إش ٥١: ١٢).

الفصل الثالث

لقب "ابن الإنسان"

من ألقاب المسيَّا التي أحبها الرب يسوع جداً، وتمسَّك بها كثيراً، لقب ابن الإنسان.

ونحن لو تحققنا من المعنى العميق الذي كان يهدف إليه الوحي من لقب ابن الإنسان، ندرك في الحال لماذا أحب الرب يسوع المسيح هذا اللقب وتمسَّك به كثيرا.

فإذا عدنا إلى المواضع التي ذكر فيها هذا اللقب "ابن الإنسان" في العهد القديم في دانيال ٧: ١٣، ١٤:

- «كنت أرى في رؤى الليل وإذا **مع سُحُب السماء مثل ابن الإنسان** أتى وجاء إلى القديم الأيام فقرَّبوه قدَّامه فأُعطِيَ سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة، سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول، وملكوته ما لا ينقرض»؛ نجد أن كلمة "ابنِ الإنسان" كما جاءت في العبرية تعني: "كائن بشري" أو "كائن يمثل البشرية أو كبني آدم".

هذا المعنى يتضح أكثر في مزمور ٨: ٤، ٥: «مَنْ هو الإنسان حتى تذكره، وابن آدم حتى تفتقده وتَنْقُصَهُ قليلاً عن الملائكة. وبمجد وبهاء تكلِّله». وهنا لقب "ابن آدم" يكشف عن اتجاه الوحي في تعبيره عن المسيَّا كممثل لبني آدم.

والمسيح نفسه أراد بشدة وبإلحاح أن ينبه ذهننا مرات كثيرة على مدى الإنجيل كله أنه هو هو نفسه المسيَّا، وابن الإنسان، **رجل "السحاب"** المذكور في نبوَّة دانيال. لذلك فأعظم إشارة أشار بها المسيح إلى شخصيته التي تنبَّأ عنها دانيال وردت في الحوار الذي دار بينه وبين رئيس الكهنة:

- «فسأله رئيس الكهنة أيضاً وقال له أأنت المسيح ابن المبارك؟ فقال يسوع: أنا هو، وسوف تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوَّة وآتياً في سحاب السماء» (مر ١٤: ٦١، ٦٢). هنا المسيح يكشف بدون مواربة عن شخصيته التي وصفها دانيال في رؤياه وذلك بوصفين غاية في الأهمية والدقة، الأول "ابن الإنسان" والثاني "مع السحاب".

وقد تحقَّق قول المسيح بخصوص جلوسه عن يمين القوَّة بشهادة القديس استفانوس وقت الشهادة:

+ «وأما هو (استفانوس) فَشَخَصَ إلى السماء وهو ممتلئ من الروح القدس، فرأى مجد الله ويسوع قائماً عن يمين الله فقال: ها أنا أنظر السموات مفتوحة وابن الإنسان قائماً عن يمين الله.» (أع ٧: ٥٥، ٦٥)

كما تحقق أمام جميع تلاميذه صعود المسيح في السحاب تمهيداً لمجيئه العتيد:

+ «ولما قال هذا ارتفع وهم ينظرون. وأخذته سحابة عن أعينهم. وفيما كانوا يشخصون إلى السماء وهو منطلق إذا رجلان قد وقفا بهم بلباس أبيض وقالا: أيها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء، إنَّ يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقاً إلى السماء» (أع ١: ٩-١١).

هذا بالإضافة إلى حادثة التجلي **عندما ظللته السحابة النيرة** مع موسى وإيليا اللذين ظهرا معه وصوت من السحابة يشهد له.

وصار هذا جزءاً لا يتجزَّأ من إيماننا بالمسيح: «لتعلموا ما هو رجاء دعوته وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين وما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين حسب عمل شدة قوته الذي عمله في المسيح، إذ أقامه من الأموات وأجلسه عن يمينه **في السماويات**. فوق كل رياسة وسلطان وقوة وسيادة وكل اسم يُسمَّى ليس في هذا الدهر فقط بل في المستقبل أيضاً، وأخضع كل شيء تحت قدميه، وإياه جعل رأساً فوق كل شيء للكنيسة التي هي جسده ملءُ الذي يملأ الكلَّ في الكلِّ» (أف ١: ١٨-٢٣).

والقديس بولس الرسول يشير في مطلع رسالته للعبرانيين إلى سمو اسم المسيَّا فوق الملائكة باعتباره آتياً من فوق أصلاً: «... بعدما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا جلس في يمين العظمة في الأعالي، صائراً أعظم من الملائكة بمقدار ما ورث اسماً أفضل منهم» (عب ١: ٣، ٤). هذا المجيء الفوقاني الذي عبَّر عنه النبي دانيال بقوله: «آتياً مع السحاب» الذي هو إشارة إلى لاهوته السري العجيب: «باركي يا نفسي الرب. يا رب إلهي قد عظُمتَ جداً، مجداً وجلالاً لبستَ، اللابس النور كثوب، الباسط السموات كشُقَّة. المسقِّف علاليه بالمياه. **الجاعل السحابَ مركبته**، الماشي على أجنحة الريح» (مز ١٠٤: ١-٣).

ويعود القديس بولس الرسول في رسالته إلى العبرانيين يؤكد أن المسيح هو هو ابن آدم الذي وُضع زماناً قليلاً عن الملائكة ليذوق الموت من أجل كل واحد، ثم تمجَّد وتعالى بقيامته وصعوده فوق الملائكة وفوق كل خليقة سماوية أخرى؛ وهكذا بصعوده فوق أعلى السموات صارت الخليقة كلها، بمقتضى الواقع وكاستحقاقه، تحت رجليه: «فإنه (الله)

للملائكة لم يُخضِع العالم العتيد الذي نتكلّم عنه. لكن شهد واحد في موضع قائلاً: ما هو الإنسان حتى تذكره أو ابن الإنسان حتى تفتقده، وضعته قليلاً عن الملائكة، بمجد وكرامة كللته وأقمته على أعمال يديك، أخضعت كل شيء تحت قدميه ... ولكن الذي وُضِعَ قليلاً (أي مدة قليلة) عن الملائكة، يسوع، نراه مكللاً بالمجد والكرامة من أجل ألم الموت، لكي يذوق بنعمة الله الموت لأجل كل واحد» (عب ٢: ٥-٩). ويمكن قراءة هذه الآية هكذا: «ويسوع الذي وُضِعَ زمناً قليلاً أقل من الملائكة لكي يذوق بنعمة الله الموت من أجل كلّ واحد، نراه مكللاً بالمجد والكرامة من أجل قبوله ألم الموت».

ولكن يستطرد بولس الرسول في نفس الموضع قائلاً: «لأنه إذ أَخضَعَ الكل له لم يترك شيئاً غير خاضع له، على أننا الآن لسنا نرى الكل بعدُ مُخْضَعاً له». أما هذا الذي لم يُخْضَع بعد للمسيح فالقديس بولس نفسه يوضحه في رسالته الأولى لكورنثوس: «لأنه يجب أن يملك حتى يضع جميع الأعداء تحت قدميه. آخر عدو يُبْطَلُ هو الموت» (١كو ١٥: ٢٥، ٢٦).

وهكذا نرى أن المسيح "ابن الإنسان" الذي هو ممثل البشرية ورأسها، ولو أنه أخضع الموت لنفسه وقام من بين الأموات بشخصه، إلاَّ أنه بصفته ممثلاً للبشرية كلها، والبشرية كلها لا تزال خاضعة للموت زمنياً، لذلك يرى بولس الرسول أن الموت لا يزال لم يُخْضَع بعد كلياً للمسيح. إذن، فليس الكل بعد **مُخْضَعاً** له! لذلك ينبغي للمسيح أن يملك ويعمل حتى يوم القيامة الأخيرة حينما تُستعلَن الحياة الأبدية التي في المسيح، التي يبطل فيها الموت إلى الأبد. والذي تبرزه هذه الآية أمام أعيننا هو أن لقب المسيح **"ابن الإنسان"** لا يقف عند شخصه، بل يتعدَّى ذلك ليشمل البشرية كلها في شخصه.

فالمسيح بصفته إنساناً مات، وبصفته إلهاً قام من بين الأموات وغلب الموت وأخضعه لنفسه، ولكنه بصفته "ابن الإنسان"، أي ممثلاً للبشرية كلها وحاملاً لأشخاصنا في طبيعته، فلا يزال الموت غير مُخضَع له لأن البشرية لم تُعتَق بعد من الموت زمنياً، فالموت بصفته عدواً للبشرية كلها هو عدو أيضاً "لابن الإنسان" أي للمسيح حتى الآن (جسدياً أو زمنياً)، ولن يبطل هذا العدو إلا بمجيء "ابن الإنسان" لإعلان نهاية الزمان ولقيامة الأجساد ولدينونة الشيطان والموت وإبطالهما: «وإبليس الذي كان يضلهم طُرِحَ في بحيرة النار ... وطُرح الموت والهاوية في بحيرة النار» (رؤ ٢٠: ١٠، ١٤). وهكذا بإبطال آخر عدو وهو الموت، يخضع لله بالتالي "ابن الإنسان" نفسه الذي أُخضعت له كل الأشياء! بمعنى أن البشرية المتحدة بالمسيح، وبعد أن يكفَّ عنها آخر عدو وهو الموت، تصبح خاضعة بالضرورة لله في المسيح.

ومن ذلك نرى أن لقب "ابن الإنسان" يتعدَّى المفهوم الفردي للمسيح ليشمل كل البشرية الجديدة المفديَّة والمخلَّصة بواسطة ذبيحة المسيح والمتحدة به!

والآن يمكننا أن نربط بين اللقبين المحبوبين اللذين أُطلقا على المسيَّا في النبوات: لقب "إسرائيل"، ولقب "ابن الإنسان":

فلقب إسرائيل كما سبق وشرحنا كان يكشف عن تمثيل المسيَّا لشعب إسرائيل وفدائه لاستعادة هذا اللقب الممتاز والمبارك والمقدس الذي كان قد فقده شعب إسرائيل. فأصبح للمسيح وحده حق لقب "إسرائيل"، كما أصبح لا يحق لإنسان ما أن يُدعى إسرائيلياً إلا في المسيح وبواسطته بصفته النائب الوحيد عن الشعب المرفوض، وهو الذي استطاع أن يتمم كل الوصايا والفرائض والناموس التي استهان بها الشعب ورفضها عن إهمال وإصرار، كما استطاع أن يدفع ثمن كل

تعديات شعبه ويقف أمام الله على الصليب نائباً عن الشعب المذنب: «ضُرب من أجل ذنب شعبي»، ومتألما ومتوجعاً عن إسرائيل المرفوض، إسرائيل الذي تركه الله الذي صرَّح المسيح بلسانه (لسان حال إسرائيل) «إلهي إلهي لماذا تركتني!» (مت ٢٧: ٤٦)

وكما جاز للمسيح بصفته نائباً عن إسرائيل الشعب المرفوض أن يخاطب الله حزيناً ومتوسلاً على الصليب قائلاً: «إلهي إلهي لماذا تركتني»، كذلك جاز للمسيح بعد القيامة أن يدعو الله بفرح المصالحة «إلهي وإلهكم» (يو ٢٠:١٧)؛ مشيراً بذلك إلى أن الله قد عاد ورضي أن يكون إلهاً لإسرائيل، إنما في شخص المسيح وبواسطته. فالله رضي عن المسيح بصفته "إسرائيل الجديد"، وقبل ذبيحة طاعته وحبه، صار له إلهاً بالحق وبالاستحقاق، وهكذا أصبح الله بالتالي بتوسط إسرائيل الجديد (المسيح) إلهاً لإسرائيل الذي كان مرفوضاً قبلاً. فكل مَنْ آمن بالمسيح (إسرائيل الجديد) واتحد به، صار إسرائيلياً حقاً أو واحداً من شعب الله المختار، وصار الله إلهه؛ وكل مَنْ لم يؤمن بالمسيح حتى ولو كان من صميم شعب إسرائيل (المرفوض)، لا يُدعَى إسرائيلياً ولا يكون الله إلهه.

أما صلة لقب "إسرائيل" بلقب "ابن الإنسان" فهي تشير إلى امتداد عمل المسيح من تمثيله لشعب إسرائيل المرفوض إلى تمثيله لكل الشعوب أي للبشرية كلها المرفوضة: «لم أُرسَل إلاَّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (مت ١٥: ٢٤)، «ولي خراف أُخَر ليست من هذه الحظيرة (إسرائيل) ينبغي أن آتي بتلك أيضاً فتسمع صوتي وتكون رعية واحدة وراعٍ واحد» (يو ١٠: ١٦).

ورؤيا دانيال التي رأى فيها "ابن الإنسان" وهو يتقدَّم أمام الله ليأخذ سلطانه الفائق، تمتد في الواقع من التعبير عن شخص المسيَّا المفرد لتشمل

المسيَّا في ملكوته الأبدي، أي شموله للبشرية المفدية والمخلَّصة التي تكون مملكته "مملكة القديسين".

هذا يوضحه القديس بولس الرسول بمنتهى الدقة في قوله: «أقامنا معه وأجلسنا معه في السماويات» (أف ٢: ٦)، أي أن المسيح بتجسُّده وموته عنا، لم يَعُدْ وحده، حتى إنه لما صعد، صعد حاملاً بشريتنا فيه! ويستفيض بولس الرسول أيضاً في شرح علاقتنا بالمسيح موضحاً أن المسيح قد تعيَّن أن يكون هو ممثل البشرية ليس فقط منذ التجسُّد، بل وقبل التجسُّد أيضاً، بل وقبل إنشاء العالم: «مبارك الله ... الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويات **في المسيح**، كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم» (أف ١: ٣، ٤).

وهنا حقيقة في غاية الأهمية لو فهمناها وتعمقناها، استنارت أمامنا جميع النبوات الخاصة بإسرائيل والتي وردت في العهد القديم بالنسبة لعلاقته ببقية الشعوب أي ببقية الإنسان عامة. هذه الحقيقة هي: كان المفروض أن شعب إسرائيل لو أطاع الله وأحبه وظل أميناً على عهده لكان الله عمل بواسطته لإنارة الأمم وخلاص الشعوب، ولكن بإخفاق هذا الشعب وعناده وتعديه، فَقَدَ امتيازه ورسالته بالنسبة للشعوب الأخرى بل واحتاج هو لِمَنْ يخلِّصه وينيره.

فالمسيح جاء ليعمل عملين: يخلِّص شعب إسرائيل أولاً، ثم بإسرائيل المفديِّ (المسيحيين اليهود) ينير الأمم ويخلِّص الإنسان عامة: «الآن تُطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام، لأن عينيَّ قد أبصرتا خلاصك الذي أعددته قدام وجه جميع الشعوب، **نورَ إعلانٍ للأمم ومجداً لشعبك إسرائيل**» (لو ٢: ٢٩-٣٢).

بفهمنا هذه الحقيقة يتبيَّن لنا العلاقة الجوهرية بين لقب المسيَّا كإسرائيل الجديد ولقب المسيَّا كابن الإنسان، فالمسيح جاء من اليهود: «لأن الخلاص هو من اليهود» (يو ٤: ٢٢) - من نسل داود - ثم باليهود المخلَّصين - الكنيسة المتحدة بالمسيح - خلَّص المسيح شعوب العالم حتى إلى أقصى الأرض!

والمسيح يشير خفياً في أحد أقواله كيف يجمع في نفسه شخصية إسرائيل وشخصية ابن الإنسان، إنما بتشبيه في غاية الروعة المملوءة سرًّا وذلك في حديثه مع نثنائيل: «ورأى يسوع نثنائيل مقبلاً إليه فقال عنه: هوذا إسرائيلي[1] حقاً لا غش فيه. قال له نثنائيل: من أين تعرفني؟ أجاب يسوع وقال له: قبل أن دعاك فيلبُّس وأنت تحت التينة رأيتُك. أجاب نثنائيل وقال له: يا معلِّم أنت ابن الله أنت ملك إسرائيل. أجاب يسوع وقال له: هل آمنتَ لأني قلت لك إني رأيتُك تحت التينة، سوف ترى أعظم من هذا. الحقَّ الحقَّ أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان» (يو ١: ٤٧-٥١).

هذا الحديث محمَّل بمعان ومرادفات لفظية ذات مدلولات روحية ولاهوتية عميقة. فإذا انتبهنا لكلمة "ينظر" أو "يرى" نجدها محور هذا الحديث: «تعالَ **وانظر**»، و«**رأى** يسوع»، «تحت التينة **رأيتك**»، «**سوف ترى** أعظم من هذا»، «من الآن **ترون**». ولكن مفتاح سر هذه الكلمة المتكررة «ينظر أو يرى» هو في كلمة أخرى مخفية وهي كلمة «إسرائيل» و«إسرائيلي» التي معناها «ينظر الله» أو «يرى الله». فما هي العلاقة المقصودة بينهما؟

---

(١) كلمة إسرائيل تعني "الناظر الله"، أو "الذي يكشف الله بالرؤيا"، حسب شرح العلاَّمة فيلو.

لو رجعنا إلى حلم يعقوب التاريخي (تك ٢٨: ١٢، ١٣)، نقرأ أن يعقوب «رأى ... سُلَّمٌ منصوبة على الأرض ورأسها يمسُّ السماء، وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها وهوذا الرب واقف عليها». ولما استيقظ قال: «حقاً إن الرب في هذا المكان وأنا لم أعلم، وخاف وقال: ما أرهب هذا المكان ما هذا إلاَّ بيت الله وهذا باب السماء» (تك ٢٨: ١٦، ١٧)

فالرب بحديثه يستحضر في ذهن نثنائيل وفي ذهننا منظر حلم يعقوب إسرائيل وهو يرى السلم والرب عليه وباب السماء والملائكة. ولكن الروح القدس يستخدم الألفاظ في إنجيل يوحنا ليبرز صورة جديدة "إسرائيل الجديد"، فأولاً نجد فيلبُّس يدعو نثنائيل **"ليرى"** المسيَّا وكأنما هي محاولة جديدة لرؤية الرب أو استعلانه على مثال رؤية يعقوب إسرائيل واستعلانه للرب قديماً. أو بمعنى آخر يحاول الوحي الإلهي أن ينبه ذهننا إلى تجديد إسرائيلية الإسرائيليين ممثَّلة في محاولة إعلان الرب لنثنائيل الرافض المتشكك، ثم عند أول ظهور نثنائيل أمام الرب يدعوه الرب بقوة النبوَّة: «هوذا إسرائيلي حقاً لا غش فيه» باعتبار إيمانه المزمع أن "يرى" به الرب فعلاً ويتعرَّف عليه ثم يبتدره الرب بعد ذلك باستعلان دواخله: «وأنت تحت التينة رأيتك». هنا يثبت المسيح أنه قادر على الرؤيا الفائقة من وراء المكان والزمان. بهذه المبادرة يحاول أن ينبِّه ذهن نثنائيل وذهننا أنه أكثر تفوقاً من إسرائيل الذي رأى الرب في الحلم أو أنه هو نفسه الرب الذي يرى خفايا القلوب، وحينئذ ينتبه نثنائيل ويؤمن في الحال أن يسوع هو المسيَّا حقاً ويمتد بالرؤيا فيراه أنه هو ابن الله وملك إسرائيل! وهكذا يثبت صدق قول الرب عنه أنه إسرائيلي حقاً لا غش فيه، بمعنى أن نثنائيل أصبح "الناظر الله بالحق" الأمر الذي كان قد حُرم منه شعب إسرائيل بأجمعه قروناً طويلة.

وهكذا ينكشف المعنى السري في قول الرب لنثنائيل أنه إسرائيلي حقاً لا غش فيه، ومنه يتضح لنا أن بمجيء الرب وظهوره بالجسد هيأت الفرصة لتجديد إسرائيل الرافض المتشكك المغشوش وذلك بتعرفه على المسيح وإيمانه بأنه ابن الله وملك إسرائيل.

ولكن الرب لا يكتفي بإيمان نثنائيل أن المسيح هو ابن الله وملك إسرائيل فحسب بل ويبتدئ ليعلن له ولنا أن مع كونه ابن الله وملك إسرائيل فهو أيضاً "ابن الإنسان" بتعبير دانيال النبي، بمعنى أنه حامل البشرية في بنوَّته لله وفي ملكوته. فهو وإن كانت رأسه في السماء حقاً فرجلاه على الأرض، والملائكة التي تصعد عليه وتنزل عليه هي بعينها وفي آن واحد تصعد علينا وتنزل علينا بصفتها «أرواحاً خادمة مُرسَلَة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص» (عب ١ : ١٤)، وهذا بصفتنا «أننا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه» (أف ٥ : ٣٠)، أما جسمه الذي هو السلم فهو الذي بعينه الطريق السري الجديد الصاعد إلى الأقداس السماوية: «فإذ لنا أيها الإخوة ثقة بالدخول إلى الأقداس بدم يسوع طريقاً كرَّسه لنا حديثاً حياً بالحجاب أي جسده ...» (عب ١٠: ١٩، ٢٠)

ثم إن المسيح يعطي هنا وعداً بهبة جديدة سيمنحها لأخصائه، أي لشعبه الجديد، أي أنهم سوف يرون بواسطته رؤيا يعقوب بعينها التي فيها يتعرَّفون على الرب الإله ليس واقفاً على سلم رمزي يربط الأرض بالسماء، بل قائماً بجسد حقيقي يجمع الأرض مع السماء، ولا يكونون مجرَّد رائين للرب الإله كإسرائيل فحسب بل شركاء لله في اتصاله بالسماء وشركاء معه في خدمة الملائكة له.

ومن هذا يتضح تماماً وبأجلى بيان أن المسيح يعطي نفسه صفة "إسرائيل الجديد" الذي هو وحده الناظر لحقيقة الله وجوهره "ابن الله"، وأننا بواسطته نوهَب هذه الرؤيا بعينها فنصير كلنا رائين لله أي

نصير إسرائيليين حقاً لا غش فينا. كذلك فالمسيح إذ يعطي نفسه صفة "ابن الإنسان" أي الحامل لبشريتنا الجديدة في نفسه، لذلك فحتماً تنتقل بنا الرؤيا انتقالاً واقعياً محسوساً من الرؤية إلى الشركة أي من "إسرائيل" إلى «الإنسان الجديد ... إلى قامة ملء المسيح».

ومن ذلك نرى أن لقب "إسرائيل" بالنسبة للمسيح يعني كثيراً بالنسبة لنا، فنحن صرنا بواسطته الشعب المختار حقاً والأمة المقدسة. كما أن لقب "ابن الإنسان" للمسيح يعني بالنسبة لنا أننا نلنا بالاتحاد به بشرية جديدة تماما، وصرنا فيه "إنساناً جديداً كاملاً"، يكون لنا بواسطته "فكر المسيح" و"نوره وبصيرته" و"روحه وحياته وميراثه في الله!!

الفصل الرابع

لقبا "الغصن" و"الكرمة الحقيقية"

لقب الكرمة أصلاً هو لقب "إسرائيل" كأُمة مُخْصِبَة فلّحها الله بيديه بعد أن زرعها في وسط الشعوب، فتأصَّلت وعظمت كالأَرْز، وتعهَّدها الله بنفسه وبشريعته ليستظل العالم بإيمانها بِبَهْوَه العظيم، ولتشرب الأُمم من خمر معرفتها:

+ «كرمةً من مصر نقلْتَ، طردتَ أُمماً وغرستَها، هيَّأتَ قُدَّامَها فأَصَّلتْ أُصولها فملأت الأرض، غطَّى الجبالَ ظلُّها وأغصانُها أرْزَ الله، ومدَّت قُضْبانَها إلى البحر وإلى النهر فروعَها» (مز ٨٠: ٨-١١).

ولكن للأسف تعجرفت هذه الأُمة العنيدة، وفي تعظمها نسيت الله، وتعدَّت شريعته وتعالت على بقية الأمم، لا ببرِّها، ولكن بخطاياها وظلمها وفجورها. وهكذا لم تثمر الثمر الذي كان يرجوه الله منها فأهملها الله عن قصد و لم يتعهَّدها برحمته لا من السماء ولا من الأرض، فنهبتها الشعوب الأخرى التي سخطت عليها بسبب تعظمها حتى صارت خراباً، وصار عِنبُها مُرًّا وثمرها مفسوداً كالسم:

+ «لأنشدنَّ عن حبيبي نشيد مُحبِّي لكرمه. كان لحبيبي كرم على أَكَمَة خصبة، فنقبه ونقي حجارته وغرسه كرْمَ سَوْرَق وبنى برجاً في وَسطه، ونقر فيه أيضاً معصرة، فانتظر أن يصنع عنباً فصنع عنباً رديئاً. والآن يا سكان أورشليم ورجال يهوذا احكموا

بيني وبين كرمي، ماذا يُصنع أيضاً لكرمي وأنا لم أصنعه له؟ لماذا إذ انتظرتُ أن يصنع عنباً صنع عنباً رديئاً؟ فالآن أُعرِّفكم ماذا أصنع بكرمي؟ أنزع سياجه فيصير للرعْي، أهدم جدرانه فيصير للدَّوْس، وأجعله خراباً لا يُقْضَبُ ولا يُنقب فيطلع شوك وحسك، وأُوصي الغيم أن لا يمطر عليه مطراً.

إن كرم رب الجنود هو بيتُ إسرائيل، وغَرْسَ لذَّته رجالُ يهوذا، فانتظر حقاً فإذا سفكُ دمٍ، وعدلاً فإذا صراخٌ» (إش ٥: ١-٧).

+ «إسرائيل جَفْنَة (كرمة) ممتدة، يُخرج ثمراً لنفسه. على حسب كثرة ثمره قد كثَّر المذابح (للآلهة الغريبة)، على حسب جودة أرضه أجاد الأنْصابَ (للشياطين)» (هو ١٠: ١).

+ «إنهم أُمة عديمة الرأي ولا بصيرة فيهم ... لأن من جَفْنَة (كرمة) سدوم جَفْنَتهم، ومن كروم عمورة. عنبُهم عنبُ سُمٍّ ولهم عناقيد مرارة. خمرُهم حُمَةُ الثعابين وسمُّ الأصلال القاتل» (تث ٣٢: ٢٨-٣٣).

ولكن في ملء الأيام، أي في نهاية اكتمال تأديب إسرائيل، عاد الرب ونظر مرة أخرى لغرس يديه، كرمة مشيئته التي وعد الله أن على خلاصها وأثمارها يتوقف خلاص كل الأمم وبركة شعوب كل الأرض؛ فاختار لنفسه منها «غصناً» من «جذع يسَّى»، «نبت قدَّامه كفَرْخٍ وكعِرْقٍ من أرضٍ يابسة» (إش ٥٣: ٢).

+ «ويخرج قضيب من جذع يسَّى وينبت غصن من أصوله ويحل عليه روح الرب ...» (إش ١١: ١و٢)

+ «ها أيام تأتي، يقول الرب، وأُقيم لداود غصن برٍّ، فيملك ملك

وينجح ويُجري حقاً وعدلاً في الأرض، في أيامه يُخلَّص يهوذا ويسكن إسرائيل آمناً، وهذا هو اسمه الذي يدعونه به: الربُّ برُّنا» (إر ٢٣: ٥، ٦؛ ٣٣: ١٥، ١٦).

هذا الغصن هو المسيَّا القائم «من بيت داود»، من أصل الكرمة القديمة "إسرائيل" التي فسدت وأخفقت أن تعطي ثمراً لحساب الله لخلاص شعوب الأرض، وقد جعل الله هذا الغصن عوض كل الكرمة القديمة الفاسدة، فهو وإن كان محسوباً أنه امتداد من أصلها إلا أنه يستمد حقه وعمله وأثماره من الله رأساً كابن له!!

وهكذا ذكر الله محبتهِ للكرمة القديمة المرفوضة، وتعهدها بابنه الآتي من أصولها الأولى من آدم كغصن أو كعرق من أرض يابسة، جاعلاً منه كرمة جديدة، كرمة حقيقية ينمو بروحه الأزلي كذراعه اليمين:

+ «يا إله الجنود ارجعنَّ اطّلع من السماء وانظر وتعهد هذه الكرمة، والغرس الذي غرسته يمينك والابن الذي اخترته لنفسك. هي محروقة بنار مقطوعة، من انتهار وجهك يبيدون. لتكن يدك على رَجُلِ يمينك وعلى ابن آدم الذي اخترته لنفسك» (مز ٨٠: ١٤-١٧).

هذا هو المسيح، إسرائيل الجديد، الغصن الصغير الذي تبقّى من الكرمة العتيقة الفاسدة (إش ٦٥: ٨، ٩)، الذي صار مجداً لله ولشعوب الأرض عوض الخزي الذي شمل بني آدم بإخفاق إسرائيل، الشعب الذي اختاره الله أصلاً لإنارة الأمم ولتمجيد اسمه بين الناس:

+ «في ذلك اليوم يكون غصن الرب بهاء ومجداً، وثمر الأرض فخراً وزينة للناجين من إسرائيل» (إش ٤: ٢).

ولا يفوت على إشعياء النبي أن يكشف عن سر هذا الغصن الإلهي، فلا يدعوه بعد «غصن داود» ولا «غصن إسرائيل» بل «غصن الرب» و«غصن البهاء والمجد» و«هذا هو اسمه الذي يدعونه به: الرب برُّنا».

وفي هذا تتضح الأصول الأولى التي انبثق منها اللقب المحبوب للمسيح «الكرمة الحقيقية»، فلأنه إسرائيل الحقيقي الجديد، لذلك فهو حتماً «الكرمة الحقيقية» التي أثمرت بالحق والحياة والبر والقداسة والفداء وديست وحدها في المعصرة وانسكب دم عصيرها على الصليب ليغسل عار إسرائيل أولاً، ثم انحدر إلى أقصى الأرض فطهَّرها، وشرب كل إنسان من عصير الكرمة دم "الابن"، "رَجُل يمين الله"، فأثمر الإنسان بالمعرفة في كل مكان ثمر الحق لما شرب عصير الحياة الأبدية!!

+ «أنا الكرمة الحقيقية ...» (يو ١٥: ١)

هنا المعنى ينصبُّ على التشبيه، ثم الارتفاع بالتشبيه إلى أسمى ممكناته. ويمكن تفسير القول هكذا: «أنا الكرمة ... الكرمة الحقيقية». الكرمة التي أُعطي لإسرائيل منذ البدء أن يمثلها فأتلف مثالها وصار عنبه علقماً وسُمًّا، وبدل أن يكون نوراً وبركة للأمم صار ظلاماً ولعنة لنفسه وللأمم.

هنا كلمة "الحقيقية" = ἀληθινή تفيد المعنى المتصل بجوهر الحقائق وأصلها، فـ"الحقيقي" في تعبيرات المسيح هو ما ليس الشبه أو المثال أو الرمز، إنما الجوهر والأصل الذي لا يتغيَّر ولا يفسد ولا يزول. و"الحقيقي" هو ما يختص بالمعرفة الجوهرية المتصلة بجوهر الأشياء والأمور غير المتأثرة بالمظاهر والأشكال، وبذلك يقصد المسيح من وصف نفسه بالكرمة "الحقيقية" أنه هو جوهر الحقيقة فيما يختص بعمل الكرمة ورمزها ومثالها الذي أُعطي لإسرائيل أن يمثله في علاقته بالأمم فأخفق وأفسد، وبهذه المناسبة ينبغي أن نعلم أن كل إنسان في شعب

إسرائيل كان يعتقد أن أُمته هي "الكرمة" وسط الشعوب، وقد نُقش على الباب الرئيسي للهيكل كرمة كبيرة من الذهب الخالص تمتد فروعها لتغطي الجبال والبحار، وكانت الفرصة الوحيدة لأي أممي لكي يعرف الله معرفة مثمرة، أي يضمن لنفسه البركة، هي أن يتحد بشعب إسرائيل كما يُطعَّم الغصن في أصل الشجرة. ولكن للأسف فقدت إسرائيل هذه الميزة وهذه القوَّة: «تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلاً واحداً، ومتى حصل تصنعونه ابناً لجهنم أكثر منكم مضاعفاً» (مت ٢٣: ١٥).

لقد جاء المسيح ليتقلَّد هذه الوظيفة المتعطلة، أي ليكون نوراً للعالم عوَض إسرائيل، ولكي كلُّ مَنْ يريد أن يعرف الله عليه أن يتحد بالمسيح نفسه، وليس بشعب إسرائيل. ولكن يعود المسيح ويؤكد أنه ليس بمفرده سيكون نوراً للناس، بل بواسطة المختارين أيضاً من شعب إسرائيل (التلاميذ والرسل) عندما يؤمنون ويتحدون بالمسيح كاتحاد الأغصان بالأصل في الكرمة الحقيقية، وإذ يستمدون منه الروح والحق والحياة والنور حينئذ يضيئون هم أيضاً بنوره «فليضيء **نوركم** هكذا قدام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السموات» (مت ٥: ١٦). فعندما وثق المسيح من اتحاد تلاميذه به اتحاد الأغصان بالكرمة الحقيقية بعد أن شربوا سر الثبوت من عصير الكرمة السري، أطلقهم ليعملوا عمله «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم ... وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (مت ٢٨: ١٩، ٢٠). أي أن الكنيسة أصبحت بواسطة اتحادها بالمسيح وثبوتها فيه هي الكرمة الحقيقية، إسرائيل الجديدة، حيث المسيح فيها هو الأصل الذي ينبع منه الحياة، وكل الأعضاء متمسكون «بالرأس الذي منه كل الجسد بمفاصلَ ورُبُط متوازراً ومقترناً ينمو نمواً من الله» (كو ٢: ١٩). وهكذا تحقق للكرمة الحقيقية

وأغصانها المثمرة، أي للمسيح والكنيسة، أن تمتد لتغطي البحار والجبال والأمم من أقصى الأرض إلى أقصاها.

لقد أصبح المسيح في تلاميذه هو الكرمة الحقيقية المثمرة لمجد الله الآب «أنا الكرمة وأنتم الأغصان» (يو ١٥ : ٥).

هنا نتصور الكنيسة الأولى الجديدة - التي تنطلق لتبشر العالم كله - من المسيح كأصل، والتلاميذ كأغصان متحدة في الأصل. هـــذه هـــي الكنيسة، إسرائيل، الكرمة الجديدة، ليست بعد شـــعباً عامـــاً، ولكـــن المختارين فقط من الشعب الذين يستمدون حياتهم وقوتهم وأثمارهم من المسيح المصدر الإلهي السري الفائق «الذي يثبت فيَّ وأنا فيه هذا يـــأتي بثمر كثير. لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شـــيئاً» (يـــو ١٥ : ٥). فالمسيح هنا هو جوهر الكرمة الحقيقية وقوتها ومصدر الإثمار الوحيـــد، والمختارون يحملون سر الكرمة وقوتها وفعلها، يثمرون للمـــسيح والآب بمقدار ثبوتهم في المسيح «اثبتوا فيَّ وأنا فيكم. كما أن الغصن لا يقدر أن يأتي بثمر من ذاته إن لم يثبت في الكرمة، كذلك أنتم أيضاً إن لم تثبتـــوا فيَّ» (يو ١٥ : ٤).

ولكن برهان الثبوت في المسيح هو الثمـــر، أي الـــشهادة للمـــسيح وتوصيل الحياة الأبدية إلى الآخرين، فإذا توقف الثمر، فإن هذا معنـــاه توقف الحياة الأبدية التي تسري من المسيح في الغصن، وكنتيجة لـــذلك يكون انفصال الغصن حتماً، فلا يعود يصلح إلا للحريق.

هنا يفسر لنا المسيح الطبيعة الجديدة للكنيسة التي أصبحت «من لحمه ومن عظامه» (أف ٥ : ٣٠)، فهي لا تقوم على تنظيمات وتحديد أعمال ووظائف بين أكفاء أو ممتازين، ولكن على اتحاد عضوي حيوي يتم سرًّا بجسد المسيح ودمه وحياته، يبدأ كنمو أو كميلاد منـــه ويظـــل ينمـــو ويتجدد إلى ما لا نهاية، حيث لا يستطيع ولا الموت الطبيعي أن يفـــصل

الإنسان عن المسيح!! فأساس الكنيسة الذي يعطيها شكلها وكيانها وقوتها هو قيام واتحاد كل عضو فيها بالمسيح رأساً، والثمر هو الذي يميز بين عضو وعضو لأنه برهان صحة الثبوت والاتحاد والنمو الدائم في المسيح.

المسيح هنا هو المركز العضوي ومصدر الحياة وسر القوَّة والنمو والبقاء للكنيسة، أي الشعب الجديد، إسرائيل الجديدة، الكرمة الحقيقية. كل إنسان في المسيح يسوع هو جزء حي في الكرمة الحقيقية، وهو واقع في دائرة عمل الكرَّام «كغصن في أصل» كابن متبنَّى في الابن الوحيد!!

حينما يقول المسيح «أنا الكرمة الحقيقية وأبي الكرام» (يو ١٥: ١)، فهو يشير إشارة سرية غاية في العمق والإحكام إلى انتقال جوهري تم في العلاقة التي تربط الله بشعب إسرائيل بسبب تجسُّد المسيح. فبعد أن كان الله كرَّاماً لكرمة غير مثمرة بل وفاسدة ومزيَّفة (شعب إسرائيل)، أصبح كرَّاماً لكرمة حقيقية (المسيح كجسم إلهي يحمل المختارين من الشعب) مثمرة لمجد الآب، وهو يعتني بها ليزيد إثمارها إلى المنتهى.

هنا وَصفُ الآب ككرَّام ووصف المسيح ككرمة، يكشف؛ أولاً: عن العلاقة الجوهرية التي تمَّت بين المسيح والشعب الجديد التي أصبح فيها الشعب محسوباً في المسيح أنه كرمة مقدَّسة حقيقية طاهرة من غرس الآب؛ وثانياً: يكشف عن العلاقة الجديدة التي خضع لها المسيح بالتجسُّد من نسل داود، إذ صار كأنه من غرس الآب مع أنه ابن الآب!! وهنا يجمع المسيح في الحقيقة بين وضعين أو طبيعتين: الأول بصفته الكرمة التي بذرها الآب وفلَّحها (في بطن العذراء، من دم البشرية)، والثاني بصفته ابن الكرَّام الوحيد والمحبوب الذي من جوهر الآب وحضنه. فلكي لا نتوه في التشبيه الأول أي وصف المسيح نفسه ككرمة والآب ككرَّام الذي يبرز فيه صفة التجسد، عاد المسيح وكشف عن علاقته الجوهرية بالكرام أو بصاحب الكرم في مثله المشهور (مت ٢١: ٣٣-٤٤) الذي

فيه يظهر المسيح نفسه أنه الابن الوحيد الوارث للكرَّام:

+ «... فأخيراً أرسل إليهم ابنه قائلاً: يهابون ابني. وأما الكرَّامون (بنو الملكوت المرفوضون) فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم: هذا هو الوارث، هلموا نقتله ونأخذ ميراثه. فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه. فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرَّامين؟ قالوا له: أولئك الأردياء يُهلكهم هلاكاً رديًّا ويُسلِّم الكرم إلى كرَّامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها. قال لهم يسوع ... إن ملكوت الله يُنزع منكم ويُعطَى لأُمة تعمل أثماره ...».

وبذلك يأتي هذا المَثَل مكمِّلاً وشارحاً لكل معاني قول الرب أنه الكرمة الحقيقية، حيث يتضح من هذا المَثَل:

- أن الكرمة - في مفهومها الإلهي الأُخروي - هي ملكوت الله.

- وأن الله الآب استأمن شعب إسرائيل على سر ملكوت الله، أي على سر معرفته الخصوصية، فعيَّنهم كرَّامين على كرمه.

- وأن المسيح بصفته الابن الوحيد للآب، هو الوريث الوحيد للكرمة أي لملكوت الله، أي الذي له وحده معرفة الآب الخصوصية.

- أن المسيح جاء في نهاية الزمان المحدد المفروض أن تكون قد بلغت فيه إسرائيل زمان الإثمار وتهيَّأت بالمعرفة الحقيقية لإنارة شعوب الأرض، ولكنه لما جاء يطالبهم بالمعرفة الحقيقية التي هي ثمر الكرمة أو ثمر الملكوت التي استأمنهم عليها الآب، حقدوا عليه وحسدوه وقتلوه ليبقى المُلْك، أي معرفة الله (الكَرْم)، لهم وحدهم بلا منازع «أخذتم مفتاح المعرفة ما دخلتم أنتم والداخلون منعتموهم» (لو ١١: ٥٢). فما كان من الآب صاحب الكرم، أي صاحب الملكوت،

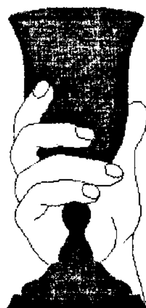
إلاَّ أن نـــزع عن شعب إسرائيل هذه الأمانة، أي "فلاَحة الكَـــرْم" الذي هو "ملكوت الله"، أي البشارة بسرِّ النور والحقَ والحياة.

ولكن المسيح لا يقف فقط في تشبيه نفسه بالكرمة المثمرة التي غطَّت البحار والجبال وملأت الأرض بأثمارها أي بالمعرفة الإلهية واستعلان نور الله، كذلك لا يكتفي بتشبيه نفسه بأصل الكرمة والمـــؤمنين كأغـــصان يستمدون حياتهم وأثمارهم من عصارة الكرمة، فيستنيرون بنوره؛ ولكنه يعود ليربط بين عصير الكرمة وبين دمه المسفوك على الـــصليب ربطـــاً جوهرياً، فعندما قدَّم لهم «كأس البركة» في العشاء الأخير قدَّمـــه لهـــم بصفته دمه المزمع أن يُسفك عنهم للعهد الجديد: «هذا هو دمي». وفي نفس الوقت ألحَّ أنه هو هو عصير الكرمة: «ثم أخذ الكـــأس وشـــكر وأعطاهم، فشربوا منها كلهم. وقال لهم: هذا هو دمي الـــذي للعهـــد الجديد، الذي يُسفك من أجل كثيرين. **الحقَّ أقول لكم: إني لا أشرب بعد من نتاج الكرمة** إلى ذلك اليوم حينما أشربه جديـــداً في ملكـــوت الله» (مر ١٤: ٢٣-٢٥). وهكذا ينتقل السر بين الدم الإلهي والخمـــر المرسوم بالصلاة هنا في وضع مبدع ورهيب!! «مَنْ يأكـــل جـــسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه» (يو ٦: ٥٦).

والواقع أن المسيح هنا يربط بين تشبيهين: **الأول**: تشبيه نفسه كابن صاحب الكرم الذي قتله الكرَّامون الأردياء وسفكوا دمه، فكان نهايـــة لهم وختاماً للعهد القديم وختماً شؤماً على مملكة إســـرائيل المنـــهارة، **والثاني**: تشبيه نفسه بالكرمة الحقيقية ذات العصارة الجديدة الحيَّة الـــتي فيها عهد ملكوت الله وأسرار الحياة الأبدية الفائقة لهذا الدهر حيث فيها يصبح النور والمعرفة والحق هي أكلُنا وشُرْبنا السرِّي.

وهكذا يحمل كأس العشاء السرِّي صفتين متلازمـــتين متحـــدتين:

الأول: صفة دم ابن الله المسفوك فعلاً على الصليب. والثانية: عصير الكرمة الحقيقية الذي ينتقل من الأصل إلى الفروع!! هو إذن دم وخمر معاً، إنما دم حقيقي محيي (لا يفسد ولا يزول ولا يتغيَّر إلى الأبد)، أي ليس دم إنسان بعد بل دم ذبيحة إلهية حيَّة إلى أبد الآبدين تفدي وتطهِّر وتقدِّس، ولا خمر كرمة عادية بعد بل عصير الحياة الأبدية الذي يحفظ الفروع حيَّة ثابتة في الله إلى أبد الآبدين. والاثنان معاً هما سر واحد: سر دم المسيح الإلهي المحيي، العصير الإلهي للكرمة الحقيقية، الذي كل مَنْ يشربه يتقدَّس ويتحد بابن الله ويثبت فيه كابن ويصير جزءاً لا يتجزَّأ من الكرمة الحقيقية جسد المسيح الحي، فيثمر في المسيح لمجد الكرَّام، الله الآب.



الفصل الخامس

لقب "الخبز الحقيقي" (المن الجديد)

كان من التعاليم التقليدية المتوارثة (عند اليهود) إبَّان زمن المسيح أن مجيء المسيَّا سيرافقه استئناف نـــزول المنَّ من السماء[1]. لذلك حينمـــا أعلن المسيح عن نفسه أنه هو المسيَّا الآتي، واجهه اليهـــود بالـــسؤال: «فقالوا له: فأيَّة آية تصنع لنرى ونؤمن بك؟ ماذا تعمل؟ آباؤنا أكلـــوا المنَّ في البرية كما هو مكتوب أنه أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا» (يو ٦: ٣٠، ٣١).

والمُلاحَظ أن اليهود لم يكتفوا بمعجزة الخمس خبزات والـــسمكتين وبقية المعجزات الأُخَر، بل أرادوا آية من السماء نفسها «فـــسألوه أن يريهم آية من السماء» (مت ١٦: ١).

والمعروف أن عطية "المنَّ اليومي" كانت الحادثة المرادفـــة لعطيـــة الناموس الروحي في سيناء، فالمن الذي ظل ينـــزل لهم من السماء مـــدة ٤٠ سنة كان آية صدق أو ختم تصديق لكلٍّ مـــن إرســـالية موســـى كمُرسَل من الله وللناموس كوصايا وأوامر إلهية، حتى إنه صـــار للمـــنِّ نفس مدلول الناموس. فالناموس في عرف الشُّرَّاح قديماً (مثل فيلو) هـــو بعينه المن رمز الحكمة والمعرفة الإلهية. فبمجيء المسيَّا أصبحت الضرورة تحتِّم أن تكون هناك آية من السماء مرادفة، تكون كخـــتم وتـــصديق

---

(١) كتاب المدراش ص ٧٣.

لشخصية المسيح ولتعاليمه «فقالوا له فأيَّة آية تصنع لنرى ونؤمن بك. ماذا تعمل؟» (يو ٦: ٣٠). وكان اليهود حينئذ متأثرين غاية التأثر بآية الخمس خبزات والسمكتين التي بواسطتها استطاع المسيح أن يُشبع الخمسة آلاف رجل ما عدا النساء والأولاد، فهذه الآية كانت تذكيراً لهم بموضوع المن جعلتهم يتطلَّعون بكل اشتياق وقوة إلى المسيح بصفته المسيَّا الملك الآتي حتى «أرادوا أن يختطفوه ويجعلوه ملكاً» (يو ٦: ١٥)، لذلك عادوا ليلحُّوا عليه أن يعطيهم آية من السماء كختم **تصديق**.

ومن التعاليم التي كانت سائدة بين اليهود كتقليد موروث، أن نفس الحوادث والملابسات التي صاحبت نزول الناموس على يد موسى سوف تتكرر عند مجيء المسيَّا، "لأنه كما كان المخلِّص الأول كذلك سيكون المخلِّص الثاني"(٢). ولكن للأسف كان همُّهم كله مُنصباً في ملكوت المسيَّا كملكوت أكل وشبع جسدي وبالتالي ملوكية زمانية وسلطان أرضي، مما جعل المسيح ينبه أذهانهم إلى هذا الخطأ والانحراف الخطير الذي سيجعلهم حتماً يعثرون فيه هو نفسه كأنه مجرَّد ملك أرضي ومعطي معجزات وخيرات أرضية تحتاج إلى ختم تصديق، وهكذا ردَّ عليهم قائلاً: «اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية الذي يعطيكم ابن الإنسان لأن هذا الله الآب قد **ختَمَه (صدَّق عليه)**» (يو ٦: ٢٧).

ولكن موسى كان شيئاً، والله الذي أرسله شيءٌ آخر، وآية موسى التي كانت هي المن شيء والناموس الذي أعطاه الله لموسى شيء آخر. موسى مات والمنُّ تلف والذين أكلوا المن ماتوا. إذن، فالمن لم يكن هو الخبز الحقيقي النازل من السماء ولكنه رمزه وحسب.

---

(٢) كتاب المدراش ص ٧٣.

فأما المسيح فكان هو والآب واحداً، وهو هو نفسه كلمة الله! فآية المسيح هي قيامته حيًّا و"مَنُّ" المسيح هو المسيح نفسه، هو كلمته المحيية وهو جسده الإلهي المقام من بين الأموات والذي صعد إلى السموات، وكلُّ مَنْ أكل منه يحيا إلى الأبد بل ويصعد معه إلى السماء ويجلس معه هناك:

+ «... الحق أقول لكم ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء (المن) بل أبي يعطيكم **الخبز الحقيقي** (المسيح) من السماء، لأن **خبز الله** (الحقيقي) هو النازل من السماء **الواهب حياة للعالم** ... **أنا هو خبز الحياة.** آباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا ... أنا هو الخبز الحيُّ الذي نزلٍ من السماء، إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد **والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي** الذي أبذله من أجل حياة العالم» (يو ٦: ٣٢، ٣٣، ٤٨، ٤٩، ٥١).

ويلاحظ القارئ المحاولة التي أراد بها المسيح أن يفرق بين فعلِ العطاء في الماضيَ وفعل العطاء في الحاضر موضحاً أن الماضي كان رمزاً ميتاً للحاضر الحي الدائم! «ليس موسى أعطاكم ... بل أبي يعطيكم ...» (يو ٦: ٣٢)

ثم يلاحظ القارئ الاصطلاح اللاهوتي المباشر الذي يستعمله المسيح في التعبير عن نفسه «خبز الله» الذي هو في نفس الوقت «كلمة الله»، وذلك بالمقارنة مع المن الذي سمَّاه الكتاب في موضع آخر «خبز الملائكة» (مز ٧٨: ٢٥)، ومُرادفُه من جهة الناموس الذي قيل عنه: «أخذتم الناموس بترتيب ملائكة ولم تحفظوه» (أع ٧: ٥٣). هذه المقارنة يُظهرها القديس بولس الرسول في (عب ٢: ١-٤):

+ «لذلك يجب أن نتنبَّه أكثر إلى ما سمعنا لئلا نَفُوتَه، لأنه إن كانت الكلمة التي تكلَّم بها ملائكة (وهي الناموس) قد صارت ثابتة،

وكل تعدٍّ ومعصية نال مجازاة عادلة، فكيف ننجو نحن إن أهملنا خلاصاً هذا مقداره قد ابتدأ الرب بالتكلُّم به (وهو الإنجيل) ثم تثبَّت لنا من الذين سمعوا، شاهداً الله معهم بآيات وعجائب وقوات متنوعة ومواهب الروح القدس حسب إرادته».

فخبز الله الذي يعطيه الله هو الخبز الحقيقي ἀληθινόν أي الذي يختص بالروح والحق، لا يفسد ولا يتغير ولا يزول والحي إلى الأبد، وهو المسيح نفسه النازل من السماء من عند الآب الذي نأخذه عندما نأكل جسده «والخبز الذي أنا أُعطي هو جسدي.» (يو ٦: ٥١)

ولكن المن لم يكن خبزاً حقيقياً ἀληθινόν لأنه أُعطي لمدة محددة وهي أربعين سنة، وعلى فترات محددة من اليوم، ولشعب مُعيَّن هو إسرائيل؛ أما الخبز الحقيقي، الخبز الحي، خبز الله فهو «النازل من السماء»، بصفة دائمة أبدية، لأنه غير منحصر بزمان، وهو المعطَى بصفة عامة «من أجل حياة العالم»، وهو هنا جسد المسيح في مفهومه الكلي أي المسيح نفسه «كلمة الله»! الذي أشبع حاجة البشرية من جهة القداسة والبر ومعرفة الله وأحياها بلا فساد الحياة الأبدية.

فبدون «كلمة الله»، أي المسيح، أي خبز الحياة، لا يمكن أن يكون للعالم حياة أبدية. فكلمة الله الحية والمحيية والخالقة أيضاً، هي هي المسيح نفسه، وهي بصورة ملموسة جسده! والمسيح سلَّم جسده للعالم، وقَبِلَ بمشيئته أن يُذبح على الصليب تعبيراً واقعياً عن تسليمه لنفسه مجاناً لكل إنسان كرغيف عيش يأكل منه كل جائع أو كأس حياة يشربها كل عطشان أو خروف فصح مشوي على نار الألم ومرارة الموت يأكله بسرعة كل مَنْ يريد أن يأخذ قوَّة على الخروج من العبودية وينال سر العبور، جسد المسيح هنا هو طعامٌ ودمه هو شرابٌ، ولكن ليس

طعاماً عادياً لنمو الأجسام ولا شراباً عادياً لإرواء الظمآن ولكنه طعامٌ حقيقي ἀληθινόν سمائي وشرابٌ حقيقي ἀληθινόν سمائي، بمعنى أن يختص بالحياة الأبدية التي لا تؤول إلى فساد أو موت «الخبز الحي النازل من السماء» (يو ٦: ٥١).

هنا العلاقة الوثيقة بين "الكلمة" و"الجسد" و"الخبز" تبدو في غاية الوضوح والإلهام إذا التفتنا إلى الصفة أو القوَّة المشتركة بينها وهي «الحياة الأبدية»،

- فكلمة الله هي باب الحياة الأبدية.
- والجسد الإلهي هو طريق الحياة الأبدية.
- وخبز الله هو طعام الحياة الأبدية.

والمسيح ضمَّ في نفسه سر وقوة هذه الصفات الثلاث: الكلمة والجسد والخبز. ولكن الثلاثة متضمَّنون معاً في أيٍّ من الثلاثة، فالمسيح دائماً هو الكلمة المتجسِّد المعطي جسده للعالم طعاماً للحق الأبدي. لذلك حينما أخذ المسيح الخبز وباركه وقسَّمه وأعطاه لتلاميذه ليلة الخميس قائلاً: «**هذا هو جسدي** المكسور لأجلكم» (١كو ١١: ٢٤)، كان في الحقيقة قد أعطى بالفعل ووهب نفسه للعالم، ككلمة الله الحية والمحيية، كطعام، لو أكله العالم لعاش إلى الأبد. وهنا يكون المسيح قد أعطى مضمونين إلهيين لخبز "القمح" العادي عندما شكر عليه وباركه وكسَّره فنقله من وضع إلى وضع.

أولاً: المضمون السري والقوة الحقيقية التي **للجسد الإلهي** المبذول على الصليب من أجل حياة العالم بصفته طعاماً سرِّياً روحياً حقيقياً وأنَّ كل مَنْ يأكله يتحد ويحيا سرًّا بجسد المسيح المبذول «كلما أكلتم هذا الخبز ... تخبرون بموت الرب» (١كو ١١: ٢٦).

ثانياً: المفهوم السري والقوة الحقيقية **التي للكلمة**: «فمَنْ يأكلني فهو يحيا بي» (يو ٦: ٥٧). أي أنه هو المن العقلي[٣] «ناموس روح الحياة في المسيح يسوع» (رو ٨: ٢)، وذلك من جهة إشباع الـــروح إشباعاً دائماً بواسطة كلمة المسيح فيما يخص معرفة الله: «أنا هو خبز الحياة مَنْ يُقْبِـــل إليَّ فلا يجوع، ومَنْ يؤمن بي فلا يعطـــش أبداً» (يو ٦: ٣٥). فسرُّ العشاء لم يعد طعاماً لإشباع جسد، بل خبزاً حقيقياً ἀληθινόν طعاماً للروح، للمعرفة، للإيمان الحـــي، للحب الدسم، للشوق إلى السمائيات، لذلك فهو يحفظ الإنسان حياً بالحق في الله لا يجوع إلى العالم ولا يعطش إلى الباطل.

المسيح كان ساعة العشاء السرِّي وأيضاً في كل إفخارستيا هو هـــو المعطي الخبز الحي، وفي آنٍ واحد هو الخبز الحي المعطَى: «والخبز الذي أنا **أُعطي هو جسدي**» (يو ٦: ٥١).

المسيح هنا يقطع من لحمه ويعطينا، وينـــزف من دمـــه ويـــسقينا، المسيح هنا كاهن وذبيحة!! وهذا يطابق تماماً ما عرفناه أنه ابن الكـــرَّام، وفي آن واحد هو الكرمة الحقيقية، سفك دمه بإرادته وأعطـــاه لمفديـــه بمحبته: «دُست المعصرة وحدي» ... «خذوا ... اشربوا ... لأن هـــذا هو دمي!» (إش ٦٣: ٣؛ مت ٢٦: ٢٦، ٢٧، ٢٨)

(٣) كما يوصَف في لحن ''بي أُويك'' أي ''خبز الحياة'' في التوزيع السنوي بالقداس الإلهي.

الفصل السادس

ألقاب "الحمَل" و"الراعي" و"باب الخراف"

منذ البدء والبشرية متجهة نحو رعاية الغنم وفلاحة الأرض، «وكان هابيل راعياً للغنم وكان قايين عاملاً في الأرض» (تك ٤: ٢)، أما رعاية الغنم فكانت دائماً ذات مكانة مفضَّلة كرمز للغنَى خاصة بعد أن نالت نعمة أكثر في شخص هابيل، الذي قَبِلَ الله قَرابينه: «قدَّم قايين من أثمار الأرض قرباناً للرب وقدَّم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سِمَانها. فنظر الرب إلى هابيل وقربانه ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر» (تك ٤: ٣-٥).

وكانت صناعة بني إسرائيل المختارة هي رعاية الغنم والمواشي والتجارة فيها كما جاء على لسان يوسف لإخوته عندما أوصاهم بما يقولون لفرعون: «فيكون إذا دعاكم فرعون وقال ما صناعتكم أن تقولوا: عبيدك أهل مواشٍ منذ صبانا إلى الآن نحن وآباؤنا جميعاً» (تك ٤٦: ٣٣، ٣٤).

ولكن بعد أن حدَّدت الشريعة الغنم والمواشي كحيوانات طاهرة والتزم الطقس بتقديمها كذبائح يومية وموسمية بكثرة كبيرة، ارتفعت قيمة الغنم وقيمة الرعاة معاً في نظر شعب إسرائيل بدرجة كبيرة أيضاً، حتى بلغت إلى الحد الذي فيه لزم أن يكون رعاة الأغنام ومواشي الذبائح ذوي درجات ومؤهلات هيكلية، كما تحددت أماكن الرعاية لتكون وفق مواصفات معينة. ثم بتدقيق الطقس في ضرورة أن يكون حَمَل

الذبيحة صحيحاً وسليماً بلا أدنى عيب أو مرض اقتضى ذلك أن يكون الراعي ذا كفاءة عالية في رعاية الغنم والمواشي وحفظها ووقايتها كما اقتضى أيضاً أن يكون الكاهن المنوط به فحص الذبائح قبل تقديمها ذا معرفة ممتازة بصحة الأغنام والمواشي ودراية خاصة بأمراضها وعيوبها.

وهكذا تسبب طقس الذبائح في العبادة اليهودية **في رفع شأن رعاية الغنم وإعطائها مسحة دينية خاصة، كما جعل الدراية بأحوال الغنم علماً متداخلاً في صميم العبادة.** ومن هنا بدأت التعابير الدينية ترتفع بصفات الراعي الصالح وتُطبِّقها على المستوى الروحي.

هذا من جهة الرعاة، أما من جهة الغنم وبالأخص الحملان ذات المواصفات المناسبة للذبيحة، فبضرورة الحال أخذت في اعتبار الشعب صفة تكاد تكون مقدَّسة، حتى أصبح مجرَّد ذبح أي خروف أمراً يدخل مباشرة في اختصاص الكاهن عند اليهود حتى هذا اليوم. وقد اختصت الشريعة الإلهية الحَمَل بالصلاحية ليكون ذبيحة متعددة الأوصاف والآثار، فهو مثلاً:

١ - الوحيد اللائق أن يكون ذبيحة الفصح، أي "العبور"، أي الخلاص: «يذبحه كل جمهور جماعة إسرائيل في العشية ويأخذون من الدم ويجعلونه على القائمتين والعتبة العليا في البيوت التي يأكلون فيها ... فأرى الدم وأعبر عنكم فلا يكون عليكم ضربة للهلاك ... وتأكلونه بعجلة **هو فِصْحٌ للرب**» (خر ١٢: ٦، ٧ ١٣، ١١).

٢ - وهو الوحيد الذي يقدَّم أمام الله في ذبيحة الصباح والمساء اليومية على مدى الأيام: «**خروفان حَوْلِيَّان** (أي ابنيْ سنة) كل يوم دائماً، الخروف الواحد تقدِّمه صباحاً والخروف الثاني تقدِّمه

في العشية ... رائحة سرور وقود للـرب، محرقـة دائمـة في أجيالكم، عند **باب** خيمة الاجتماع أمام الرب حيث أجتمع بكم لأُكلِّمك هناك» (خر ٢٩: ٣٨-٤٢).

٣ - وهو أساسي ضمن ذبيحة أوائل الشهور عند ظهور الأهلَّة (أي أوائل الشهور القمرية): «وفي رؤوسٍ شهوركم تقرِّبون محرقة للرب ثورين ابنَيْ بقر **وكبشاً واحداً وسبعة خراف حَوْلِيَّة صحيحة** ... محرقة رائحة سرور وقوداً للرب» (عد ٢٨: ١١، ١٣).

٤ - وهو أساسي ضمن ذبيحة الأيام التي للفطير: «وفي الشهر الأول في اليوم الرابع عشر من الشهر فِصْحٌ للرب ... سبعة أيام ... تُقرِّبون وقوداً محرقة للرب، ثورين ابنَيْ بقر **وكبشاً واحداً وسبعة خراف حَوْلِيَّة** صحيحة تكون لكم ... رائحة سرور للرب» (عد ٢٨: ١٦-٢٤).

٥ - وهو أساسي ضمن ذبيحة الأسابيع (الخمسين): «وفي يوم الباكورة حين تُقرِّبون تقدمة جديدة للرب في أسابيعكم ... تُقرِّبون محرقة لرائحة سرور للرب، ثورين ابنَيْ بقر **وكبشاً واحداً وسبعة خراف حَوْلِيَّة**» (عد ٢٨: ٢٦، ٢٧).

٦ - وهو أساسي ضمن ذبائح الكفَّارة وما يلازمها من ذبائح عيد المظال في الشهر السابع:

(أ) «وفي الشهر السابع في الأول من الشهر ... يوم هتاف بوق يكون لكم وتعملون محرقة لرائحة سرور للرب ثوراً واحداً ابن بقر **وكبشاً واحداً وسبعة خراف**

حَوْلِيَّة صحيحة ... للكفارة».

(ب) «وفي عاشر هذا الشهر السابع ... تذلِّلون أنفسكم ... وتُقرِّبون محرقة للرب رائحة سرور ثوراً واحداً ابن بقر **وكبشاً واحداً وسبعة خراف حَوْلِيَّة صحيحة** تكون لكم ... للكفَّارة».

(ج) «وفي اليوم الخامس عشر من الشهر السابع ... تُعيِّدون عيداً للرب سبعة أيام:

اليوم الأول: محرقة وقود رائحة سرور للرب. ثلاثة عشر ثوراً أبناء بقر **وكبشين وأربعة عشر خروفاً حَوْلِيًّا**.

اليوم الثاني: اثني عشر ثوراً ... **وكبشين وأربعة عشر خروفاً حَوْلِيًّا صحيحاً**.

اليوم الثالث: أحد عشر ثوراً **وكبشين وأربعة عشر خروفاً حَوْلِيًّا صحيحاً**.

اليوم الرابع: عشرة ثيران **وكبشين وأربعة عشر خروفاً حَوْلِيًّا صحيحاً**.

اليوم الخامس: تسعة ثيران **وكبشين وأربعة عشر خروفاً حَوْلِيًّا صحيحاً**.

اليوم السادس: ثمانية ثيران **وكبشين وأربعة عشر خروفاً حَوْلِيًّا صحيحاً**.

اليوم السابع: سبعة ثيران **وكبشين وأربعة عشر خروفاً حَوْلِيًّا صحيحاً**.

اليوم الثامن: يكون لكم يوم اعتكاف ... وتُقرِّبون محرقة وقوداً رائحة سرور للرب ثوراً واحداً **وكبشاً واحداً وسبعة خراف حَوْلِيَّة**» (خر ٢٩).

٧ – هذا بالإضافة إلى بقية الذبائح الفردية التي كان على الأفراد أن يقدِّموا فيها حَمَلاً كالمنصوص عنها في (لا ٣: ٦).

علماً بأن كل الذبائح الرسمية الهيكلية التي كان يُقدَّم فيها الحَمَل ذبيحة، كان يُقدَّم مع الحَمَل مقدار معيَّن من الخمر يُسكَبُ على الذبيحة ويسمَّى ذبيحة السكائب، مع مقدار من دقيق القمح المعجون بالزيت.

وهكذا يبرز أمامنا الحَمَل وقد احتل مركزاً خطيراً في حياة إسرائيل الروحية بالنسبة لعلاقة الشعب كله مع الله وعلاقة كل فرد بمفرده بالله. كذلك فالحمل يتوقَّف عليه الفصح أي الخلاص الجماعي كما تتوقف عليه ذبيحة المحرقة بنتائجها الخطيرة كذبيحة استرضاء مسرة لله وكذبيحة التكفير عن الخطية وكذبيحة الإثم. وهذه الذبائح إما تكون عن الشعب كله مجتمعاً وإما تكون عن الأشخاص كأفراد. لذلك فحينما قدَّم لنا يوحنا المعمدان المسيح بصفته «حَمَل الله» (يو ١: ٢٩)، فهو يكون قد نجح في إبراز صفة المسيح بتركيز جامع شامل يجمع كل وظائف ذبيحة الحَمَل ويتضمن كل الآثار التي للذبائح الطقسية التي يُقدَّم فيها الحَمَل، إنما بصورة فائقة كما عبَّرت عنها الرسالة إلى العبرانيين:

+ «فكم بالحري يكون دم المسيح، الذي بروح أزلي قدَّم نفسه لله بلا عيب، يُطهِّر ضمائركم من أعمال ميتة لتخدموا الله الحي ... فكان يلزم أن أمثلة الأشياء التي في السموات تُطهَّر بهذه، وأما السماويات عينها فبذبائح أفضل من هذه. لأن المسيح لم يدخل إلى أقداس مصنوعة بيد، أشباه الحقيقية، بل إلى السماء عينها ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا؛ ولا ليقدِّم نفسه مراراً كثيرة كما يدخل رئيس الكهنة إلى الأقداس كل سنة بدم آخر. فإذ ذاك كان يجب أن يتألَّم مراراً كثيرة منذ تأسيس العالم ولكنه الآن قد أُظهِرَ مرَّة عند انقضاء

الدهور ليُبطِلَ الخطية بذبيحة نفسه ... وكلُّ كاهن يقوم كل يـوم يخدم ويقدِّمَ مراراً كثيرة تلكَ الذبائح عينها التي لا تستطيع البتـة أن تـنـزع الخطية، وأما هذا، فبعد ما قدَّم عن الخطايا ذبيحة واحـدة جلس إلى الأبد عن يمين الله» (عـب ٩: ١٤، ٢٣-٢٦، ١٠: ١١ و١٢).

شعب إسرائيل كقطيع غنم ورؤساؤه رعاة:

+ «ليوكِّل الرب إله أرواح جميع البشر رجلاً على الجماعة، يخـرج أمامهم ويدخل أمامهم ويُخرجهم ويُدخلهم، لكيلا تكون جماعة الرب كالغنم التي لا راعي لها» (عد ٢٧: ١٦، ١٧).

بعد أن صارت قطعان الغنم في موضع بارز ومقدَّس في عينيِّ الشعب بصفتها لائقة أن تُقدَّم أمام الله كذبائح طاهرة مقبولة، حتى أن ناراً مـن السماء كانت تنزل أمام عيونهم من حين لآخر لتستقر علـى الحَمَـل المذبوح وتلتهمه وتصعد به إلى السماء أيضاً، بعد هذا صار من الأمـور التي يفتخر بها شعب إسرائيل أنه هو نفسه، باعتباره قطيعاً مقدَّسـاً لله، غنمُ ذبائح مقبولة والرب نفسه هو راعيهم «الرب راعيَّ فـلا يعـوزني شيء» (مز ٢٣: ١)، «اللهم عند خروجك أمام شعبك، عند صعودك في القفر، الأرض ارتعدت والسموات أيضاً قطرت مطراً. ارتعدت سينا في حضرة الله وأمطرت مطراً غزيراً ... هناك أسكنت قطيعك وهيَّـأتَ بجودك للمساكين ... سَاقَ **مثل الغنم شعبه وقادهم مثل قطيع** في البرية وهداهم آمنين فلم يجزعوا ... **قطيع بائسيك** لا تنسَ إلى الأبد» (مـز ٦٨: ٧-١٠، ٧٨: ٥٢، ٥٣؛ ٧٤: ١٩ حسب الترجمة السبعينية).

وهنا يهمنا جداً أن ننبِّه إلى وصف الوحي لله نفسه بصفته **راعياً، راعي الشعب وهي الوظيفة الرسمية التي سيحتلها المسيح منذ بدء ظهوره.**

كيف فسدت الرعية وفسد الرعاة:

وبفساد الرعية وعنادها وعدم سيرها وراء الله رفض الله أن يكون راعيها، وتخلى الله فعلاً عن رعايته لبني إسرائيل وسلَّمهم لرؤساء وكهنة وملوك ليرعوهم، ففسدوا هم أيضاً وأفسدوا الشعب معهم.

وإرميا النبي يعنِّف شعب إسرائيل في محنته وهو مرفوضٌ يُساق إلى السبي كقطيع: «تبكي عينيَّ بكاءً وتذرف الدموع لأنه قد **سُبي قطيع الرب** ... أين القطيع الذي أُعطِيَ لكِ غنمُ مجدك» (إر ١٣: ١٧، ٢٠). ثم يعنِّف إرميا الرعاة بعد ذلك بقوله: «ويلٌ للرعاة الذين يُهلكون ويُبدِّدون **غنم رعيتي**، يقول الرب. لذلك هكذا قال الرب إله إسرائيل عن الرعاة الذين يرعون شعبي: أنتم بدَّدتم غنمي وطردتموها و لم تتعهَّدوها؛ هأنذا أعاقبكم على شرِّ أعمالكم يقول الرب. وأنا أجمع بقية غنمي من جميع الأراضي التي طردتُها إليها وأرُدُّها إلى مرابضها فتثمر وتكثر. **وأُقيم عليها رعاة** يرعونها فلا تخاف بعد ولا ترتعد ولا تُفقد، يقول الرب» (إر ٢٣: ١-٤).

والملاحَظ هنا أن الله يتكلَّم عن الشعب باعتباره رعيته «بدَّدتم غنم رعيتي»، «وأنا أجمع بقية غنمي» «وأُقيم عليها رعاة يرعونها». ومن هذا يتضح موقف المسيح الإلهي كراعٍ أعظم أو «راعي الخراف العظيم» (عب ١٣: ٢٠) حسب تعبير بولس الرسول في سفر العبرانيين.

وقد أكمل المسيح بالفعل كل اشتياقات الله القديمة من جهة افتقاد الرعية وجمع شملها وإقامة رعاة صالحين (رسل وأساقفة) وشفاء المريض منها والمكسور وإرجاع الضال، الأمر الذي لم يكمله بسهولة بل كلَّفه سفك دمه على الصليب مُبرهناً بالحق والفعل أنه هو الراعي الصالح الوحيد الذي بذل نفسه عن حياة العالم كله.

وهذا كله سبق أن وصفه حزقيال النبي بكل رقة ودقة.

المسيَّا كراعٍ إلهي يأتي بقوة وحنان:

أما حزقيال النبي فبعد أن يصف فساد الرعاة وفساد الرعية معاً، يعود فيتنبَّأ عن افتقاد الله أخيراً للمساكين من شعبه بقيام راعٍ واحد صالح يرعى شعبه، هو هو الله نفسه، في وصف كامل شامل غاية في الإتقان.

+ «وكان إليَّ كلام الرب قائلاً: يا ابن آدم تنبَّأْ على رعاة إسرائيل، تنبَّأْ وقُلْ لهم: هكذا قال السيد الرب للرعاة: ويلٌ لرعاة إسرائيل الذين كانوا يرعون أنفسهم، ألا يرعى الرعاة الغَنَم؛ تأكلون الشحم وتلبسون الصوف وتذبحون السمين ولا ترعون الغنم؛ المريض لم تُقوُّوه والمجروح لم تعصبوه والمكسور لم تجبروه والمطرود لم تستردُّوه والضال لم تطلبوه، بل بشدة وبعنف تسلَّطتم عليهم. فتشتتت بلا راعٍ وصارت مأكلاً لجميع وحوش الحقل وتشتتت، ضلَّت غنمي في كل الجبال وعلى كل تلٍّ عالٍ. وعلى كل وجه الأرض تشتتت غنمي ولم يكن مَنْ يسأل أو يفتش ... لأنه هكذا قال السيد الرب هأنذا أسأل عن غنمي وأفتقدها».

+ «**أنا أرعى غنمي وأُربضها – يقول السيد الرب – وأطلب الضال وأسترد المطرود وأجبر الكسير وأعصب الجريح وأُبيد السمين والقوي وأرعاها بعدل.** وأنتم يا غنمي فهكذا قال السيد الرب هأنذا أحكم بين شاة وشاة، بين كباش وتيوس ... فأُخلِّص غنمي، فلا تكون من بعد غنيمةً وأحكم بين شاة وشاة، وأقيم عليها راعياً واحداً فيرعاها عبدي داود، هو يرعاها وهو يكون لها راعياً. وأنا الرب أكون لهم إلهاً وعبدي داود رئيساً في وسطهم. أنا الرب تكلمت... وأنتم غنمي، غنم مرعاي، أُناس أنتم. أنا إلهكم،

يقول السيد الرب» (حز ٣٤: ١-٦، ١١، ١٥-١٧، ٢٢-٢٤، ٣١).

وهنا نجد التلميح واضحاً بخصوص المسيَّا الذي يقدِّمه الوحي بضمير المتكلِّم حيث المتكلم هو هو الله، بصفته الراعي الواحد الوحيد الذي سيرعى الغنم بسلطان وعدل الله، إنما في صورة رمزية كما كان يرعى داود الشعب.

وقد أكمل المسيح بالفعل كل هذا التدبير، فكان هو الراعي الإلهي الذي استطاع أن يستبطن النفوس ويعرف خفايا الضمائر والقلوب، يخاطبها بالروح فتسمع وتستجيب، ويناديها من بُعْد فتميل إليه وتعود من الضلال، سواء كانت خراف إسرائيل الضالة الَّتي خاطبها بطرس الرسول بعد عودتها من الشتات إلى الحظيرة قائلاً: «لأنكم كنتم كخراف ضالة، لكنكم رجعتم الآن إلى راعي نفوسكم وأُسقفها» (١بط ٢: ٢٥)، أو كانت خرافاً أخرى ليست من حظيرة إسرائيل جمعها المسيح من أطراف الأرض من كل شعب ولسان وأُمة تحت الشمس: «ولي خرافٌ أُخَر ليست من هذه الحظيرة ينبغي أن آتي بتلك أيضاً فتسمع صوتي وتكون رعية واحدة وراعٍ واحدٍ» (يو ١٠: ١٦).

ويكفي أن نجمع بين نبوة حزقيال التي من فم الله، وبين كلام المسيح الذي بفم نفسه، ليدرك القارئ مَنْ هو المسيح بدون تعليق أو برهان:

النبـوَّة: «وأنتم يا غنمي، غنم مرعاي، أُناس أنتم. أنا إلهكم يقول السيد الرب» (حز ٣٤: ٣١).

التحقيق: «خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني، وأنا أُعطيها حياة أبدية ولن تهلك إلى الأبد ولا يخطفها أحد من يدي» (يو ١٠: ٢٧، ٢٨).

ويأتي إشعياء النبي فيكشف القناع عن حقيقة هذا الراعي الوحيد، فيصف بوضوح ما بعده وضوح كيف أن الإله نفسه إله إسرائيل يأتي وبقوة ذراعه يحكم، وكراعٍ مفتقد رحيم يجمع ويخلّص ويبذل، مع تصوير صورة دقيقة للشعب الذي سيؤمن بالمسيح:

+ «على جبلٍ عالٍ اصعدي يا مبشِّرة صهيون. ارفعي صوتكِ بقوة يا مبشِّرة أورشليم. ارفعي لا تخافي. **قولي لمدن يهوذا هوذا إلهكِ، هوذا السيد الرب بقوة يأتي وذراعه تحكم له**، هوذا أجرته معه وعُملته قدامه. **كراعٍ يرعى قطيعه**. بذراعه يجمع الحملان وفي حضنه يحملها ويقود المرضعات» (إش ٤٠: ٩-١١).

وهنا ليس أمامنا من جهة تطبيق هذه النبوة إلا قول المسيح نفسه:

+ «أنا هو الراعي الصالح، والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف» (يو ١٠: ١١).

المسيَّا كحمَل مذبوح:

ولكن لم تكن ضربة إسرائيل هي الرعاة فقط، بل أصلاً هي ضربة الشعب الذي عصى إلهه كما يعصي القطيع راعيه، فإن كان المسيَّا قد تعيَّن أن يأتي كراعٍ ليقود خراف إسرائيل الضالة ويردهم إلى حظيرة الله عوض رعاتها الذين فسدوا وصاروا كالذئاب الرديئة، فقد تعيَّن أيضاً أن يرد شعب إسرائيل إلى طاعة الله ويحمل عنهم خطاياهم وذنوبهم، وهكذا قدَّم نفسه عن الشعب ذبيحة إثم، كنعجة صامتة أو كحَمَل يُساق إلى الذبح، حيث تولَّى رؤساء الكهنة وظيفة الذئب بصفتهم الرعاة الأُجراء الكذبة؛ و لم يخشَ هو بأسهم ولا تراجع عن تأنيبهم حتى ذبحوه، و لم يدروا أنهم ذبحوا الراعي الصالح والفصح الحقيقي بآن واحد، خروف الخلاص الأبدي الذي حمل خطية الإنسان في كل العالم. وبقيامة الراعي

الصالح من بين الأموات مرة أخرى بعد تكميله الكفّارة العظمى عن العالم كله، استعاد مركزه الصالح وسط قطعان العالم كله التي جمعها لنفسه بموته وقيامته، فصارت رعية واحدة لراعٍ واحد.

كل هذا يراه إشعياء النبي بعين النبوَّة في غاية الوضوح والإتقان[١]:

+ «وهو مجروحٌ لأجل معاصينا، مسحوقٌ لأجل آثامنا.
تأديبُ سلامنَا عليه، وبحُبُره شُفينا.
كلنا كغنمٍ ضللنا، ملْنَا كلَ واحد إلى طريقه.
والرب وضع عليه إثم جميعنا.
ظُلِمَ، أما هو فتذلَّل و لم يفتح فاهُ.
كشاة (حمل) تُساق إلى الذبح ...
جعل نفسه ذبيحة إثم ... سكب للموت نفسه.
وأُحصي مع أثمة، وهو حَمَلَ خطية كثيرين.
وشَفَعَ في المذنبين» (إش ٥٣: ٥-٧، ١٠، ١٢).

إن مضمون "الحَمَل المذبوح" بالنسبة للمسيح مضمون فصحي بالدرجة الأُولى، أي أنه يحمل قوَّة العبور بآكليه من تحت غضب الله وعبودية مصر إلى الدخول في عهد رحمة الله وميراث كنعان. لذلك تضمنت ذبيحة المسيح بالضرورة عملية "أكل"، أكل المسيح، لأن مجرَّد ذبح خروف الفصح لم يكن يكفي للحصول على حق العبور، بل كان يتحتم أكل الخروف ورش دمه على الباب (خر ١٢: ٦-١١)!! وهنا يبدو قول المسيح بصورته الحتمية:

+ «إنْ لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم ... مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا

---

(١) هذه النبوة بالذات تُقرأ أثناء التوزيع في قداس خميس العهد.

أُقيمه في اليوم الأخير» (يو ٦: ٥٣، ٥٤).

المشكلة التي اعترضت أذهان تلاميذه هي «كيف يمكن أن يـأكلوا جسده، وبالتالي كيف يشربون دمه؟». فالمسيح يرد أن جسده «مأكلٌ **حقٌّ**» ἀληθής ودمه «مشربٌ **حقٌّ**»! حيث كلمة «حق» ἀληθής هنا تتجاوز الظواهر والمحسوسات وكل ما يتغير ويفسد ويزول. **هنا بكلمة «الحق» في معناها الروحي**، يكشف المسيح عن سمو جسده الفائق الروحاني الإلهي الذي لن يتغير ولن يفسد ولن يزول! وشكراً لله على عملية الذبح التي تمَّت للحَمَل الإلهي على الصليب، لأنها كشفت عن سر تجسُّده الفائق بالقيامة، فلولا الذبحِ ما كانت قيامة، ولولا القيامة لبقي سر الجسد والدم مكتوماً ومحصوراً.

هذا التحول من مضمون المادة إلى مضمون الروح، أو هذا الانتقال من الخبز الجسدي إلى الخبز الروحي يعبِّر عنه المسيح بقوله لتلاميذه إنهم سوف يتحققون من هذا ولا يعودون يعثرون بعد:

+ «فعَلِمَ يسوع في نفسه أن تلاميذه يتذمرون على هذا فقال لهم: أهذا يُعثركم؟ فإن رأيتم ابن الإنسان صاعداً إلى حيث كان أولاً (حينئذ لن تعثروا)» (يو ٦: ٦١، ٦٢).

إذن، فالمسيح عندما يتكلم عن أكل جسده وشرب دمه فهو يريدنا أن نتجاوز الإحساس البشري باليد والعين واللسان لنبلغ الجسد في حالة "الصعود"، وحينئذ نبلغ المفهوم الروحي من أكل الجسد وشرب الدم. هنا المسيح يطالبنا بأكل الحقيقة (أليثيا ἀλήθεια)، وشرب الحقيقة «مأكلٌ حقٌّ ومشربٌ حقٌّ». ويؤكد المسيح هذا المعنى بقوله: «الكلام الذي أُكلِّمكم به هو روح وحياة» (يو ٦: ٦٣)، «الروح هو الذي يُحيي، أما الجسد (المادة) فلا يُفيد شيئاً (بحد ذاته)!» (يو ٦: ٦٣)

إذن، فحينما قدَّم المسيح لتلاميذه الخبز بعد أن باركه وقسَّمه قائلاً: «خذوا كلوا هذا جسدي وكذلك الكأس الممزوجة من خمر وماء قائلاً: خذوا اشربوا هذا دمي» فهو هنا يدعونا إلى التحول من أكل خبز محسوس إلى أكل جسد حقيقي (أليثيس)، ومن شرب خمر محسوس إلى شرب دم حقيقي (أليثيس). ولكي ينبهنا المسيح أكثر إلى هذا التحول - في أعمق معناه - فهو يذكِّرنا أن ننظر إلى صعوده الذي أكمله بجسده ودمه، فصعوده إلى السماء حياً يلفت نظرنا أن جسده ودمه لا يقعان بعد تحت التغير والزوال وبالتالي فهما يفوقان الحواس، وهكذا فإن الأكل والشرب هما لجسد حقيقي ودم حقيقي يفوقان الإحساس البشري، إنما تحت أعراض الخبز والخمر. التحول هنا كائن في المادة كما هو كائن في الأكل، إنما بصورة جوهرية فائقة عن الإحساس.

هنا يوضح المسيح بعملية الأكل والشرب من جسده ودمه عن القوَّة الفصحية القائمة في جسده ودمه التي تَعْبر بنا من حالة فساد إلى عدم فساد ومن موت إلى حياة «مَنْ يأكلني فهو يحيا بي» (يو ٦: ٥٧).

المسيح هنا حَمَلٌ فصحي وذبيحة كفَّارية معاً، فهو بنفسه ذُبح عنا فرفع عنا خطايانا، ثم أعطانا بعد ذلك أن نأكله لنعبر به من الموت إلى الحياة.

كانت ذبيحة الكفَّارة التي عن الخطية لا يؤكل لحمها ولا يُشرب دمها، بل كان دمها يُسكب سكيباً، لأنها كانت تحمل خطية الخاطئ، فكانت الحياة التي في دمها تُسفك عوض سفك دم الخاطئ كعقوبة للخطية.

أما المسيح فبالرغم من أنه «حمل هو نفسه خطايانا في جسده على الخشبة» (١بط ٢: ٢٤) وسفك دمه كفَّارة عوَض دمنا، إلا أنه ظل حاملاً في جسده ودمه الحياة الأبدية نفسها، لذَلك بعد أن وفَّى الموت عنا قام بالحياة التي فيه، وأعطانا أن نأكل جسده ونشرب دمه لأنه في

جسده ودمه حياة أبدية: «مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أُقيمه في اليوم الأخير» (يو ٦: ٥٤).

وحينما نستودع جسدنا هذا للتراب وننطلق إلى السماء بقوة هذه الحياة التي أخذناها في سر الجسد والدم، حينئذ سندرك في الحال قيمة الأكل من الجسد الإلهي وقيمة الشرب من الدم الإلهي! وندرك معنى "الفصح الحقيقي" أي العبور الفائق من الموت إلى الحياة، ونتحقق من النصرة الرائعة العجيبة فوق الخطية والهاوية والشيطان التي صارت فينا كقوة غالبة منبعثة من ذبيحة المسيح الكفّارية.

العلاقة بين الراعي الصالح والحَمَل المذبوح:

المسيح يجمع بين وظيفتي الراعي الصالح والحَمَل المذبوح. فهو كراعٍ صالح لم يترك رعايته وحمايته لحقوق الشعب المسكين الذي استغله الكهنة والفريسيون وأضلوه، فتصدَّى هو لهم ولكل الرعاة الكذبة وقاومهم وفضح غشهم وسرقتهم، فلما أضمروا قتله وترصَّدوا له كذئاب لم يخشَ بأسهم بل سلَّم نفسه بإرادته كحَمَل وديع ليكون ضحية أو فدية عن الشعب كله بل وعن العالم أيضاً.

هنا تتداخل وظيفة الراعي الصالح مع الحَمَل الوديع تداخلاً سرِّياً غاية في العمق والإبداع!

ولو تأملنا في وظيفة راعي الغنم العادي نجد أنه ليس من واجبات وظيفته أن يعرِّض نفسه للخطر بسبب خروف أو نعجة أو عدة خراف أو حتى القطيع، فهو عليه أن يحارب الذئب ولكن ليس من المفروض عليه أن يُهلك نفسه من أجل قطيعه، فنفسه أثمن من الخراف، كقول المسيح نفسه: «فالإنسان كم هو أفضل من الخروف» (مت ١٢: ١٢). لذلك يكشف المسيح هنا عن الفدية العظمى الفائقة عن الحدود البشرية عندما يقدِّم نفسه كراعٍ جاء ليبذل نفسه عن الخراف ولكن بالإضافة إلى

المفهوم الفائق عن هذا البذل. فالمسيح يعلِّم أنه «يضع نفسه» ولكنه لا يُهلكها. أي أن موته بالرغم مما سيكون فيه من آلام وعذاب وتضحية فائقة، إلا أن هذا الموت ليس على مستوى موت إنسان، فهو سيؤول حتماً إلى قيامة مؤكدة. لذلك قدَّم نفسه بإرادته وعن سرور، ليموت، لأنه عالم أنه إنما يموت فدية عن آخرين، لذلك مات بإرادته «لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضاً ... لهذا يحبني الآب لأني أضع نفسي **لآخذها** أيضاً، ليس أحد يأخذها مني بل **أضعها أنا من ذاتي**» (يو ١٠: ١٧، ١٨)، «أنا أضع نفسي عن الخراف» (يو ١٠: ١٥).

كذلك فالمسيح كمعلِّم وراعٍ ليس هو على مستوى الرعاة العاديين المنوط بكل منهم قطيع واحد لا يتعدَّاه، بل تجاوزت رسالته كل ما عُرف عن كل الرعاة، فهو وإن كان لم يُرسَل أولاً إلا «إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (مت ١٠: ٦)، ولكن بموته وقيامته صار هو الفصح العظيم والكفَّارة الأبدية وراعي الخراف الأعظم لا عن خراف بيت إسرائيل الضالة فحسب بل وعن العالم كله، لأنه لم يكن ابن داود فحسب بل **ابن الإنسان!** «وإله السلام الذي أقام من الأموات راعي الخراف العظيم ربنا يسوع بدم العهد الأبدي» (عب ١٣: ٢٠). وهكذا صحَّ فيه قول يوحنا المعمدان: «هوذا حَمَل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو ١: ٢٩)، فهو لم يكن فقط حَمَل إسرائيل حسب الجسد، بل وحَمَل الله بحسب لاهوته. لذلك لما ذُبِحَ المسيح، عيَّد العالم كله للفصح الجديد ولا يزال يعيِّد وإلى الأبد: «لأن فِصْحَنا أيضاً المسيح قد ذُبِحَ لأجلنا، إذاً لنعيِّد ...» (١كو ٥: ٧ و٨)

فإن كان الله قد اختار إسرائيل بمقتضى ذبح الفصح الأول في مصر ليكون قطيعه الذي رعاه في ظل العهد الأول بدم خراف وتيوس حتى

أدخله كنعان أرض الميعاد، فقد استطاع الله بواسطة ذبيحة ابنه يسوع المسيح الكفَّارية، الفصح الجديد الأعظم الذي للإنسان عامة، أن يُدخل في حظيرته مزيداً من خراف أُخر من العالم في ظل عهد جديد بدم المسيح الذي بروح أزلي يرعاهم معاً، كراعٍ صالح وحيد وكرئيس رعاة أمناء مُرسَلين مثله «كغنم في وسط ذئاب» (مت ١٠: ١٦)، حتى يُدخلهم الحياة الأبدية كنعان السماوية.

+ «ولي خراف أُخر (في العالم) ليست من هذه الحظيرة (إسرائيل)، ينبغي أن آتي بتلك أيضاً فتسمع صوتي وتكون رعية واحدة وراعٍ واحد» (يو ١٠: ١٦).

هنا المسيح يعمل لحساب الملكوت والحياة الأبدية كحَمَل وراعٍ معاً، يقدِّس بدمه لنفسه شعباً في كل العالم: «عالمين أنكم افتُديتم لا بأشياء تفنى بفضة أو ذهب من سيرتكم الباطلة التي تقلَّدتموها من الآباء، بل بدم كريم كما من حمل بلا عيب ولا دنس دم المسيح» (١بط ١: ١٨ و١٩)، ويشتريهم من تحت عبودية العالم ليجعلهم وارثين معه في ملكوت أبيه: «وهم يترنَّمون ترنيمة جديدة قائلين: مستحق أنت أن تأخذ السفر وتفتح ختومه لأنك ذُبحت واشتريتنا لله بدمك من كل قبيلة ولسان وشعب وأُمة» (رؤ ٥: ٩).

هنا يسمو المسيح جداً بمفهوم الرعاية وبمفهوم الذبيحة والكفَّارة، فالرعاية كما عاشها المسيح هي إرساليته الحقيقية من الله يترصَّدها الموت حتماً «ها أنا أرسلكم كغنم في وسط ذئاب» (مت ١٠: ١٦). ولكن الموت الذي يجتازه الراعي الصالح ليس موتاً بل هو حياة الله وخصب ونمو واتحاد للرعية. لذلك أصبحنا نفهم الآن أن الراعي الصالح لكي يكون صالحاً حقاً ينبغي أن يعيش باحتساب أنه حملٌ معدٌّ للذبح؛ فإن هو ذُبح فقد أصبح راعياً أجدر بخراف أكثر.

وهكذا يجمع المسيح بصورة فائقة كنموذج عميق لوظيفة الراعي الصالح والحَمَل المذبوح!!

+ «مستحق هو الخروف المذبوح أن يأخذ القدرة والغِنَى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة. وكل خليقة مما في السماء وعلى الأرض سمعتها قائلة للجالس على العرش وللخروف: البركة والكرامة والمجد والسلطان إلى أبد الآبدين» (رؤ ٥: ١٢، ١٣).

أنا هو باب الخراف:

كان ضمن أبواب أورشليم (ولا يزال حتى الآن بأسوار القدس القديمة) باب اسمه «باب الضأن» (يو ٥: ٢) أو «باب الخراف». وكان مُعدًّا لدخول قطعان الغنم الخاصة بذبائح الهيكل لتبيت هناك أو تستريح في أمان وخصوصاً في مواسم الثلوج والأمطار. وكان لهذا الباب بوَّاب مخصَّص يفتح للرعاة المعروفين لديه فقط، وكان الرعاة يدخلون بقطعانهم المتعددة داخل حظيرة واحدة ضخمة كانت تسمَّى بسوق الخراف، وفي الصباح كان كل راعٍ ينادي على خرافه بصوته الخاص فتسمعه وتعرفه وتخرج وراءه لتجد مرعى:

+ «الحقَّ الحقَّ أقول لكم: إن الذي لا يدخل من الباب إلى حظيرة الخراف بل يطلع من موضع آخر فذاك سارق ولص، وأما الذي يدخل من الباب فهو راعي الخراف، لهذا يفتح البوَّاب والخراف تسمع صوته فيدعو خرافه الخاصة بأسماء ويُخرجها، ومتى أَخْرَجَ خرافه الخاصة يذهب أمامها والخراف تتبعه لأنها تعرف صوته، وأما الغريب فلا تتبعه بل تهرب منه لأنها لا تعرف صوت الغرباء. هذا المَثَل قاله لهم يسوع، وأما هم فلم يفهموا ما هو الذي كان يكلِّمهم به. فقال لهم يسوع أيضاً: الحقَّ الحقَّ أقول لكم إني أنا

باب الخراف، جميع الذين أتوا قبلي هم سُرَّاقٌ ولصوص، ولكن الخراف لم تسمع لهم. أنا هو الباب، إن دخل بي أحد فيخلُصُ ويدخل ويخرج ويجد مرعىً» (يو ١٠: ١-٩).

هنا يريد المسيح أن يكشف عن سر جديد من أسرار علاقته الجوهرية بخرافه الناطقة، فهو بابها السمائي الوحيد الذي إذا دخلت منه لا يعود يرعاها في مراعٍ ليست له، ولا يجمعها في حظائر خارجة عن نفسه – مثل الرعاة الكذَبة اللصوص – بل يرعاها في مُرُوج إنجيله وعلى جبال محبته السماوية، يخبئها في قلبه ويسترها بنعمته.

+ «الرب راعيَّ فلا يعوزني شيء. في مراعٍ خُضْرٍ يُربضُني. إلى ماء الراحة يوردني. يردُّ نفسي. يهديني إلى سُبُل البرِّ... إذا سرتُ في وادي ظلِّ الموت لا أخاف شراً لأنك أنت معي...» (مز ٢٣: ١-٤)

وكأنما من خلال وظائف المسيح الخلاصية "الراعيٍ، والحملٍ، وباب الخراف"، يريد الكتاب أن ينبهنا أننا قد صرنا فيه قطيعاً مختاراً (لأنه الراعي) وذبيحة مقدَّسة (لأنه الحَمَل)، وقد عَبَرْنا فيه (لأنه الفصح)، وبواسطته (لأنه الباب) إلى نصيبنا الأبدي.

هنا لقب المسيح الذي اختاره لنفسه «أنا هو الباب»، يكمِّل تصوير العلاقة الجديدة التي أكملها المسيح بين إسرائيل والله:

فلقب "**الراعي**" يحدِّد علاقة المسيح بالخروف من حيث التعليم.

ولقب "**الباب**" يحدِّد علاقة المسيح بحظيرة الخراف كأرض الميعاد أي من حيث الوطن.

فإن كان المسيح وحده هو الراعي الصالح لأنه الوحيد الذي يعرف كيف وإلى أين يقود الغنم، فالمسيح أيضاً هو وحده الباب الحقيقي الذي

يؤدِّي إلى السماء كنعان العليا، ملكوت الآب «الذي لا يدخل من الباب (باسم الآب) إلى حظيرة الخراف (شعب إسرائيل قديماً وملكوت الله بالمعنى الجديد) بل يطلع من موضع آخر (تعاليم الكتبة والفريسيين والناموسيين أي تعاليم الناس) فذاك سارقٌ (يسرق مجد الله) ولصٌّ (يطلب مجد نفسه). وأما الذي يدخل من الباب (باسم الآب) فهو راعي الخراف، لهذا يفتح البواب (الآب السمائي) ... الحقَّ الحقَّ أقول لكم: إنِّي أنا باب الخراف، جميع الذين أتوا قبلي هم سُرَّاق ولصوص (كل المعلِّمين الذين تمسَّكوا بمجد إسرائيل الأرضي لإشباع أنانيتهم وتجاهلوا المسيَّا كابن الآب كباب وحيد للخلاص العام)، ولكن الخراف لم تسمع لهم. أنا هو الباب. إن دخل بي أحد فيخلُص ويدخل (الحياة) ويخرج (حيًّا) ويجد مرعىً (الحق) ...» (يو ١٠: ١-٣، ٧-٩)

في نسخة الإنجيل التي باللغة القبطية الصعيدية، استطاع المترجم القبطي أن يستشف من التركيب اللفظي اليوناني صلة أرادها القديس يوحنا الرسول أن تكون بين الراعي الصالح وبين باب الخراف، فكتب النص هكذا: «أنا راعي الخراف **لأني** أنا باب الخراف». هنا تتضح الصلة الوثيقة بين المسيح كمعطي الحياة الأبدية (الراعي)، وبين المسيح بصفته هو هو الحياة الأبدية نفسها (الباب). فالمسيح لأنه هو الحياة الأبدية «أنا هو القيامة والحياة» (يو ١١: ٢٥)، أصبح هو الوحيد الذي يستطيع أن يقود النفس البشرية إلى الحياة الأبدية.

أما سر تلقيب المسيح نفسه بالباب فهو لقب أصيل للمسيَّا، فالمعروف أن الله استأمن رؤساء إسرائيل على الناموس كباب لخلاص خراف إسرائيل تمهيداً لخلاص بقية شعوب الأرض، وأعطاهم مفاتيح المعرفة ليفتحوا مغاليق الناموس والوصايا والأسرار الإلهية للرعية ويُدخلوها إلى مراعي الحق الإلهي ويرووها من ماء الحياة، ولكن للأسف أهمل الكتبة

والفريسيون والناموسيون المعرفة الصحيحة واحتجزوها عن الشعب وبالأخص بعد مجيء المسيح ومقاومتهم العلنية لتعاليمه فأخفوا عن الرعية الحق كما يخفي الإنسان الباب المؤدي إلى النجاة فلا يخلُص هو ولا يجعل أحداً يستطيع أن يخلُص: «ويلٌ لكم أيها الناموسيون لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة ما دخلتم أنتم والداخلون منعتموهم» (لو ١١: ٥٢)، حيث مفتاح المعرفة هنا هو سر المسيَّا المعلَن لهم في الناموس والأنبياء «هذا الباب للرب والصدِّيقون يدخلون فيه» (مز ١١٨: ٢٠).

وفي موضع آخر يخاطب المسيح الكتبة والفريسيين ويتهمهم أنهم أغلقوا بالفعل باب ملكوت السموات في وجه الناس أي منعوا عنهم معرفة الحق، أي حجزوا عنهم سر الآب المذخر في المسيح، وذلك بمصادرتهم لأقوال المسيح وتشكيك الرعية في شخصه المبارك «ويلٌ لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم **تغلقون ملكوت السموات قدَّام الناس**، فلا تدخلون أنتم ولا تَدَعون الداخلين يدخلون» (مت ٢٣: ١٣).

فإذا وضعنا هذه الحقيقة أمام أعيننا، فهمنا في الحال معنى قول المسيح: «أنا باب الخراف» (يو ١٠: ٧)، ومعنى قوله: «جميع الذين أتوا قبلي هم سُرَّاق ولصوص» (يو ١٠: ٨). فهو باب الملكوت السمائي الوحيد وبدونه يستحيل أن يكون دخول أو خروج أو خلاص!!

+ «هذا هو الحجر الذي احتقرتموه أيها البنَّاؤون الذي صار رأساً للزاوية وليس بأحد غيره الخلاص. لأن ليس اسم آخر تحت السماء قد أُعطي بين الناس به ينبغي أن نخلُص» (أع ٤: ١١، ١٢).

والمُلاحَظ أن المزمور الذي اقتبس منه القديس بطرس الرسول هذه النبوة عن المسيح هو نفس المزمور الذي فيه «هذا هو باب الرب».

فإذا رجعنا إلى نبوَّة إشعياء تيقنَّا أن المسيح هو بالحق هذا الباب الحي

الذي لإسرائيل الجديدة، كنيسة الله وملكوته، والذي بيده وحده سلطان الدخول والخروج:

+ «وأجعل مفتاح بيت داود على كتفه فيفتح وليس مَنْ يُغلق، ويُغلق وليس مَنْ يفتح» (إش ٢٢: ٢٢).

فإذا قارنَّا هذه النبوَّة برؤيا يوحنا، ازددنا يقيناً:

+ «أنا هو الأول والآخر، والحي وكنت ميتاً، وها أنا حي إلى أبد الآبدين. آمين. ولي مفاتيح الهاوية والموت» (رؤ ١: ١٧، ١٨).

لقد انتزع المسيح من الكتبة والفريسيين والناموسيين هذه المفاتيح التي تخص سر الله وملكوته وأعطاها لتلاميذه الذين استأمنهم على الحق، أي على نفسه، فأحبوه ودخلوا معه وفتحوا باب الملكوت أمام الداخلين من أقصى الأرض إلى أقصاها:

+ «وأُعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات وكل ما تحلُّه على الأرض يكون محلولاً في السموات» (مت ١٦: ١٩).

وذلك فيما يخص المعرفة، فقد استطاعت الكنيسة بقوة الروح القدس وبحضور المسيح فيها أن تكون هي حارسة الحق تربط وتغلق على كل التعاليم الفاسدة وعلى أصحابها وتحل وتفتح كل التعاليم الحقة في شخص يسوع، التي تؤدِّي إلى الحياة الأبدية.

العلاقة بين الحمَل المذبوح والباب:

ومن المرادفات الجميلة الضاربة في أعماق الأسرار الإلهية، العلاقة بين الحَمَل المذبوح والباب بالنسبة للمسيح مع ما يقابلها من فرائض الفصح المشهورة التي التزم بها الشعب في مصر، وهي غمس الزُوفا (وهي عصا في طرفها حزمة من الأعشاب الخضراء) في **دم الخروف** المذبوح

ويُمسَح بها الباب حيث يكون هذا ضماناً أن لا يهلك أصحاب هـذا البيت (خر ١٢: ٢٢ -٢٤).

أما فيما يخص المسيح، فلما ذبحوه على الصليب قدَّموا له نفس الزوفا ممزوجة بخلٍ ومرارة (يو ١٩: ٢٩)، إشارة إلى أن الباب الحقيقي قَبـِلَ الآلام وتلطّخ بالدم حتى لا يهلك كل مَنْ يدخل فيه!



الفصل السابع

لقب "الطريق"

"الطريق" أو "طريق الرب" كلمة استُخدمت بكثرة في العهد القديم للتعبير عن مشورة الله وفكره تجاه الإنسان مع كافة وصاياه وأوامره، وبنظرة واحدة عبَّر المزمور ١١٩ الذي هو عبارة عن مديح مطوَّل "للتوراة" أي تعاليم ووصايا الله التي سلَّمها الله لموسى وبقية الأنبياء، نجد أن كلمة «طريق الرب» مرادف متسع لكلمات كثيرة مثل: ناموس، شهادة، وصية، أحكام، أوامر، أقوال. وإن مطلع المزمور نفسه يوضِّح هذه العلاقة «طوبى للذين بلا عيب (الكاملين) **في الطريق**: السالكون في **ناموس** الرب»، ثم يعود ويقلب كل كلمة موضع الأخرى: «طوبى للذين يحفظون **شهاداته** ... **وفي طريقه** يسلكون»، ثم يعود يجمعهما معاً: «**في طريق وصاياك** أسلك لأنك وسَّعت قلبي»، «علِّمني يا رب **طريق فرائضك**»، «درِّبني **في طريق وصاياك**»، ثم يعود ويرفع كلمة "الطريق" إلى مستوى الحق والحياة «اخترت لنفسي **طريق الحق**»، «وفي طريقك أحيني» (مز ١١٩).

أما علاقة كلمة "الطريق" بالمسيَّا فكانت جزءاً لا يتجزَّأ من النبوات التي تشير إليه، ولما بدأ الوحي في العهد الجديد يربط بين ظهور المسيَّا وبين نبوات العهد القديم برزت كلمة الطريق واضحة كل الوضوح للدلالة على مركز المسيَّا وصلته بالله كالطريق.

+ «بدء إنجيل يسوع المسيح ابن الله: كما هو مكتوب في الأنبياء ها أنا أُرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيِّئ **طريقك** قدَّامك، صوتُ صارخٍ (يوحنا) في البرية أعدُّوا **طريق الرب** ... ويبصر كل بشر خلاص الله» (مر ١: ١-٣؛ لو ٣: ٦).

فإذا ربطنا بين مفهوم كلمة "الطريق" و"طريق الرب" التي وردت في المزامير نجد أنها مرادفة للتوراة أي الناموس وبالأخص مزمور ١١٩ وبقية الأسفار مع مفهوم كلمة "الطريق" أو "طريق الرب" التي استهلّت بها الأناجيل تعريفها للمسيح ورسالته، ولأدركنا في الحال أن المقصود هو استعلان المسيح كمكمِّل للناموس وكافة الأنبياء.

أي أنه إذا كانت التوراة (الناموس) هي الطريق أو طريق الله الذي يعلن مشورة العلي وفكره ووصاياه تجاه الإنسان، فالمسيح هو هو التوراة "الناموس الجديد" والطريق عينه إنما "الطريق الحي الحديث"(١) الذي يحمل لنا استعلاناً ظاهراً وملموساً لمشورة العليِّ ومحبته وفكره ووصاياه لخلاص الإنسان.

كذلك إذا كان كل الأنبياء وصفوا وشرحوا وعلَّموا "الطريق" أو "طريق الرب" الذي يشهد لله، فالمسيح هو كمال النبوات كلها «لأن شهادة يسوع هي روح النبوَّة» (رؤ ١٩: ١٠)، فهو الطريق الحي الذي أعلن الله جهاراً بدون نبوَّة وبدون كلمة لأنه هو صورة الله غير المنظور وكلمته المتجسِّدة «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩).

وهناك شهادةٌ قوية في الإنجيل تشرح وتمثِّل هذه الحقيقة تمثيلاً حيًّا، فموسى الذي يمثِّل التوراة (الناموس) وإيليا الذي يمثِّل النبوات جاءا من

---

(١) «فإذ لنا أيها الإخوة ثقة بالدخول إلى الأقداس بدم يسوع طريقاً كرَّسه لنا حديثاً حياً بالحجاب أي جسده» (عب ١٠: ١٩، ٢٠).

العالم غير المنظور وظهرا معاً على الجبل مع الرب يسوع وهو مُتجلٌ وتحدَّثوا معه في حضرة الرسل الثلاثة بطرس ويعقوب ويوحنا، بخصوص خروجه العتيد أن يكمِّله خارج أورشليم أي الصليب. هذه الحادثة ظل يذكرها القديس بطرسٍ بتأثر شديد واهتمام بسبب الصوت الذي جاء من المجد الأسنى شاهداً لقوة الرب يسوع وصدق ظهوره وبنوَّته الفائقة لله الآب «لأننا لم نتبع خرافات مصنَّعة إذ عرَّفناكم بقوة ربنا يسوع المسيح ومجيئه، بل قد كنا معاينين عظمته. لأنه أخذ من الله الآب كرامة ومجدا إذ أَقْبَلَ عليه صوت كهذا من المجد الأسنى: هذا هو ابني الحبيب الذي أنا سُررتُ به، ونحن سمعنا هذا الصوت مُقْبِلاً من السماء إذ كنا معه في الجبل المقدَّس» (٢بط ١: ١٦-١٨).

أما بولس الرسول فيعلِّق أهمية عظمى على ظهور موسى وإيليا مع الرب في حادثة التجلِّي كختم شهادة وتسليم نهائي من الناموس والأنبياء للمسيح «وأما الآن فقد ظهر بر الله (المسيح) **بدون الناموس مشهوداً له من الناموس والأنبياء**، بر الله بالإيمان بيسوع المسيح إلى كل وعلى كل الذين يؤمنون» (رو ٣: ٢١، ٢٢)، حيث شهادة الناموس والأنبياء كانت بظهور موسى وإيليا.

وفجأة يواجهنا المسيح بهذه الحقيقة في اختصار ووضوح شامل «أنا هو الطريق» (يو ١٤: ٦)، وهكذا ترتفع كلمة "الطريق" من مستوى الناموس الحرفي والوصايا والتعاليم إلى مستوى الاستعلان الشخصي الحي، فالطريق هنا ليس معرفة تؤدي إلى الطريق ولا إرشاداً على الطريق ولا وصايا تؤمِّن الطريق، بل الطريق هنا هو هو المسيح نفسه بدون كلمة: «بدون ناموس».

ولكن ليس معنى هذا أننا في المسيح غير مطالَبين بوصايا وتعاليم وطاعة وتدقيق وسلوك، إنما هذا يعني أن الاتصال بالمسيح نفسه والتعرُّف عليه والاتحاد به يكون هو وحده مصدر المعرفة والطاعة والسلوك.

- فالناموس قديماً بوصاياه الكثيرة كان هو الطريق أما الآن فالمسيح نفسه (بدون الناموس) هو الطريق! ...

إذ أن في المسيح يُعلَن برُّ الله، بل والله نفسه، لكل مَنْ يؤمن!!

- الالتصاق بالناموس قديماً مع التدقيق في تنفيذ فرائضه فرضاً بعد فرض كان يضمن إلى حد ما السير في الطريق، أما الآن فالالتصاق بالمسيح (الطريق) هو الضمان الوحيد والأكيد للعبور إلى الآب حيث الاتحاد بالمسيح يلهمنا كل حاجة المسيح ويضمن لنا الاستمرار حتى الوصول.

- البرهان الوحيد الذي كان يشهد بصدق السير في الطريق قديماً كان مجرَّد تكميل الفرائض في مواعيدها بتدقيق، أما الآن فالبرهان الوحيد الذي يشهد بالنجاح في عبور الطريق (المسيحية) هو ثمار الروح القدس «من ثمارهم تعرفونهم» (مت ٧: ١٦)، فالذي يلتصق بالمسيح (الطريق) يثمر حتماً ثمار المسيح (الطريق): «برٌّ وسلامٌ وفرحٌ في الروح القدس» (رو ١٤: ١٧).

القديس يوحنا الرسول يركِّز بشدة على اعتبار المسيح بحد ذاته هو قانون الخلاص، هو ناموس الحياة، بل هو الحياة الأبدية نفسها، وهو الطريق المباشر للآب «هذه هي **الشهادة** أن الله أعطانا حياة أبدية **وهذه الحياة هي في ابنه. مَنْ له الابن فله الحياة ومَنْ ليس له ابن الله فليست له الحياة**» (١يو ٥: ١١، ١٢)؛ «بهذا تعرفون روح الله، كل روح يعترف

يسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله، وكلُّ روح لا يعترف يسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فليس من الله» (١يو ٤: ٢، ٣).

ولكن لئلا يظن أحد أن المجاهرة بالمسيح (الطريق) يمكن أن تكون بدون السلوك أو الثبوت في المسيح (الطريق) وتعاليمه عاد يوحنا الرسول مشدِّداً «كل مَنْ تعدَّى و لم يثبت في تعليم المسيح فليس له الله، ومَنْ يثبت في تعليم المسيح فهذا له الآب والابن جميعاً» (٢يو ٩).

هذا يوضِّح قول المسيح عن نفسه: «أنا هو الطريق ... ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي» (يو ١٤: ٦). وهذا هو مجمل الإنجيل كله وكل تعليم وكل رسالة في العهد الجديد.

فالمسيح بصفته الابن الوحيد والمحبوب لله الآب وبصفته أنه الوحيد الذي قدَّم نفسه ذبيحة طاهرة عن حياة العالم كله، أصبح هو الطريق الوحيد الذي بدونه يستحيل رؤية الآب أو العبور إليه «الله لم يَرَه أحد قط. الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر» (يو ١: ١٨).

+ «فإذ لنا أيها الإخوة **ثقة بالدخول** إلى الأقداس بدم يسوع **طريقاً كرَّسه لنا حديثاً حيًّا بالحجاب أي جسده ... لنتقدَّم بقلب صادق في يقين الإيمان**» (عب ١٠: ١٩-٢٢).



الفصل الثامن

لقب "الحق"

إن كان المسيح هو الطريق المؤدِّي إلى الحياة الأبدية فلأنه هو الحق!!

كان الناموس **صورةً للطريق**، أي شبهَ السماويات وظلّها. فكان كل مَنْ يعمل بالناموس ويحفظه أو يسير عليه **يحيا طويلاً بمعنى «تطول أيامه على الأرض»**. أما المسيح فهو بحد ذاته الطريق الذي يدخل إلى السموات نفسها إلى أقداس الله العليا، فهو الطريق الحق، أو هو الطريق والحق معاً وكلُّ مَنْ يعرف المسيح ويؤمن به إيماناً حقّاً، جسداً ودماً، فإنه يحيا إلى الأبد لأن المسيح بحد ذاته هو الحياة الأبدية. لذلك يجوز لنا أن نقول إنه هو الطريق الحقيقي الحي، إذا أردنا أن نقارن بينه وبين ناموس العهد القديم الذي كان مجرَّد طريق للحياة في شِبه السماويات وظل الأمور العتيدة!

ويُلاحَظ هذا جيداً في إفتتاحية إنجيل يوحنا حينما يقارن بين "ناموس" موسى و"الحق": «لأن **الناموس بموسى** أُعطي أما النعمة **والحق** فبيسوع المسيح صارا» (يو ١: ١٧).

ولكي ينكشف لنا أكثر ما يقصده المسيح من وراء كلمة «أنا هو الحق» (يو ١٤: ٦) نعود للمقارنة بين آيتين تقومان أساساً على صفة الحق المطلق: آية في العهد القديم تصف يهوه الله العظيم الأبدي، والأخرى في العهد الجديد تصف لنا المسيح ابن الله، ففي الآية الأولى

تقول التوراة في سفر الخروج حسب الترجمة السبعينية: «يهوه إله رحيم ورؤوف بطيء الغضب **مملوء رحمة وحقًّا**»؛ وفي الآية الثانية يقول يوحنا الرسول عن المسيح ابن الله في مطلع إنجيله: «ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب **مملوءًا نعمة وحقًّا**» (يو ١: ١٤).

وفي الواقع لو انتبهنا للترجمة الصحيحة نجد أن يوحنا الرسول قد استخدم بالفعل في وصف المسيح نفس الآية القديمة بألفاظها الخاصة بأوصاف يهوه الإله العظيم لأن كلمة "رحمة" (ἔλεος إليئوس) التي استخدمتها الترجمة السبعينية تُرجمت في العهد الجديد بمرادف آخر (χάρις خاريس) أي "نعمة".

وهكذا نجد أن قول المسيح عن نفسه إنه هو "الحق" ثم تأكيد الإنجيل بالوحي أنه مملوء "نعمة" و"حقاً"، فهذه شهادة عظمى ذات اعتبار إيماني كبير تُلزمنا روحيًّا لكي نؤمن ونصدِّق أن المسيح هو ابن الله بالحقيقة، إله حقٌّ مساوٍ للآب في كل شيء «أنا والآب واحد» (يو ١٠: ٣٠).

ولعل هذا يكشف لنا عن خطورة رفض المسيح، فالذي يرفض المسيح هو بمثابة مَنْ يرفض "الحق". وهذا الاعتبار هام وخطير وقد نبَّه إليه يوحنا الرسول بإلحاح في قوله: «إن كنا نقبل شهادة الناس فشهادة الله أعظم لأن هذه هي شهادة الله التي قد شهد بها عن ابنه» (١يو ٥: ٩). ويوحنا الرسول أيضاً يقول في موضع آخر على لسان يوحنا المعمدان: «الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع... وما رآه وسمعه به يشهد وشهادته ليس أحد يقبلها. ومَنْ قَبِلَ شهادته فقد خَتَمَ أن الله صادقٌ» (يو ٣: ٣١-٣٣).

وفي ختام رسالته يعود يوحنا الرسول ويمهِّد لدخول النور في قلوبنا

لكي بالحق نقبل الحق في ثقة وإيمان ورجاء عظيم «ونعلم أن ابن الله قد جاء **وأعطانا بصيرة لنعرف الحق**. ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية» (١يو ٥: ٢٠).

فشُكراً لله الذي أرسل إلينا ابنه ليعطينا بصيرة أن نعرف الحق!

ولكن يا لها من مسئولية عُظمَى أن نُعطَى بصيرة لنعرف الحق!

لأن هذا يجعلنا مسئولين عن معرفة المسيح بل عن معرفة كل ما للمسيح أي كلّ الحق!!

"الحق" هنا هو جوهر المعرفة الكاملة أو موضوع المعرفة الفائقة وغايتها العظمى «تعرفون الحق والحق يحرِّركم» (يو ٨: ٣٢)، فإذا قرأنا قول المسيح أيضاً: «إن حرَّركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً» (يو ٨: ٣٦) تأكدنا من إصرار المسيح على اعتبار نفسه الحق الوحيد القادر أن يحرِّر كل إنسان يتعرَّف عليه.

و"الحق" (أليثيا ἀλήθεια) في العهد الجديد تعبير واقعي حي يتردد بكثرة وبقوة كمقارنة دائمة لرموز وأسماء وصفات العهد القديم التي كانت تشبيهات وصوراً وظلالاً للحق سواء كانت طقوساً أو نواميسَ أو وصايا. والكلمة "أليثيا" تتابع المسيح دائماً في كل أوصافه فهو «النور الحقيقي» و«الخبز الحقيقي» و«الكرمة الحقيقية» و«بالحقيقة أنت ابن الله» و«قام بالحقيقة» و«بالحقيقة المسيح مخلِّص العالم» و«هذا هو بالحقيقة النبي» و«أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد للحق» (يو ١: ٩، ٦: ٣٢، ١٥: ١؛ مت ١٤: ٣٣؛ لو ٢٤: ٣٤؛ يو ٤: ٤٢، ٦: ١٤، ٥: ٣٣). وفي هذه المواضع كلها فإن كلمة "أليثيا" أي الحق أو الحقيقة تفيد معنى العمل الكامل أو الحالة الثابتة ثبوتاً قاطعاً لا يمكن الشك فيه بسبب استعلانها استعلاناً كليًّا بالرؤيا المنظورة والرؤية الروحية معاً، كما

تفيد أيضاً معنى الكيان الواقعي والدائم أو الذات الدائمة ديمومة مطلقة، والكلمة أيضاً تحمل معنى الإحساس بالحق وإدراكه معاً في آنٍ واحد.

وفي هذا كله تحاول الكلمة "أليثيا" في كافة المواضع التي جاءت فيها في العهد الجديد أن ترفع عقلنا وإيماننا وإحساسنا إلى الطبيعة الإلهية المستترة وراء الظواهر أو الأوصاف التي لازمت المسيح وأعماله وصفاته الشخصية.

أما من حيث "معرفة الحق" فهو أمر غير متعلِّق بالتعليم أو التدريب أو سماع الكلمات، لأن الحق ليس موضوعاً وإنما ذات، ذات الله التي لا يمكن معرفتها معرفة حقيقية إلا بالاقتراب الشخصي منها والـــدخول في مجالها وفعاليتها، وقد كان هذا أمراً مستحيلاً لولا تجسُّد المسيح ابـــن الله أي دخوله هو إلينا في مجالنا البشري، أي أن الحق تنازل ودخـــل إلينـــا واتحد بنا فرأينا الحق وسمعناه ولمسناه وأحببناه بل وعشنا معه وفيه واتحدنا به كما اتحد هو بنا!!

وبذلك يصبح الإيمان الحقيقي بالمسيح مرتبطاً بحياة الشركة معه كـــأمر جوهري في عبادتنا لأن المسيح سيكون لنا بمثابة النبع الدائم الذي نستمد منه العبادة **الحقة**، أي العبادة المتصلة بالله وليست العبادة الشكلية "الناموسية"، «الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا» (يو ٤: ٢٤). ومعروف جيداً من قول المسيح أن الله لا يقبل أي عبادة أخـــرى إلاَّ مثل هذه العبادة «... الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق. لأن الآب طالبٌ مثل هؤلاء الساجدين له» (يو ٤: ٢٣).

وهكذا يصبح المسيح باعتباره "الحق" في مضمونه الإلهي الكامـــل والمطلق، ليس فقط حاجة ملحَّة للإنسان لكي ينتقل من الصورة «نعمل الإنسان على **صورتنا**» (تك ١: ٢٦)، إلى الأصل «ليكـــون الجميـــع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحـــدا

فينا» (يو ١٧: ٢١). بل ويصبح المسيح أيضاً ضرورة وشرطاً أساسياً لتصبح عبادتنا مقبولة أمام الله الآب، لأن إيماننا واتحادنا بالمسيح يكونان هما عنصر الحق الوحيد في عبادتنا أي عنصر الاتصال بالله.

الفصل التاسع

لقب "الحياة"

أنا هو الطريق والحق والحياة

الغاية التي من أجلها جاء المسيح «جئت لتكون لهم حياة»! والنهاية التي من أجلها يعيش كُل إنسان ويؤمن «وأما هذه فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم، **إذا آمنتم، حياة باسمه**» (يو ٢٠: ٣١).

فما هي الحياة التي يمنحها المسيح؟

لقد جاءت كلمة "الحياة" مرَّات عديدة ومعها كلمة "الأبدية" «الحياة الأبدية» للتفريق بينها وبين الحياة الزمانية الأرضية أي التي هي بحسب ناموس الأكلِ والشرب والنمو الجسدي. ولكن نلاحظ أن الإنجيل لا يهتم كثيراً بتعريف كلمة "الحياة" فيذكرها بدون تَعريف أحياناً كثيرة باعتبار أنها تفيد الحياة الحقيقية، أما الحياة الزمانية فهي في اعتبار الإنجيل أو على ضوء الحياة مع المسيح فهي تُعتبر مدخلاً حيًّا أو فرصة زمانية يعيشها الإنسان ليربح منها الحياة (الأبدية) الحقيقية، أي حياة ما بعد القيامة من الموت، أي الحياة الممتدة مع الله تحت تدبيره الكلي خُلْواً من سلطان المادة.

وفي العهد القديم خصوصاً في الأسفار الأُولى لم تكن تُعرف «الحياة الأبدية» بمعناها الجوهري على أنها حياة عدم الموت أو ديمومة الحياة مع

الله، فكلمة "الحياة" في العهد القديم كانت تفيد في معناها الإيجابي صحة الجسد وطول العمر وحُسن الظروف، ما عدا سفر واحد هو سفر دانيال النبي فهو من دون جميع الأسفار ذكر كلمة "الحياة الأبدية"، علماً بأن سفر دانيال هو أيضاً السفر الوحيد الذي كشف فيه الوحي عن مضمون الحياة الأبدية بمفهوم القيامة ومتابعة الحياة بلا حدود بعد الموت: «وفي ذلك الوقت يقوم ميخائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك ويكون زمان ضيق لم يكن منذ كانت أُمة إلى ذلك الوقت وفي ذلك الوقت يُنَجَّى شعبك، كلُّ مَنْ يوجد مكتوباً في السِّفر، وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي» (دا ١٢: ١، ٢).

ومن هنا جاء التفريق بين الحياتين: «حياة هذا الدهر» و«حياة الدهر الآتي»، وأن الأُولى ستنحل ليحل محلها الثانية، بمعنى أن حياة هذا الدهر تفيد الحياة منذ بدء الخليقة إلى اللحظة التي فيها تنتهي هيئة هذا العالم وتزول، أو بالنسبة للفرد تكون حياته من ولادته حتى موته ودفنه في القبر وإلى حين القيامة حيث تبدأ الحياة الأخرى.

غير أن انحلال عناصر الخليقة المادية لا يُعطي من ذاته الفرصة لظهور سماء جديدة (حقيقية) وأرض جديدة (حقيقية) وانكشاف **الحياة** الجديدة (الحقيقية) التي بلا بداية ولا نهاية. ولكن يتحتم ظهور الله وسيادته المطلقة على الموت لكي يتم أولاً انحلال القديم، ثم يتم به استعلان الحياة الجديدة:

+ «ولكن لا يَخْفَ عليكم هذا الشيء الواحد، أيها الأحباء، أن يوماً واحداً عند الرب كألف سنة وألف سنة كيوم واحد، لا يتباطأ الرب عن وعده كما يحسب قوم التباطؤ لكنه يتأنَّى علينا وهو لا يشاء أن يهلك أُناس بل أن يُقْبِلَ الجميع إلى التوبة. ولكن سيأتي كلصٍّ في الليل يومُ الرب الذي فيه تزول السموات بضجيج،

وتنحلُّ العناصر محترقة، وتحترق الأرض والمصنوعات التي فيها. فبما أن هذه كلها تنحلُّ، أيَّ أُناس يجب أن تكونوا أنتم في سيرة مقدَّسة وتقوى، منتظرين وطالبين سرعة مجيء يوم الرب الذي به تنحلُّ السموات ملتهبة والعناصر محترقة تذوب. ولكننا بحسب وعده ننتظر سموات جديدة وأرضاً جديدة يسكن فيها البر» (٢بط ٣: ٨-١٣).

ومن هنا يتضح أن الفرق بين حياة «هذا الدهر» وحياة «الدهر الآتي» لا ينحصر في الحدود الزمانية فقط بل وفي نوعية الحياة ذاتها. فحياة هذا الدهر توصف بأنها حياة العالم أو حياة عدم البرِّ وحياة الفساد، أما حياة الدهر الآتي فتوصف بأنها الحياة مع الله وحياة البر وعدم الفساد. حيث كلمة "البر" تفيد في المعنى الروحي العلاقات الطيبة بين الإنسان والله وبين الإنسان والإنسان. أما كلمة "الفساد" فتفيد الانحلال تحت سلطان الخطية والموت، وكلمة «عدم الفساد» تفيد الحياة تحت سلطان الله بلا ألم أو تغيير أو موت.

ولكن هذا التفريق بين الجانبين لا يأتي بنا إلى شيء جديد في المسيح، فهذا المفهوم استُعلن قديماً منذ أيام دانيال كما سبق وقلنا، وكذلك أيضاً تعريف «الحياة الأبدية» بأنها حياة ما بعد القبر أو ما بعد القيامة. فهذا أيضاً كان معروفاً كما يوضِّحه سفر دانيال.

فما هي الحياة الأبدية إذن في مفهوم العهد الجديد أو على ضوء تجسُّد ابن الله ودخوله إلى العالم؟

لقد أوضح المسيح ذلك في أحد مواقفه المحيية عندما كشف عن إمكانياته بخصوص إقامة الميت وإعطائه الحياة، وذلك أمام قبر لعازر. وذلك عندما كان يتخاطب مع مرثا:

+ «قال لها يسوع: سيقوم أخوكِ، قالت له مرثا: أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة في اليوم الأخير، قالَ لها يسوع: **أنا هو القيامة والحياة مَنْ آمن بي ولو مات فسيحيا، وكل مَنْ كان حيًّا وآمن بي فلن يموت إلى الأبد،** أتؤمنين بهذا؟ قالت له: نعم يا سيد أنا **قد آمنتُ أنكَ أنتَ المسيح ابن الله الآتي إلى العالم»** (يو ١١: ٢٣-٢٧).

هنا يتضح أن مفهوم الحياة الأبدية ينقسم إلى قسمين:

١ - مفهوم قديم، كان سائداً قبل مجيءِ المسيح بخصوص قدرة المسيَّا، وهو الذي كانت تعرفه مرثا تماماً وتشمله الآية «مَنْ آمن بي ولو مات فسيحيا». أي أن الحياة الأبدية هي الحياة بعد الموت أو في القيامة في اليوم الأخير التي ستكون بقوة المسيَّا، أو على حد تعبير مرثا: «أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة في اليوم الأخير». قالت مرثا ذلك وكلها حزن وأسى لأنه أيَّ عزاء لها في قيامة لا تراها وفي حياة أبدية يحجبها الموت؟

٢ - أما المفهوم الجديد فهو أن الذي يؤمن بالمسيح يدخل هذه الحياة الأبدية الآن مباشرة بدون موت أو دفن، بحيث لا تتوقف هذه الحياة الأبدية بعد ذلك إطلاقاً لا بموت ولا بأي شيء آخر. هنا تبتدئ حقيقة المسيح العظمى باعتباره أنه هو حياة محيية في كل وقت دائمة وأبدية تظهر أمامنا فجأة. ويتأكد لنا ذلك حينما يقول هو عن نفسه: «أنا هو **القيامة** والحياة». أي أن الذي يؤمن بالمسيح لا يعود ينتظر القيامة في اليوم الأخير حتى يرى الحياة الأبدية، لأن المسيح ظهر أنه هو القيامة نفسها الآن وفي هذه الساعة، فنحن الآن لا يعطلنا موت عن قبول الحياة الأبدية، لأن المسيح الذي نؤمن به هو حياتنا كلنا.

كذلك لا يعطِّلنا الآن انتظار القيامة الآتية، لأن المسيح هو الآن «قيامتنا كلنا»[1] وهنا العزاء العظيم.

ولكن ما قيمة معجزة إقامة لعازر من الموت إن كان سيموت مرَّة أخرى؟ هل قصد بها المسيح يا ترى إظهار قدرته الإلهية على الإقامة من الموت الجسدي وحسب حينما أوضح بإقامته لعازر من الموت أنه «يُحيي مَنْ يشاء» التي هي الصفة الخاصة جداً بالله وحده؟ أم أنه أراد أن يستدرجنا إلى مفهوم أعظم؟

ولكي تتكشَّف لنا الحقيقة يلزمنا أن نعود إلى حوار سابق مع اليهود عندما شفى أحد مرضاهم عند بركة بيت حسدا، قال المسيح عن نفسه باعتباره ابن الله: «لا تتعجَّبوا من هذا فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته (أي صوت ابن الله)، فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة» (يو ٥: ٢٨ و٢٩)؛ ولكنهم حسب رواية الإنجيل لم يصدِّقوا كلامه. إذن فلم يبقَ أمام المسيح إلا أن يُقيم أمامهم ميتاً منتناً حتى يُصدِّقوا أو يَصْدُق هو في قوله على أقل تقدير، أو نُصدِّق نحن أن المسيح هو ابن الله الذي ينتظر الأموات صوته!! لذلك فإقامة لعازر من الموت لم تكن إلا استعلاناً لشخصية المسيح وصورة تطبيقية لما سيكون عليه المسيح في يوم القيامة كقاضٍ وديَّانٍ وقاهر الموت قهراً «آخر عدو يُبْطَلُ» (١كو ١٥: ٢٦).

إذن، فهي عملية تحضير لذهننا حتى ننتبه إلى حقيقة المسيح أنه غالب الموت وصاحب القيامة والحياة، أو بحد تعبيره هو «أنا هو القيامة والحياة» (يو ١١: ٢٥). فالذي أمر لعازر الميت قائلاً: "**قُم**" فقام حيًّا، مَنْ يكون يا تُرى إلا صاحب القيامة نفسها والحياة؟

(١) أوشية الإنجيل في القداس.

قيامة لعازر من الموت وحياته مرَّة ثانية لا قيمة لها في حد ذاتها، لأن لعازر مات حتماً بعد ذلك. القيمة كلها في الذي أمر فكان. هنا المسيح يعلن عن نفسه أنه قاهر الموت وصاحب الكلمة المحيية التي تُقيم الأموات، أو هو كلمة الحياة!!

الميت الأصم، بل الذي تهرَّأت أعضاؤه وانحل جسده وأنتن، سمع صوت ابن الله فدبَّت فيه الحياة وقام بجسد صحيح، يا لها من بشارة مفرحة. لقد انهزم الموت أمام كلمة الحياة وقام الميت بسلطان مَنْ له الدينونة والقضاء والقيامة وتجديد الحياة!!

+ «الحق الحق أقول لكم: إنه تأتي ساعة، وهي الآن، حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون» (يو ٥: ٢٥).

+ «أنا هو القيامة والحياة» (يو ١١: ٢٥).

ولكن المسيح لا يقف عند حد إقامة الميت من القبر عندما يسمع الميت صوته، ولكنه يرتفع بنا ليؤكد بصورة عميقة أن صوته إذا دخل قلب إنسان حي فلن يموت إلى الأبد، لأن صوته محيي، إنه فعْلُ حياة دائمة. وكيف يحمل الإنسان في قلبه كلمة الحياة ويموت؟ وإن كان الميت إذا سمع صوته يقوم من الأموات حالاً فماذا لو سمعه إنسان حي؟ أيموت وهو ممسك بالحياة؟ هنا إشارة مبدعة إلى أن الموت الجسدي الذي نموته ليس موتاً حقيقياً للإنسان بل هو عبورٌ من حياة لحياة.

هنا المسيح يرفعنا منذ الآن إلى حالة قيامة "حقيقية" وحياة "حقيقية" لا يؤثر فيها الموت الجسدي ولا يوقفها قبر ولا يقلِّل من قوتها اضمحلال الجسد وفناؤه، لأنها قيامة حقيقية بالروح والحق، قيامة إلهية في الله، كل مَنْ يدخلها يبقى حيًّا إلى الأبد، حيًّا في المسيح، لا يفقد من كيانه إلا ما فسد منه. لذلك يتحتم أن يفقد الجسد فساده حتى يُستَردَّ جديداً في عدم فساد.

المسيح الآن هو قيامتنا وهو حياتنا وهو برُّنا.

المسيح لا يلغي الدينونة أو القيامة في اليوم الأخير، ولا ينفي أن الحياة الأبدية ستُستعلن جهاراً في القيامة بظهوره، ولكنه يزيد على ذلك كله أن القيامة والعُتْق من الدينونة الآتية والحياة الأبدية كلها دخلت إلى العالم بدخوله واستُعلنت وظهرت لكل مَنْ آمن ويؤمن بموته وقيامته حيًّا من بين الأموات!

+ «الحق الحق أقول لكم: إن مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يو ٥: ٢٤).

إذن، لا خوف من الموت بعد الآن، ولا تشاؤم من عجز الإنسان، ولا رعبة من دينونة قادمة، فقد طُعِّمنا في جسد ابن الله فَسَرَتْ فينا الحياة الأبدية وعبرنا خطورة الموت واللعنة والفساد، وتجاوزنا حكم الدينونة بالضرورة، لأن الذي سيدين أصبح هو نفسه محامينا، بل مُبْرِئنا، بل وقد صرنا متحدين بقاضينا!!

+ «مَنْ يأكلْ جسدي ويشربْ دمي **فله** حياة أبدية، وأنا أُقيمه في اليوم الأخير» (يو ٦: ٥٤).

وهنا يوافق المسيح على الفكر العام بخصوص القيامة العامة التي ستُمنح لجميع المؤمنين في اليوم الأخير، ولكن يضيف إليها المفهوم الجديد الأعلى والأهم: أنَّ كل مَنْ يتحد بالمسيح الآن، فإنه يوهَب الحياة الأبدية في الحال، بحيث أن القيامة في اليوم الأخير تأتي مُضافة أو مترتبة على شرط حصولنا على الحياة الأبدية منذ الآن.

هذه الحياة الأبدية التي تُمنح لنا منذ الآن فتصبح قائمة فينا وفعَّالة، وتصبح هي عامل القيامة في اليوم الأخير، هذه الحياة الأبدية لا يمكن

الحصول عليها إلا بالمسيح، ولا توجد أي وسيلة لدخولها فينا ودخولنا فيها إلا بالاتحاد بجسد المسيح ودمه:

+ «فقال لهم يسوع: الحقَّ الحقَّ أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم» (يو ٦: ٥٣).

وهذا يشمل، بالمعنى السرِّي، حتمية الموت معه. فنحن لا يمكن أن نتحد بالجسد المبذول والدم المسفوك، إلا من خلال الاستعداد للبذل والتضحية، أي بحمل صليبنا والسير وراءه، لأن المسيح لا يمكن أن يكون "القيامة الحقيقية" إلا لِمَنْ كان عنده الاستعداد للموت من أجل الحق، كما لا يمكن أن يصبح المسيح "الحياة الأبدية" إلا لِمَنْ صَلَبَ هذا العالم لنفسه.

لذلك اعتبر المسيح أن جسده ودمه هو طعام الحياة الأبدية أو خبز الحياة النازل من السماء:

+ «أنا هو خبز الحياة ... لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم ... أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إنْ أَكَلَ أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد، والخبز الذي أنا أُعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم» (يو ٦: ٣٥، ٣٣، ٥١).

وفي آية مختصرة ولكن شاملة يقول الرب:

+ «مَنْ يأكلني فهو يحيا بي» (يو ٦: ٥٧).

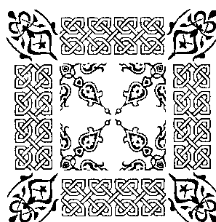
ولكن كيف نأكل ما لا يؤكَل؟ وكيف نشرب ما يستحيل شربه؟

+ «جسدي **مأكلٌ** حقٌّ ودمي **مشربٌ** حقٌّ» (يو ٦: ٥٥).

هنا يتضح لنا مجال عميق للإحساس الروحي والتأمل في سر الجسد والدم. فليس الجسد وحده أو الدم وحده هما "الحق"، بل وينبغي أن يكون **الأكل والشرب** أيضاً فعلين حقيقيين، أكلٌ حقيقي وشُرْبٌ

حقيقي!! أي على مستوى الجسد الإلهي والدم الإلهي ينبغي ويتحتم أن يكون الأكل نفسه أكلاً حقيقياً إلهياً والشُرب نفسه شُرباً حقيقياً إلهيـــاً. فإن كنا بالواقع المحسوس في سر التناول نأكل ونشرب ونستطعم بفمنـــا وحواسنا - حسب الظاهر - فإن وراء ذلك أكلاً فائقاً على الحـــواس، أكْلٌ حقيقي، أكْلٌ إلهي، به نأكل الرب ونحتويه لا بـــالحواس بـــل في أعماق كياننا الروحي:

+ «كما أرسلني الآب الحي **وأنا حيٌّ بالآب فَمَنْ يأكلني فهو يحيـــا بي!**» (يو ٦: ٥٧)



الفصل العاشر

لقب "النور"

«أنا هو نور العالم» (يو ٩: ٥).

«نور الأمم» (إش ٤٢: ٦).

التوراة تقدِّم لنا النور باعتباره صفة شخصية لله «الله نور وليس فيه ظلمة» (١يو ١: ٥). كما أن نور الله يوضِّح العلاقة التي تربط الله بالعالم وبالأمم وبالإنسان، فالله «نور العالم» (يو ٨: ١٢)، و«نور الأمم» (إش ٤٢: ٦)، و«نور الناس» (يو ١: ٤).

بمعنى أن كل شيء يأخذ حقيقته ووجوده من الله، فالعالم بدون الله يصبح شيئاً مجهولاً مظلماً بلا غاية ولا هدف، ولا يمكن فهمه. كذلك أي أمة أو شعب، كذلك أي إنسان، فبدون الله يحس أن لا وجود له ولا كيان ولا هدف ولا معنى؛ ولكن إذا كان نور الله يحكم معرفتنا بالعالم والشعوب والناس والنفس، فإن معرفتنا هذه المستنيرة بالله تصبح وسيلة بحد ذاتها نمتد فيها شيئاً فشيئاً حتى ندرك الله نفسه. لأن العلاقة التي تربط العالم وتربطنا بالله هي علاقة حياتية، فمن خلال تعمقنا جميعاً بروح الله في معرفة العالم والشعوب والإنسان نصل في النهاية إلى الإحساس بمصدرها جميعاً وهو الله حيث يقول المزمور: «بنورك نعاين النور» (مز ٣٦: ٩)، وداود النبي يشرح فعلاً هذا التدرُّج في المعرفة المستنيرة بالله للتأمل في الخليقة ثم الإنسان حتى يصل في النهاية إلى الله

مصدر النور فيقول:

+ «يا رب في السموات رَحمتُك (حيث المطر والشمس والهواء مصدر كل الخيرات)، أمانتك إلى الغمام (أي أن أمانته للإنسان على الأرض تصل إلى عنان السماء)، عدلك مثل جبال الله (أي عدل راسخ مرتفع لا يتزعزع)، وأحكامك لُجَّةٌ عظيمة (أي أن القوانين التي يحكمنا بها الله عميقة وخفية كأعماق البحار والمحيطات). الناس والبهائم تُخلِّصُ يا رب (أي أن اهتمام الله بالإنسان ثم الحيوان في قمة أعاجيب رحمته)، ما أكرم رحمتك يا الله!

فبنو البشر في ظل جناحيك يحتمون (أي أن الله بنفسه هو في النهاية ملجأ حقيقي للإنسان)، يُرْوَوْنَ من دسم بيتك، ومن نهر نعَمكَ تسقيهم (أي أن الله مصدر شبع بالصلاة ونعمته المجانية المَصدر الحقيقي الدائم لارتواء الإنسان)، لأن عندك ينبوع الحياة (هنا يصل داود في تدرُّجه بالمعرفة المستنيرة للخليقة أن الله هو مصدر الحياة نفسها)، بنورك نرى نوراً (وهكذا يبلغ داود إلى الحقيقة العظمى أنَّ مَنْ يتبع طريق الاستنارة بالله يصل حتماً في النهاية إلى الله مصدر النور)» (مز ٣٦: ٥-٩).

وبذلك نجد أن العهد القديم يقدِّم لنا الله كنور مطلق لا يمكن بلوغه أو الوصول إليه أو الاقتراب منه في حد ذاته «الله نور» (١يو ١: ٥)، «وساكناً في نور لا يُدنَى منه، الذي لم يَرَه أحد من الناس ولا يقدر أن يراه» (١تي ٦: ١٦)، ولكن الله نفسه يرسل نوره غير المنظور من ذاته كعلامة رضا ومحبة ورحمة إلى القلوب المفتوحة لمعرفته فيضيء لها المعرفة حتى تصل بالمعرفة إلى الله مصدر النور نفسه الذي يستحيل أن يصل إليه

إنسان بقدرته الشخصية، تماماً مثل النور الطبيعي الذي لـولا شـعاعه المنبعث منه لا يستطيع أحد أن يراه أو يعرف طبيعته.

والكتاب يشرح هذا الاتصال بين الله والإنسان على مستوى الإنارة والإضاءة هكذا:

+ «لِيُنِرْ بوجهه علينا» (مز ٦٧: ١).

+ «فتح كلامك ينير، يعقِّل الجهال» (مز ١١٩: ١٣٠).

+ «أَمْرُ الرب طاهرٌ ينير العينين» (مز ١٩: ٨).

+ «الرب إلهي ينير ظلمتي» (مز ١٨: ٢٨).

وفي موضع آخر يبيِّن الكتاب أن هذه الاستنارة أو هذه المعرفة النشطة المتأملة في الله وبالله لا تأتي من ذاتها، إذ لابد للإنسان من أن يجاهـد في سبيل الاستنارة «نظروا إليه واستناروا» (مز ٣٤: ٥)؛ التي يقابلـها في العهد الجديد «فسيروا ما دام لكم النور» (يو ١٢: ٣٥).

أي أنه بالرغم من أن الله يهب نوره مجاناً، إلاَّ أنه لابد من الاستعداد لقبول هذا النور أولاً، ثم لابد من الجهد المتواصل للاحتفاظ به؛ تماماً مثل ضرورة استعداد العين للنظر إلى النور ثم ثبوتها في النظـر حـتى تـرى وتتحقق منه. هكذا فكل مَنْ كان عنده استعداد قلبي لقبـول الله فإنـه يشرق عليه بنوره ويستنير، وبدوام انفتاح القلـب لنـور الله يتعـرَّف الإنسان على الله أكثر، وذلك عن طريق الاستعداد المستمر للانتقال من التأمل في العالم والأشياء التي فيه والناس إلى الله مصدر المعرفة والنـور، ولكن للأسف معظم الناس ليس عندهم الاستعداد للانتقال من النظر إلى العالم إلى النظر لله، ولا الانتقال من النظر إلى أنفسهم إلى النظر إلى الله، هؤلاء يفسدون استنارتهم ويبددونها أولاً بأول. فكل اسـتنارة تـأتيهم يستغلونها للارتداد إلى العالم وإلى أنفسهم، فبدلاً من أن يسيروا بمعرفتهم وإلهامهم إلى مصدر الاستنارة والمعرفة والإلهام، يعكسون مسيرتهم علـى

خط امتداد النور فيهم فيدخلون بإرادتهم إلى الظلمة حيث تتبدَّد كل طاقاتهم ومواهبهم في أباطيل الدنيا بلا أي هدف، حيث الظلمة هنا تمثل الحركة ضد الله. وهذا هو جوهر الخطأ أو الخطية أو الجهل الذي يكون باستخدام الإنسان للعالم والناس ونفسه وكل شيء لذاته هو دون الانتقال بها إلى الله، لذلك يقول الكتاب: «الله نور وليس فيه ظلمة البتة» (١يو ١: ٥)، بمعنى أنه يستحيل أن يوجد في الله ومع الله أي حركة مرتدة عنه أو ضده التي هي معنى الخطأ وجوهر الخطية والجهل.

المسيح هو النور الحقيقي:

كل ما قيل عن النور كصفة أساسية من صفات الله، وكعلاقة تربطه بالعالم والإنسان، جاء المسيح ليعلن أنها قد كملت وظهرت فيه، فبالنسبة له ظهر أنه هو «النور الحقيقي» حيث كلمة «حقيقي» تسمو بمعنى النور وجوهره عن كل نور نسبي مادي أو عقلي، بمعنى أنه النور المطلق الذي ليس له مثيل، نور غير مخلوق بل خالق، ولكي يثبت المسيح ذلك، أي أنه النور الحقيقي أو الخالق، أعطى للأعمى أن يبصر بأن خَلَقَ له عينين جديدتين!!

وهنا أراد المسيح أن يقف من الإنسان الأعمى وقفة الله في البدء عندما قال ليكن نور! وهو لم يعطِ النور للأعمى لكي يبصر الأعمى فقط، بل لكي نعرف نحن جميعاً أنَ المسيح هو مصدر النور الحقيقي، النور الذي لا يضيء العينين فقط بل يضيء القلب والحياة.

ومن الأمور الملاحظة في التوراة أن صفة النور المنسوبة إلى الله في المزامير وغيرها كانت تأتي مرتبطة بالحياة:

+ «عندك ينبوع **الحياة**، بنورك نرى **نوراً**» (مز ٣٦: ٩).
+ «الرب **نوري** وخلاصي ... الرب حصن **حياتي**» (مز ٢٧: ١).
+ «أسير قدَّام الله في **نور** الأحياء» (مز ٥٦: ١٣).

وذلك لأن النور لا يمكن فصله عن الحياة بالنسبة لله لأن كليهما صفة طبيعية لله؛ فالله نور في ذاته وحياة، ونور الله ينيرٍ ويحيي، وحياة الله تُحيي وتنير!! على المستوى المادي والروحي معاً. لذلك فالنور الطبيعي كالشمس، والحياة الطبيعية كالحيوان، يشهدان لمصدر وجودهما وخالقهما، ولكن النور المادي الطبيعي والحياة المادية الطبيعية لا يمكن أن يشهدا لله من ذاتهما، لابد من نور روحاني (بصيرة) وحياة روحانية (روح قدس) يرسلهما الله في الإنسان أو يسكبهما، وحينئذ يصير النور وتصير الحياة المادية والروحانية معاً شهادة لله بواسطة الإنسان.

والمسيح إذ يحمل طبيعة الله أو هو بالحري من طبيعة الله، لذلك يقول قانون الإيمان إنه [نور من نور]. فالمسيح لم يأت ليشهد للنور كيوحنا المعمدان، بل المسيح جاء لينير الإنسان وينير العالَم كله فيما هو سر الله، أي ليسكب في الإنسان بصيرة جديدة روحانية من روحه القدوس يدرك بها طبيعة الله فيتعرَّف على الآب والابن والروح الذي هو مصدر المعرفة الحقيقية.

لذلك كان رأي المسيح في يوحنا المعمدان أنه «السراج الموقَد المنير» (يو ٥: ٣٥) بمعنى أنه يستمد نوره من آخر، أما تعريف المسيح لذاته فكان «أنا هو نور العالم» (يو ٨: ١٢)، ولأنه يستحيل على الإنسان أن يتقبل نور معرفة الله أي معرفة الحق إلا بواسطة الروح القدس الذي يعطيه المسيح، لذلك أصبح لا يمكن نوال النور والحياة إلا بالإيمان بالمسيح. كما لا يمكن فصل النور عن الروح أي فصل معرفة الحق عن الحياة الأبدية بالنسبة للإنسان لأن معرفة الحق والميلاد الجديد للحياة الأبدية هما من عمل الروح القدس، فنوال البصيرة الروحانية يتبعها حتماً حياة أبدية، والحياة الأبدية يتبعها حتماً نور البصيرة الروحانية.

كذلك العكس أيضاً، فالظلمة والموت أيضاً جاءتا مترادفتين:

«الشعب السالك في **الظلمة** أبصر نوراً عظيماً. الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور» (إش ٩: ٢). والظلمة والموت كلاهما كناية عن البعد عن الله أو انعدام لعمل صفات الله، أي انعدام النور والحياة «ليس في الموتى مَنْ يذكرك، ولا في الجحيم مَنْ يعترف لك» (مز ٦: ٥ النص حسب الترجمة السبعينية). فإذا لاحظنا ذلك استطعنا أن نلمح عمق المعنى والقصد الذي قصده المسيح من قوله: «أنا هو نور العالم، مَنْ يتبعني فلا يمشي في الظلمة، بل يكون له نور الحياة» (يو ٨: ١٢).

فالنور هنا يعني لا إدراك الحياة الأبدية فقط بل والحياة في مجالها أيضاً، والظلمة لا تعني انحجاب الله فقط بل والحرمان من الحياة معه.

فالمسيح نور العالم أي أنه هو الحياة الأبدية التي كانت مخفية في الآب وأُظهِرَت للعالم لكي يستطيع العالم بواسطة المسيح أن ينتقل من الموت إلى الحياة، من حياة حسب الجسد نهايتها موت إلى حياة حسب الروح نهايتها قيامة ونور ومجد أبدي. لذلك يقول إنجيل يوحنا عن المسيح: «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس» (يو ١: ٤)، أي أن الحياة الأبدية كانت في المسيح مخفية وأُظهرت بالقيامة فصارت نوراً أضاء للجالسين في ظلمة الموت.

ومرَّة أخرى يعود يوحنا ليؤكد أن نور المسيح إلهي مُحيي غير منطفئ لا يمكن أن يغلبه موت: «النور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه» (يو ١: ٥)، فهو الذي أضاء ظلمة الجحيم، وأقام لعازر، ولما مات المسيح لم تستطع ظلمة الموت أن تمسكه، فبدَّد ظلمة القبر وحطَّم سلطان الجحيم وقام: «أبطل الموت وأنار الحياة» (٢تي ١: ١٠).

ولكن المسيح «النور الحقيقي» لم يقف فقط عند غلبة ظلمة القبر وتحطيم سلطان الجحيم، ولكنه أيضاً ارتفع بجسد الإنسان ودخل إلى

الأقداس العليا فأنار أمام الإنسان بمسيرته المنتصرة الطريق إلى السماء إلى الله «أنار الحياة والخلود.» (٢تي ١: ١٠)



كما لا يفوتنا أن نشير إلى جوهر النور باعتباره الصفاء والنقاوة والطهر الكلي في كل صفة من صفات الله «فالله نور وليس فيه ظلمة البتة» (١يو ١: ٥)، هذا نجده فيما يخص المسيح واضحاً في قوله: «مَنْ منكم يبكتني على خطية؟» (يو ٨: ٤٦)، هنا تحقيق لصدق صفة المسيح باعتباره النور الحقيقي، فالمسيح «ليس فيه ظلمة البتة!!» (١يو ١: ٥)

وإمعاناً في كشف نقاوة هذا النور الإلهي وصفائه المطلق يوعز إلينا الإنجيل في موضوع التجلي أن ندرك ذلك من حادثة لمعان ثوب المسيح كالنور حتى نفهم أكثر عمق سر المسيح إذا انتبهنا إلى قول المزمور عن الله «اللابس النور كالثوب» (مز ١٠٤: ٢).

وكذلك لما جاءت «سحابة نيِّرة وظلَّلتهم» (مت ١٧: ٥) من العلو، حيث كلمة "ظللتهم" بالعبرية تعني حرفياً (سكنت فوق على مسافة لا يُدنى منها)، وهذه إشارة خفية إلى آية القديس بولس الرسول التي تقول عن المسيح: «ساكناً في نور لا يُدنَى منه» (١تي ٦: ١٦). والقديس بولس الرسول يأخذنا بتعبيراته اللاهوتية المملوءة سرًّا بعمق لا يُجارَى ليضعنا أمام حقيقة العهد القديم «إضاءة وجه الله» (عد ٦: ٢٥) التي تَغنَّى بها الأنبياء مراراً وتكراراً في كل الأسفار، وبالأخص في سفري العدد والمزامير، فيعلِّق القديس بولس الرسول عليها منبِّهاً ذهننا أن نكتشف سر المسيح فيها بقوله: «لأن الله الذي قال أن يُشرق نور من ظلمة، **هو الذي أشرق** في قلوبنا لإنارة معرفة **مجد الله في وجه يسوع المسيح**» (٢كو ٤: ٦).

وهكذا فإن آيات كثيرة في العهد القديم لا يمكن فهمها فهماً واقعياً إلاَّ إذا انتبهنا إلى مرادفها في العهد الجديد، فمثلاً قول المزمور: «سراجٌ لرجلي كلامُك ونورٌ لسبيلي» (مز ١١٩: ١٠٥)، فلو انتبهنا إلى أن المسيح هو «كلمة الله» وأن «الله كلَّمنا في ابنه» (عب ١: ٢)، لأدركنا مقدار عمق المعنى في قول المسيح: «أنا هو نور العالم مَنْ يتبعني فلا يمشي في الظلمة» (يو ٨: ١٢). فالمسيح باعتباره كلمة الله الحية المتجسِّدة الناطقة بذاتها وفعلها فهو حتماً نور، نور بحد ذاته، ولأن النور لا يمكن أن يدل عليه شيء آخر، فالنور يشهد لنفسه، لذلك لم يقبل المسيح أبدا شهادة من آخر (أي لم يقبل كلمة من آخر) إلا الآب الذي خرج منه "نور من نور"، لأنه هو كلمة الآب.

وكذلك أعمال المسيح كانت تشهد له كما يشهد الشعاع المضيء للمصدر الذي يأتي منه، لذلك كان المسيح يتشدد دائماً في توضيح ذلك، مثل قوله: «الأعمال التي أنا أعملها باسم أبي هي تشهد لي» (يو ١٠: ٢٥).

فأعمال المسيح كانت كلها البرهان الفاصل لارتفاع مستوى المصدر الذي صدرت عنه ارتفاعاً فائقاً عن مستوى البشر والملائكة، أما الأقوال فلا تبرهن على شيء ولكن الأعمال تنطق، **أعمال** المسيح كانت **كلمة** الله بالحق!!

+ «قالوا له: إلى متى تعلِّق أنفسنا؟ إن كنتَ أنت المسيح فقُلْ لنا جهراً، أجابهم يسوع: إني **قلت لكم ولستم تؤمنون**، الأعمال التي أنا أعملها باسم أبي هي تشهد لي ... إن كنت لست أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا بي، ولكن إن كنت أعمل، فإن لم تؤمنوا بي، فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيَّ وأنا فيه» (يو ١٠: ٢٤، ٢٥، ٣٧، ٣٨).

يتضح هنا أن أعمال المسيح هي شهادته، هي شعاع نوره الذي يشهد بالحق أنه هو «النور الحقيقي» (يو ١: ٩).

ويعود المسيح نفسه ينبِّه ذهننا لارتفاع مستوى الأعمال عن طاقة أي مخلوق كان إنساناً أو ملاكاً، بقوله: «لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالاً **لم يعملها أحد غيري** لم تكن لهم خطية وأما الآن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي» (يو ١٥: ٢٤).

لذلك أصبح خطر رفض أعمال المسيح على مستوى رفض العين للنور يجعل النفس لا يكون نصيبها إلاَّ العمى والظلام، وقد علَّق المسيح بهذا المعنى على إنكار الكهنة والكتبة والفريسيين لحادثة تفتيح عيني الأعمى فقال: «لدينونة أتيتُ أنا إلى هذا العالم حتى يُبصر الذين لا يبصرون (الإنسان الذي يعترف بعماه ويؤمن بعمل المسيح فيستنير) **ويعمى الذين يبصرون** (الإنسان الذي يثق ببصيرته ويرفض عمل المسيح فينعمي)» (يو ٩: ٣٩).

وهكذا أصبح نور المسيح مصدر حياة للذين يتقبلون هذا النور وسبب موت للذين يرفضونه.

الفصل الحادي عشر

لقب "الكلمة"

"الكلمة" لقب المسيح الذي احتل مكانة لاهوتية كبيرة في إنجيل القديس يوحنا، فما معنى اللقب بمفهومه في العهد القديم؟

العهد القديم و"كلمة الله":

"كلام" الله أو "كلمة" الله كانت في العهد القديم تقوم كصلة بين الله والعالم عموماً كما في الخلقة؛ وبين الله والناس، فكلمة الله على فم النبي تشرح العلاقة المطلوبة والواجبة أن تكون بين الله والناس التي يمثلها الناموس، لذلك كانت كلمة الله تُقال على فم النبي لتكشف عن ذات الله وصفاته، فكلمة الله، هي استعلان لذاته وصفاته. وكانت كلمة الله المنطوقة على فم النبي تفيد حضور الله الشخصي حيث لا يعود النبي يحسب أنه المتكلم بل الله نفسه هو الذي ينطق ويتكلم كما جاء في بداية كل نبوَّة:

+ «وحي **كلمة الرب** لإسرائيل عن يد ملاخي، أحببتكم قال الرب» (مل ١: ١، ٢).

+ «**كلمة الرب** إلى زكريا بن بَرَخيا ... قُل لهم: **هكذا قال رب الجنود**» (زك ١: ١، ٣).

+ «**كلمة الرب** عن يد حَجَّي النبي... **هكذا قال رب الجنود**» (حج ١: ١، ٢).

+ «**كلمة الرب** التي صارت إلى صَفَنْيَا ... **يقول الرب**» (صف ١: ١، ٢).

ومن هذا يتبيَّن أن «كلمة الرب» تفيد بلغة التوراة حضوراً شخصيًّا لله حيث يكون هو المتكلِّم في فم النبي كما يوضِّح القديس بطرس الرسول: «التي تكلَّم عنها الله بفم جميع أنبيائه» (أع ٣: ٢١). وهذا ما قصده بولس الرسول في قوله: «**الله** بعدما **كلَّم** الآباء **بالأنبياء** قديماً بأنواع وطرق كثيرة» (عب ١: ١).

إذن، فالله كان هو المتكلِّم، إنما بواسطة الأنبياء وبطرق مختلفة بالرؤيا والأحلام والوحي والإلهام والكتابة.

وهكذا كانت لفظة «كلمة الله» تعبِّر في الحقيقة عن شخص الله، لذلك فإن الأسفار الخمسة الأُولى بسبب أنها صوت كلمات الله التي كتبها موسى بإصبع الله[1] والتي سُمِعَ دويُّها في العالم كله حسب التقليد القديم والتي أفصحت عن شخصية الله واسمه وصفاته ووصاياه وعلاقته بشعبه، سُمِّيت «كلمة الله» في الناموس "توراه"، وكان لها هيبة كهيبة الله نفسه. فالوصايا العشر كانت توضع في التابوت فيصير التابوت بمثابة حضور الله وكأنه ساكن في قدس الأقداس. وقد غَالى الربيون اليهود في تقديسها حتى جعلوا للتوراه وجوداً شخصياً ذاتياً وسموها "بِنْت الله" يدلِّلها ويُجلسها على ركبتيه. ونسبوا إليها القدرة والعمل والفاعلية الذاتية. ومما عزَّز فهمهم هذا قول إشعياء النبي عن كلمة الله: «هكذا تكون كلمتي التي تخرج من فمي لا ترجع إليَّ فارغة بل تعمل ما سُررتُ به وتنجح فيما أرسلْتُها له» (إش ٥٥: ١١)، وكأن الكلمة سفير

(١) يُلاحَظ أن كلمة «الوصايا العشر» كُتبت «بإصبع الله» (خر ٣١: ١٨)، وأعمال المسيح كانت «بإصبع الله» (لو ١١: ٢٠) ... وهذا تعبير عن أن أعمال المسيح هي هي كلمة الله.

شخصي بمجرد أن يصدر عن الله يصبح له وجود ذاتي فعَّال ولا يعود إلا محقِّقاً كل قصد الله. وقد ظلّ هذا التراث الإيماني بخصوص قوَّة كلمة الله وفعلها الذاتي الدائم ذخيرة حية من جيل إلى جيل حتى تسلَّمها الرسل وسلَّموها إلينا، وينقلها إلينا بولس الرسول هكذا: «من أجل ذلك نحن أيضاً نشكر الله بلا انقطاع لأنكم إذ تسلَّمتم منَّا كلمة خَبَر من الله، قبلتموها لا ككلمة أُناس بل كما هي بالحقيقة ككلمة الله التي تعمل أيضاً فيكم أنتم المؤمنين» (١تس ٢: ١٣). وهنا يجدر بنا جداً الإشارة إلى هذا المستوى الإيماني الملتهب، كذخيرة وميراث حي، بخصوص كلمة الله وقوتها وفعلها الداخلي فينا وقدرتها على الغفران والتقديس وعلى التغيير والتجديد والولادة والنمو والشفاء من تلقاء ذاتها بمجرد قبولها وتصديقها.

ولكن كلمة الله وسلطانها المُقتدر المعبِّر عن إرادة الله وحكمته وتدبيره تظهر بصورتها العظمى والفائقة في الخلق، حيث نعرف أن خلقة السموات والأرض كانت بكلمة الله: «بكلمة الرب صُنِعَت السموات وبنسْمة فيه كل جنودها» (مز ٣٣: ٦)، فالكلمة خرجَت من فم الله فخَلَقَت وأَحْيت وأَبْدعت، فكان العالم ولا يزال بكل انسجامه ودقته الفائقة التي حيَّرت عقل الإنسان: «لأنه أمر فخُلقَتْ، وثبَّتها إلى الدهر والأبد، وصنع لها حدًّا فلن تتعدَّاه» (مز ١٤٨: ٥، ٦).

وكانت الملائكة دائماً أبداً تصدع لكلمة الله، تخدمها وتعمل بها ومعها إلى أن يكمل عملها، لأن "**كلمة**" الله باعتبارها تمثِّل "**إرادته**" فهي تستلزم تلقائياً أن ترافقها الملائكة وتخضع لتدبيرها بمجرد صدورها، لأن الملائكة بطبيعة خلقتهم خدَّام يصنعون مشيئة الله: «باركوا الرب يا ملائكته المقتدرين قوَّة **الفاعلين أمره عند سماع صوت كلامه**» (مز ١٠٣: ٢٠).

لذلك نرى الملائكة ملازمين دائماً لكلمة الله يعملون معها على مدى العهد القديم كله سواء في الخلقة أو إعطاء الناموس أو الشهادة فأصبح ظهور الملاك معناه في الحال قبول رسالة أو كلمة من الله.

ويُلاحَظ أن الكلمة التي خرجت من فم الله مسنودة بخدمة الملائكة، فقد أخرجت نظام الكون كله من العدم والفوضى إلى الانسجام والترتيب وأحْيَتْ روح الإنسان، تبعها بعد ذلك الكلمة "التوراه" التي أرسلها الله بيد ملائكة أيضاً إلى موسى والأنبياء فأخرجت الإنسان من الجهالة الروحية والظلمة العقلية والفوضى الخلقية إلى الحكمة الروحية والتدبير الجيد والسلوك الأخلاقي والأدبي، هذه هي كلمة الناموس الذي وضع حدًّا للإنسان لا يتعداه: «هذا هو موسى ... الذي كان في الكنيسة في البرية **مع الملاك الذي كان يكلّمه** في جبل سيناء ... **الذي قَبلَ أقوالاً حيَّة** ليعطينا إياها ... الذين **أخذتم الناموس بترتيب ملائكة**» (أع ٧: ٣٧، ٣٨، ٥٣).

كما يُلاحَظ أنه مع الملائكة كخدَّام يشهدون "للكلمة" على مدى التوراة، كان الروح أيضاً عاملاً وصانعاً مع الكلمة: «بكلمة الرب صُنعت السموات **وبنسمة فيه** كل جنودها» (مز ٣٣: ٦). فـ«كلمة الله» و«الحياة» يستحيل فصلهما عن بعضهما، وقد علمنا أنهما قبل الخليقة كانا معاً **عند الله**، فالكلمة يقول عنها إنجيل يوحنا: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله» (يو ١: ١).

كذلك «الحياة» الأبدية أيضاً، يخبرنا عنها يوحنا الرسول في رسالته الأُولى: «فإن الحياة أُظْهِرَتْ وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهِرَت لنا» (١يو ١: ٢).

ولأن كلمة الله هي بحد ذاتها قانون، أصبح لها سلطان يستحيل

مقاومته بدون عقاب، فالذي يتعدى قوانين الطبيعة التي تُعبِّر عن صرامة كلمة الله ودقتها فإنه يُصاب بعقاب تلقائي. كذلك كل مَنْ كان يتعدى ناموس موسى الذي هو كلمة الله كان يتحتم عليه العقاب في الحال بدون استثناء إذ يُحسب كأنه متعدٍّ على الله نفسه حيث يكون عقابه هو العدل منتهى العدل: «الكلمة التي تكلَّم بها ملائكة قد صارت ثابتة وكل تعدٍّ ومعصية نال مجازاة عادلة» (عب ٢: ٢).

كذلك فكل مَنْ صارت إليه كلمة الله وقَبِلَها فإنه يصير كمَنْ قَبِلَ الله نفسه، بل يصير كالله، وهذا في الحقيقة أمر مذهل للعقل، ولكن هذه هي الحقيقة وقد كشفها المسيح نفسه عند قوله: «أليس مكتوباً في ناموسكم **أنا قلت** إنكم آلهة. إن قال آلهةٌ لأُولئك الذين صارت إليهم كلمة الله. ولا يمكن أن يُنقض المكتوب، فالذي قدَّسه الآب وأرسله إلى العالم أتقولون له إنك تُجدِّف لأني قلت إني ابن الله» (يو ١٠: ٣٤-٣٦). أي أن مجرَّد نطق الله بأي صفة أو أي بركة لأي إنسان تصبح في الحال هذه الصفة أو هذه البركة كائنة وفعَّالة كقوة أو روح يحل في كيان الإنسان.

هكذا كان يتلقف الأنبياء كلمة الله، ويثق في فعلها كل الآباء، والمزامير مملوءة بتوسُّلات على أساس فعل كلمة الله: «أحْيني حسب كلمتك» (مز ١١٩: ٢٥)، «أرسَل كلمته فشفاهم» (مز ١٠٧: ٢٠)، «قد عظَّمتَ كلمتك على كل اسمك» (مز ١٣٨: ٢)، «كلمتك مثبَّتة في السموات» (مز ١١٩: ٨٩)، «سراجٌ لرجلي كلامُك ونورٌ لسبيلي» (مز ١١٩: ١٠٥)، «كلَّت عيناي اشتياقاً إلى خلاصك وإلى كلمة برك» (مز ١١٩: ١٢٣)، «وأُقيم لكم كلامي الصالح» (إر ٢٩: ١٠)، «لأنه ذَكَرَ كلمة قدسه» (مز ١٠٥: ٤٢)، «وأما كلمة إلهنا فتثبت إلى الأبد» (إش

٤٠ : ٨).

وهكذا كانت «كلمة» الله في العهد القديم خالصة، حيَّة، مُحيية، مخدومة من الملائكة، مُعانة بالروح، ذات سلطان ذاتي، لابد أن تعمل عملها الذي أُرسلت له ولا تعود فارغة، وكل مَنْ لا يخضع لها يقع تحت عقاب حتمي ودينونة عادلة كمتعدٍّ على الله نفسه! ومَنْ قبِلَها يكون قد قَبِلَ الله فيُكافأ.

ولكن ماذا كانت هذه «الكلمة» وما هيئتها أو صوتها في الاعتبارات اللاهوتية؟ الجواب على ذلك يشرحه الرب يسوع نفسه من واقع حال التوراة واليهود أنفسهم بقوله: «الآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي. **لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيأته**. وليست لكم **كلمته** (التوراة التي أرسلها) ثابتة فيكم لأن **الذي أرسله هو** (المسيح الكلمة) لستم أنتم تؤمنون به. فتِّشوا **الكتب** (كلمة الله) لأنكم تظنون أن لكم فيها (الكلمة) حياة أبدية **وهي التي تشهد لي** (الكلمة تشهد للكلمة) ولا تريدون أن تأتوا إليَّ لتكون لكم حياة» (يو ٥: ٣٧-٤٠).

إذن، فكلمة الله ليس لها صوت مسموع قط، ولكن أي صوت سُمع لها هو في الحقيقة صدى مادي لكلمة الله غير المادية. والآب نفسه ليس له هيئة منظورة قط يمكن أن يتعرَّف عليها الإنسان، ولكنه أرسل كلمته غير المنطوقة إلى موسى والأنبياء فنطقوها وتسجَّلت في الكتب، وهذه **الكلمة المكتوبة** كان يُظَنُّ أن الحياة الأبدية كائنة في حروفها المكتوبة، ولكنها كانت في الواقع تشير فقط وتشهد لكلمة الله الحية بذاتها التي هي الحياة الأبدية عينها، التي كانت عند الله مخفية، **فأظهرها** ابن الله الذي يعطي حياته لكل مَنْ يُقْبِلُ إليه ويؤمن به.

فكل مَنْ كان في القديم يبحث ويفتش في كلمة الله (التوراة)

المكتوبة ويثبت فيها ويعمل بها، كانت تشير له إلى المسيح الكلمة الحقيقي الذاتي لله.

المسيح "كلمة الله":

والآن لم يَعُدْ مستغرباً علينا بَعْدُ قوْلَ إنجيل القديس يوحنا: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله!! ... والكلمة صار جسداً وحلَّ فينا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءًا نعمة وحقاً» (يو ١: ١، ١٤)، «الله لم يره أحد قط الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خَبَّر» (يو ١: ١٨).

ولكن الذي يضيفه إنجيل يوحنا إلى معرفتنا القديمة بخصوص «كلمة الله» هو أن كلمة الله المهوبة جداً، والقوية الفعَّالة، الخالقة، المحيية كما عرفناها قديماً كانت في الحقيقة مُشخَّصة في ابن الله، أي أن «كلمة الله» كانت هي هي أقنوم ابن الله نفسه المستتر مع الآب.

فلما تجسد «كلمة الله»، ظهر بالتالي أقنوم ابن الله الذي كان مخفياً ومستتراً مع الآب فصارت الكلمة المتجسدة في جسد(٢) إنسان هي ابن الله ظاهراً في صورة ابن بشر.

ويُلاحَظ أن يوحنا الرسول أظهر في مطلع إنجيله وفي رسائله أن الأبعاد الثلاثة التي كانت من صفات «الكلمة» في القديم قابلت ثلاثة أبعاد جديدة للكلمة عندما استُعلن للعالم:

١ - «والكلمة **كان الله**»؛ يقابلها «والكلمة صار **جسداً**».

٢ - «الكلمة **كان عند الله**»؛ يقابلها «حلَّ **فينا**».

٣ - «الكلمة **كان في البدء**»؛ يقابلها «**رأيناه وشاهدناه ولمسته**

---

(٢) ويُلاحَظ هنا أن «كلمة الله» الخالقة هي التي اتَّخذت جسداً، لذلك يستحيل أن يُقال إن المسيح مخلوق بسبب الجسد الإنساني الذي أخذه بل إن الجسد محسوباً أنه جسد الخالق!!

أيدينا من جهة كلمة الحياة».

ثم يجمع الرسول يوحنا هذه الأبعاد في آية واحدة بقوله: «الذي كان من البدء ... (هو) الذي رأيناه» (١يو ١: ١).

والآن ما هي صفات المسيح التي أظهرت لنا أنه هو هو كلمة الله؟ للرد على هذا التساؤل يلزمنا أن نعود إلى التوراة المحسوبة أنها «كلمة الله» فما هي صفات التوراة التي حقّقت أنها كانت بالفعل «كلمة الله»؟

نعلم أن التوراة كانت **وظيفتها الأُولى** أن تستعلن الله في ذاته للإنسان، لأن الله كان يتكلّم بنفسه في موسى والأنبياء، فكان يُستعلَنُ بالكلمة؛ ثم كانت **وظيفتها الثانية**: هي أن تعمل كصلة تربط الإنسان بالله على الدوام وذلك لأن «كلمة الله» اتّخذت صورة وصايا وأوامر وتحذيرات واجبة الخضوع، فكلُّ مَنْ كان يعمل بها كان يجيء مقرَّباً إلى الله؛ **وثالثاً**: كانت «كلمة الله» هي العامل في كل الآيات والعجائب التي كانت تشهد لوجود الله. فهل لما جاء المسيح تمَّم هذه العوامل محقّقاً أنه كلمة الله حقاً؟

هذا واضح كل الوضوح من أقوال المسيح وأعماله، فالمسيح وإن كان لم يقل عن نفسه إنه «كلمة الله» ولكنه برهن أنه «كلمة الله» بكلامه وأعماله فهو يخاطب الآب قائلاً:

+ «الكلام الذي أعطيتني قد أعطيتُهم وهم قَبِلوا وعلموا يقيناً أني خرجت من عندك وآمنوا أنك أنت أرسلتني» (يو ١٧: ٨)؛

+ «أنا **قد أعطيتُهم كلامك... كلامك هو حق**» (يو ١٧: ١٤، ١٧).

المسيح هنا يظهر تماماً أنه حامل كلام الله أي الحق ولكن في موضع آخر يقول صراحة «أنا هو الحق».

إذن، فالمسيح نفسه هو هو كلمة الله.

ولكن لما كان المسيح يتكلَّم كان يؤكِّد مراراً وتكراراً أن الكلام الذي يقوله ليس كأنه من ذاته (كإنسان ظاهر أمامهم في صورة ضعيفة) بل كان ''كلام الله'' هو كلام الآب الذي أرسله، أي أن المسيح لما كان يتكلم كان يتكلم «بكلمة الله» وليس كإنسان. وحتى وإن تراءى لهم أنه كان يتكلَّم كإنسان بينهم إلاَّ أنه كان يتكلَّم بكلمة الله بالحق: «أنا إنسان قد كلَّمكم بالحق الذي سمعه من الله» (يو ٨: ٤٠).

والمسيح كان يعلن دائماً من خلال الكلمة أنه هو ''الكلمة''، فقال عن نفسه وعن كلامه وعن صوته ما يثبت قطعاً أنه كلمة الله المرسَل للعالم:

+ «مَنْ **يسمع كلامي** ويؤمن بالذي أرسلني **فله حياة أبدية**»؛

+ «تأتي ساعة وهي الآن حين **يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون**»؛

+ «لأنه كما أن **الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن** أيضاً أن تكون له حياة في ذاته» (يو ٥: ٢٤-٢٦).

هنا واضح كل الوضوح أن كلام المسيح هو بعينه «كلمة الله»، لذلك صار بالتالي كلام المسيح كلاماً محيياً لأنه كلمة الله الحية الفعَّالة التي لا يمكن أن ترتد فارغة، كلُّ مَنْ يسمعها يحيا إلى الأبد.

فالكلمة التي ينطقها المسيح هي قوَّة بحد ذاتها قوَّة حية ومحيية بآنٍ واحد: «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يو ٦: ٦٣)، وهي كلمة أزلية تبقى إلى الأبد تحقِّق ذاتها بذاتها «السماء والأرض تزولان **ولكن كلامي لا يزول**» (مر ١٣: ٣١)، فكلمة المسيح لا تفترق عن المسيح نفسه في شيء، أبدية وأزلية، فالمسيح وكلمة المسيح هما واحد «**أنا (هو)** من البدء، **ما أكلِّمكم أيضاً به**» (يو ٨: ٢٥)، «**لماذا لا**

تفهمون كلامي؟ لأنكم لا تقدرون **أن تسمعوا قولي**» (يــو ٨: ٤٣)، «إن أحبني أحد يحفظ كلامي» (يو ١٤: ٢٣)، «كلام الحياة الأبديــة عندك» (يو ٦: ٦٨)، «قُلْ كلمة فقط فيبرأ غلامـــي» (مـــت ٨: ٨). فكلمة المسيح هي: «كلمة الصليب» (١كو ١: ١٨)، «كلمة الحيـــاة» (١يو ١: ١)، «كلمة هذا الخلاص» (أع ١٣: ٢٦)، «كلمة المصالحة» (٢كو ٥: ١٩)، «كلمة الحق» (أف ١: ١٣)، «كلمـــة نعمتـــه» (أع ١٤: ٣). وهذه التعبيرات تشير إلى شخص المسيح نفسه أو عمله علـــى السواء.

ثم لكي يثبت لهم بالفعل أنه هو هو «كلمة الله» في ذاتهـــا أي «كلمـــة الله» الخالقة، باشر فِعْل الخَلْق في الأعمَى؛ ولكي يثبت أنه هو هو «كلمـــة الله» المحيية أقام لعازر من الأموات بكلمة: «لعازر هلم خارجاً» (يـــو ١١: ٤٣)؛ ولكي يثبت أنه هو هو «كلمة الله» الحية غير المائتة قام هو نفسه من الأموات بسلطانه. ولكن في كل ما قاله المسيح وعمله كان واضحاً كـــل الوضوح أنه يهدف إلى تحقيق عملين هامين، **الأول**: أن يعلن الله للناس، أي يُعرِّفهم بسر الآب، وأن يُظهر اسم الله الحقيقي الفعَّال، وأن يمجِّد الآب في قلوب الناس؛ **والثاني**: أن يكون هو بحد ذاته صلة دائمة بين الآب والناس.

+ «أنا مجَّدتُك على الأرض» (يو ١٧: ٤).
+ «أنا أظهرتُ اسمك للناس» (يو ١٧: ٦).
+ «أنا أعطيتُهم كلامك» (يو ١٧: ١٤).
+ «أنا عرَّفتهم اسمك وسأُعرِّفهم» (يو ١٧: ٢٦).
+ «لأني قد نـــزلت من السماء ليس لأعمل مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني» (يو ٦: ٣٨).
+ «أنا قد أتيتُ باسم أبي» (يو ٥: ٤٣).

أما الأعمال التي عملها المسيح فكان يعملها كلها باسم الآب ولمجد الآب ولإعلان محبته وقوته ورحمته، وقد أكملها كلها حتى الصليب بالطاعة الكلية للآب حتى يجذب قلوب الناس إلى الآب، وذلك ليتحقق الناس فعلاً أن المسيح هو هو «كلمة الله» الحية الدائمة الذي تجسد ليكون الصلة الثابتة الدائمة بين الله والناس لا بالأقوال فحسب بل وبواسطة أعماله المحيية التي عملها باسم الآب حتى الصليب والتي سوف يعملها على الدوام وإلى الأبد بالشفاعة الدائمة في السماء «عرَّفتُهم... وسأُعرِّفهم» (يو ١٧: ٢٦).

لذلك، إن كان المسيح قد أثبت بكلامه أنه هو هو «كلمة الله» المُرسَلة من الآب للناس، فكذلك كل أعمال المسيح أثبتت أنها هي أعمال «كلمة الله».

إذن، فالمسيح بأقواله وأعماله أثبت قطعاً أنه «كلمة الله»، وهكذا أظهر لنا الآب في ذاته «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩)، ثم بموته وقيامته أصبح الصلة الحية الدائمة بين الله والناس: «أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد» (يو ١٧: ٢٣).

وهنا يكون المسيح هو «كلمة الله» الذي فيه كمُلت كل التوراة وكمُل الناموس والنبوات، هذه التي كانت كلها مجرَّد صورة أو صدى لكلمة الله الحقيقية يسوع المسيح.

ومن هنا نتحقق أن لفظة «الكلمة» كصفة للمسيح لا تعني صوتاً ولا صورة بل حقيقة، حقيقة حية تعلن الله وتشرحه سواء بالكلام الذي قاله المسيح في الإنجيل أو بالأعمال التي عملها.

وإن كان الكلام الذي قاله المسيح والأعمال التي عملها تبدو وكأنها أمور في دائرة فهم العقل ورؤية العين، إلا أنها في حقيقتها وفي فعلها ولا زالت توصل إلى معرفة الله نفسه الذي هو الحق المطلق، الذي هو فوق

العقل والمنطق والكلمة المنطوقة، وذلك لأن المسيح لم يتكلَّم فقط بالحق بل كان هو أيضاً الحق المتكلِّم، ولم يتكلَّم فقط بكلام الحياة الأبدية، بل وكان هو الحياة الأبدية ذاتها، أي أن المسيح حينما يوصَف بلقب «الكلمة»، فهذا لا يعني أن كلامه هو كلام الله فقط وأعماله هي أعمال الله فقط بل إن شخصه هو واحد مع الآب، هو الحق، وهو الحياة الأبدية. فهذا هو معنى «كلمة الله» أي استعلان ذات الله لنا: «الذي رآني فقد رأى الآب» يو ١٤: ٩)، ولذلك فبدون المسيح أصبح لا يمكن معرفة الآب ولا الوصول إليه. لأنه بدون أن يتكلَّم الله عن ذاته فكيف نعرفه، وبدون أن يكشف لنا الله الطريق الذي نسلكه كيف نصل إليه؟ ولكن بظهور المسيح عرفنا الآب وانفتح لنا الطريق الموصل إليه: «لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً» (يو ٨: ١٩)، «ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي» (يو ١٤: ٦)، «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو ١٤: ٦).

وكما كانت «كلمة الله» منذ البدء هي الواسطة الوحيدة بين الله والعالم للخلق والحياة والتجديد، كذلك أصبحت بالضرورة كل صفات واختصاصات «كلمة الله» قديماً هي تلقائياً صفات واختصاصات المسيح «كلمة الله» الذي ظهر في الجسد كامتداد لعمل كلمة الله، إنما بصورة أعلى. لذلك يقرِّر إنجيل يوحنا بكل بساطة وقوة، أن:

+ «**في البدء كان الكلمة**، والكلمة كان عند الله. **وكان الكلمة الله** هذا كان في البدء عند الله. **كل شيء به كان وبغيره** (أي بدون الكلمة) **لم يكن شيء مما كان، فيه** (**أي في الكلمة**) كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس ... **والكلمة صار جسداً** وحلَّ بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً» (يو ١: ١-٤، ١٤).

ويُلاحَظ هنا أن يوحنا يرى بالروح أنه قبل الخلقة كان الكلمة موجوداً وجوداً ذاتياً «عند» الله، ولما أراد الله أن يخلق العالم صدرت «الكلمة» من عند الله، أي خرجت خروجاً كما يذكر الكتاب المقدس في سرد قصة الخليقة: «قال الله». وعلى نفس النمط فإنه قبل الفداء وتجديد الخلقة، أي قبل تجسُّد الكلمة، كان الابن في حضن الآب. ولكن عندما أراد الله أن يخلّص العالم الذي خلقه وأحبه، أرسل الآب ابنه الحبيب فخرج من عنده وتجسَّد، فظهر «كلمة الله» وحلَّ بيننا.

ويُلاحظ أن يوحنا الرسول في بداية إنجيله كان يضمر في نفسه أن «ابن الله» كان هو هو «الكلمة»، لذلك سهل على يوحنا أن يقول في اختصار «والكلمة كانَ الله»، الذي فسَّره بعد ذلك بقليل بقوله: «والكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً» (يو ١: ١٤): أي أن «الكلمة» لما تجسَّدت رأينا أنها ابن الله نفسه بمجده الذاتي، فتحققنا أن «كلمة الله» هي «الله الكلمة».

ويعود يوحنا الرسول ليكشف كشفاً مبدعاً عن المقارنة بين «كلمة الله» في العهد القديم و«كلمة الله» في العهد الجديد بقوله: «لأن الناموس بموسى **أُعطِيَ**، أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا» (يو ١: ١٧). فكلمة الناموس في العهد القديم يقابلها كلمة الحق في العهد الجديد، كلمة الناموس أُعطيت للناس بيد موسى، أما كلمة «الحق» و«النعمة» فلم تُعطَ بيد إنسان بل صارت، أي أتت بنفسها فاستعلنت الله بالمسيح استعلاناً ذاتياً. فالكلمة الذي «كان عند الله» قبل أن يُستعلن الله، صار جسداً فاستُعلن الله: «رأينا مجده».

والمسيح نفسه يضع المقارنة بين الكلمة في العهد القديم والتي أُعطيت لموسى والكلمة التي فيه هو، في موضع حرج عندما يقول: «قيل للقدماء ... **أما أنا فأقول لكم** ...» (مت ٥: ٢١، ٢٢). ومن هذا يظهر أن في

المسيح صار استعلان الله استعلاناً أعلى من استعلان الناموس له وذلك بقدر الفرق بين كلمة الله المرسَلة كوصية على لسان نبي لمعرفة السلوك الحسن وبين كلمة الله المتجسِّد الناطقة بذاتها لاستعلان الحق الكلي.

فالمسيح، وإن كان قد أعطى وصايا جديدة، إلا أنها ليست مجرَّد وصايا سلوكية، بل فيها وبواسطتها يستَعْلِنُ الله ويستعلن الحق والنعمة كقوة تجعل الوصية محيية.

فإن كانت كلمة الله في القديم عملت للخلقة المادية فخلقت النور والحياة والإنسان، ثم عملت في الإنسان فوهبته الناموس لمعرفة الله عن طريق الوصايا التي تربط الإنسان بالله، فالمسيح جاء بنفسه ليرفع عمل **كلمة الله** من مستوى الخلقة المادية للإنسان إلى مستوى خلقة روحية أخرى لنفسِ الإنسان ليكون «خليقة جديدة» (٢كو ٥: ١٧)، وليولد «ميلاداً ثانياً» (تي ٣: ٥)، «من السماء ... من فوق» (يو ٣: ٣، ٧)، «من الروح (القدس)» (يو ٣: ٦)، ولينتقل من بنوَّة ترابية لآدم إلى بنوَّة الله. لذلك فالمسيح جاء ليرفع عمل الكلمة من مستوى خلْقة نور يؤثر في الإحساس البصري، إلى خلقة بصيرة واستنارة روحية في القلب تؤثر في الروح كقوة يكشف بها الإنسان لا الأمور المادية بل الحق والله نفسه.

كذلك، فإنه جاء ليرفع مستوى عمل كلمة الله من مجرَّد الصلة التي تربط الإنسان بالله عن طريق طاعته لوصايا بحروف مكتوبة، إلى مستوى الاتحاد بالله عن طريق طاعة المسيح نفسه عنَّا، ثم الالتصاق الروحي بالرب بالمحبة وبانسكاب روحه ونعمته ودمه في قلوبنا.

لذلك، فاقتران عمل النور والحياة في رسالة المسيح تُعتبر في حد ذاتها استعلاناً للاهوت المسيح، وهذا ما استطاع أن يعبِّر عنه يوحنا الرسول أعظم تعبير بقوله: «ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا **بصيرة لنعرف**

الحق ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح هذا هو الإله الحق، والحياة الأبدية» (١يو ٥: ٢٠).

ولكن لا يغرب عن بالنا قط أن كلمة الله التي عملت في القديم، هي هي التي عملت في المسيح يسوع. فالمسيح هو نفسه «الكلمة» في البدء وحتى النهاية في الأول وحتى الآخر «خالق الجميع بيسوع المسيح» (أف ٣: ٩).

+ «الذي هو صورة الله غير المنظور، بِكْرُ كل خليقة، فإنه فيه (في المسيح) خُلِقَ الكل ما في السموات وما على الأرض، ما يُرى وما لا يُرى سواءٌ كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين، الكل به وله قد خُلِقَ، الذي هو قبل كُل شيء، وفيه يقوم الكل ... لأن فيه سُرَّ أنَ يحلَّ كل الملء، وأن يصالح به الكل لنفسه عاملاً الصلح بدم صليبه بواسطته سواء كان ما على الأرض أم ما في السموات» (كو ١: ١٥-٢٠).

ويحقِّق القديس بولس الرسول أن المسيح هو هو كلمة القدرة الإلهية الفائقة الخالقة للسماء والأرض منذ البدء قائلاً:

+ «الله بعدما كلَّم الآباءَ بالأنبياء، قديماً، بأنواع وطرق كثيرة؛ كلَّمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثاً لكل شيء، الذي به أيضاً عمل العالَمينَ (العالم المادي والعالم الروحاني)، الذي وهو بهاء مجده ورَسْمُ جوهره وحاملٌ كل الأشياء بكلمة قدرته ...» (عب ١: ١-٣)

وكما كانت ملائكة الله علامة حتمية تخرج مع «كلمة الله» تصنع مسرَّتها وتكمِّل عملها، سواء في الخليقة الأولى، أو مع إرسال الناموس والوصايا في التوراة، أو لتثبيت الكلمة المُرسَلة على فم الأنبياء؛ كذلك

ظهرت الملائكة كعلامة حتمية وختم تصديق أن المسيح هو «كلمة الله» الحية المحيية المتجسِّدة والمرسَلة من حضن الآب لفداء العالم، ولذلك فعندما وُلِدَ المسيح في بيت لحم ظهرت الملائكة، وعندما أكمل رسالته وبدأ خدمته على الصليب ككلمة الله الفادية ظهرت الملائكة وصارت تخدمه، وعند باب القبر لما خرجت «الكلمة» في شخص المسيح من الهاوية منتصرة وقائمة من بين الأموات ظهر ملاكان يشهدان. وأخيراً أشار المسيح إلى نفسه بصفته «كلمة الله» التي ترافقها الملائكة للخدمة وذلك بصورة في غاية الوضوح عند قوله بخصوص ظهوره الثاني الآتي في مجده علانية:

+ «ويبصرون ابن الإنسان آتياً على سحاب السماء بقوة **ومجد كثير فيُرسل ملائكته** ببوق عظيم الصوت فيجمعون مختاريه» (مت ٢٤: ٣٠، ٣١).

وهكذا رافقت الملائكة «كلمة الله» دائماً. ويُلاحَظ أن مجرَّد خدمة «الكلمة» أصبح يُعتبر عملاً ملائكياً، وهذا واضح غاية الوضوح في سفر الرؤيا إذ يخاطب الأساقفة خدَّام الكلمة في الأصحاحين الثاني والثالث باعتبارهم ملائكة، وهذا هو التفسير التقليدي لكلمة «ملاك كنيسة». كما يُلاحَظ أيضاً أن وظيفة الرسل بالنسبة للمسيح مستمدَّة من كلمة «ملائكة» أي «مُرْسَلين» باعتبارهم خدَّام كلمة.

+++

وبالمثل أيضاً كما كان «روح الله» يرفُّ على وجه المياه عند صدور «كلمة الله» لخلق العالم الأول، فكان الروح عاملاً مع الكلمة في الخليقة الأولى، كذلك بصورة قوية يشير الكتاب المقدس إلى حلول الروح

القدس على العذراء كشريك أساسي في تجسُّد «الكلمة» وظهورها في العالم ليكون رفيق الكلمة الإلهية في عملها الجديد.

ولما بدأ المسيح رسالته أشار إلى الروح القدس والماء كعامل أساسي في الخلقة الجديدة الثانية الروحانية غير المنظورة التي من السماء التي جاء المسيح ليصنعها بصفته «كلمة الله» العاملة بالروح القدس. كذلك أشار المسيح إلى الروح القدس المزمع أن يرسله من عند الآب لينسكب على العالم بعد صعوده إلى السماء يوم الخمسين لتكميل عمل الخلقة الجديدة. وبصورة علنية، ظل الروح القدس يعمل في الكنيسة باستمرار بآيات كثيرة توضِّح وجوده وعمله، ليدعِّم كلمة الإنجيل أي كلمة المسيح الخالقة والمحيية، بصفته الشاهد - على الدوام - لشخص المسيح أنه بالحق هو «كلمة الله»!

وقد أشار المسيح إلى ذلك بقوله: «ومتى جاء المعزِّي الذي سأُرسله أنا إليكم من الآب، روح الحق **الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي**» (يو ١٥: ٢٦)، **حيث الشهادة هنا منصبَّة على كون المسيح هو هو «كلمة الله»**. لذلك يقول المسيح في موضع آخر عن الروح الذي **سيرسله ليشهد للمسيح كونه الكلمة**، «أنه (أي الروح) **لا يتكلَّم من نفسه** بل **كل ما يسمع يتكلَّم به** ... ذاك يمجِّدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم» (يو ١٦: ١٣، ١٤).

كما يُلاحَظ أن يوحنا الرسول ألمح بطريقة سرية عميقة غاية العمق إلى أن المسيح هو كلمة الله التي كانت في البدء، وذلك عندما قارَن إرسال المسيح ككلمة الله إلى العالم بخروج كلمة الله في البدء لخلقة العالم، مشيراً إلى كيف أن النور والحياة لازما الكلمة في كلتا الحالتين، فيوحنا ألمح إلى **المسيح كنور حقيقي سرِّي** دخل إلى العالم لينيره: «النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان» (يو ١: ٩)، لكي ينتبه ذهننا إلى عمل

كلمة الله في خلقة النور في سفر التكوين. وألمح إلى **الحياة الجديدة السمائية التي من فوق والتي دخلت إلى الإنسان فأنارته عند قبوله المسيح**، فجعلته يولد ميلاداً جديداً ليس من لحم ودم ومشيئة إنسان بل ميلاداً روحياً من الله، لكي ينبِّه ذهننا إلى عمل كلمة الله في خلقة الإنسان في سفر التكوين.

وبعد ذلك كله يجيء المسيح فيعلن عن نفسه صراحة أنه «نور العالم»، وأنه «الحياة» مُرْسِل الروح القدس من السماء من عند الآب لكي ننتبه أنه هو هو الكلمةَ الخالقة التي كانت منذ البدءِ متحدةً بالروح، وقد جاء ليخلق الإنسان خلقة ثانية جديدة، ويعطي نوراً جديداً يفوق الشمس، وحياة جديدة بالروح القدس تفوق الجسد، وبنوَّة جديدة تفوق اللحم والدم.

ويُلاحَظ أن ترادف «**النور**» و«**الحياة**» مع «**كلمة الله**» كانت جزءاً هاماً في لاهوت العهد القديم. فالنور والحياة وكلمة الله لا يمكن أن يفترقوا: «**سراجٌ** لرجلي **كلامك ونورٌ** لسبيلي ... يا رب **أَحْيِنِي** حسب **كلامك**» (مز ١١٩: ١٠٥، ١٠٧).

ويشير القديس بولس الرسول في رسالته إلى العبرانيين إلى المسيح بصفته «كلمة الله» المشهود لها بالروح القدس ذات السلطان القضائي الذي على نفس مستوى سلطان كلمة الناموس، بل وأعظم، لأن كلمة الناموس المكتوبة بحروف أُرسلت على يد ملائكة فقط، أما المسيح فهو «كلمة الله» نفسها الحية الناطقة بذاتها:

+ «إن كانت الكلمة التي تكلَّم بها ملائكة (التوراة) قد صارت ثابتة، وكل تعدٍّ ومعصية نال مجازاة عادلة، فكيف ننجو نحن إن أهملنا خلاصاً هذا مقداره، **قد ابتدأ الرب بالتكلُّم به ثم تَثَبَّت لنا من**

الذين سمعوا شاهداً الله معهم بآيات وعجائب وقوّات متنوعة ومواهب الروح القدس حسب إرادته» (عب ٢: ٢-٤).

وأخيراً نرى أن «كلمة الله» الذي هو ابن الله، يتجسَّد، فيقدِّم لنا على المستوى الحسِّي المنظور الاستعلان الكامل لله في شخصه ويعطينا كلامه بمثابة قوَّة وحياة ونور، مُبرْهناً بالعمل والآيات، أن كلامه فيه كل قوَّة الله لإعطاء الإنسان النور والحياة والقيامة من الأموات.

ثم أرسل المسيح لنا الروح القدس لكي يبرهن ويشهد أولاً أن المسيح هو «كلمة الله» «ابن الله» الذي تجسَّد، لكي يعطينا في سر جسد الكلمة كل عطايا ومواهب "كلمة الله" نورا واستعلانا وحياة أبدية.

وما سر الإفخارستيا، الذي هو أكل الجسد الإلهي وشرب الدم الإلهي، إلاَّ تعبيرٌ واقعي حي عن أكل "كلمة الله"، فكان في العهد القديم يُكنَى به عن أكل كلمة الله بحفظها في القلب والتلذذ بها في الفهم: «وُجدَ كلامُك فأكلته، فكان كلامك لي للفرح ولبهجة قلبي» (إر ١٥: ١٦). أما وبعد أن تجسدت "كلمة الله" فقد أصبح أكلها أكلاً واقعياً، أكلَ جسد حقيقي وشربَ دم حقيقي. فبعد أن كان الأكل في القديم رمزياً يُرمَز به عن قبول الكلمة كوصية، أصبح الأكل فعلا إيمانياً لقبول دخول "كلمة الله" في أحشائنا وفي كياننا كله كشخص حي بلحمه ودمه. فنحن في سر الجسد والدم نأكل بالإيمان "كلمة الله" المتجسِّدة، أي شخص المسيح نفسه، فنحيا كخليقة جديدة. حيث يتم فينا قول المسيح «مَنْ يأكلني فهو يحيا بي» (يو ٦: ٥٧)، وذلك لأنه من صميم عمل "كلمة الله" أنها تخلق وتُحيي: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله» (مت ٤: ٤).

فلقمة الخبز و"الكلمة" الخارجة من الله هما الاثنان قوام حياة الإنسان، وفي الإفخارستيا تتلاحم الحقيقتان في سر واحد فائق.

هنا أَكْلُ المسيح على مستوى "الخبز والخمر" المتحــوِّلين، هــو في الحقيقة أكل سري لشخص المسيح "الكلمة"، سر الإفخارستيا إذن هو سر "كلام محيي" كلام الله لنا، على مستوى الفعل والعمــل «الله ... كلَّمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه» (عـــب ١: ١، ٢). لاحِـــظ أن الرسول يقول: «كلَّمنا "في" ابنه»، هو إذن كلام سرِّي نـــسمعه مـــن داخل المسيح إذا كنا في المسيح متحدين، في المسيح نـــسمع كـــلام الله الذي هو هو "الحياة، والحكمة، والقوة، والبر، والقداسة، والفداء". سر الإفخارستيا يجعلنا مباشرة في المسيح ويجعل المسيح فينا في الحال، لأننـــا بالإيمان نأكل جسد الكلمة ودم الكلمة. الأكل هنا يرتفع إلى مـــستوى الروح لأن الجسد جسد روحاني إلهي والدم دم روحاني إلهـــي، لـــذلك فالانتقال من الإحساس بالأكل والشرب إلى مستوى الروح ضرورة حتمية.

لذلك حينما نأكل جسد المسيح ونشرب دم المسيح فنحن نقبـــل في داخلنا كلمة الخلاص والفداء والبشارة، فننطلق نبشِّر بتجسُّد الكلمـــة وبموته ونعترف بقيامته: «كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكـــأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء» (١كو ١١: ٢٦). فالأكل هنا صيغة إيمانية، هو أعلى اعتراف صامت، هو نوال قوَّة ناطقة، هو قبول ســـرِّي لحلول "الكلمة" الخالقة والمحيية والفادية، في أحشائنا.

ولكي نعي هذه الحقيقة يلزمنا أن نتذكر على الدوام قوة «الكلمـــة» وسلطانها حينما كان ينطقها المسيح، ثم يقبلها النـــاس بـــسماع الأذن ويؤمنون بها، كيف كانت تشفي الأعمى وتُطهِّر الأبرص وتقيم المريض وتحيي الميت!!

إن مجرَّد طاعة كلمة المسيح كانت كفيلة أن تعطيها الفرصة لتعمـــل عملها الإعجازي الفائق للعقل: «تأتي ساعة وهي الآن حـــين يـــسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون» (يو ٥: ٢٥).

هنا التناول من الجسد والدم حسب وصية المسيح الصريحة هو بمثابة قبول لكلمة المسيح، ليس هذا فقط بل وقبول للمسيح نفسه بصورة إيمانية عالية جداً، هنا قبول "الكلمة" وطاعتها يرتفعان من مستوى السمع والتصديق إلى مستوى الثبوت الدائم والاتحاد، "الكلمة" هنا تستقر لا في فكر الإنسان فقط بل وفي أحشائه أيضاً كقوة حياة لا تزول تطهِّر وتُحيي وترفع إلى السماء «خبَّأت كلامك في قلبي لكي لا أُخطئ إليك»! (مز ١١٩: ١١)، «أحيني ككلمتك»! (مز ١١٩: ٢٥)، «كلمتك مثبَّتة في السموات» (مز ١١٩: ٨٩).

هنا تظهر وساطة المسيح الفريدة بين الله والناس، فالله بواسطة يسوع المسيح لم يَعُدْ غريباً عن الإنسان، ليس هو آخر الآن بالنسبة لكل مَنْ يقبل المسيح، لأن كل مَنْ يقبلِ المسيح ويأكل جسده ويشرب دمه تستقر فيه "كلمة الله" استقراراً أبديا، وبالتالي تنسكب فيه الحياة الأبدية. الله نفسه يدخل الإنسان، والإنسان يصير هيكلاً لله وهكذا تتم خطة الله الأزلية أن يجمع الإنسان إلى نفسه كخليقة محبوبة «أنا فيهم وأنتَ فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد وليعلم العالم أنك أرسلتني وأحببتهم كما أحببتني» (يو ١٧: ٢٣).

خاتمة

هذا هو يسوع المسيح ابن الله الوحيد، الكائن في الذات الإلهية منذ الأزل، الذي وُلِدَ من العذراء مريم ميلاداً عذراوياً طاهراً في ملء الزمان ليجسِّد لنا القداسة والحب الإلهي الأبوي والوداعة واللطف المذخر في قلب الله من نحو الإنسان.

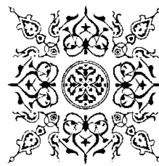
هذا هو المسيح محور التوراة كلها ورجاء التاريخ وكل الأنبياء، الذي جاء في ملء الزمان ممسوحاً من الله بقوة علوية فائقة وآيات ومعجزات، يعلن الخلاص الذي دبَّره الله، لا بكتاب ولا بعلم ولا بحكمة عقلية، بل بفداء عظيم أكمله بنفسه في ذاته في ابنه، ابن محبته - الذي قدَّمه بحرية مشيئته ليذوق الموت عن جهالة العالم كله ثمناً وقصاصاً عن خطايا كل البشر، متحملاً الآلام والعذاب حتى سَفْك الدم على الصليب، بجسده الذي أخذه منا ليقدِّمه ذبيحة إثم عنا.

هذا هو المسيح كلمة الله الذاتي الأزلي، الكلمة المهيبة الحاملة لسر الخلق والخليقة والشفاء والتجديد والحياة الأبدية، الذي مات بإرادته ليعطي الطبيعة البشرية المائتة سر القيامة والتجديد وقوة الحياة الأبدية لكل مَنْ اعتمد مؤمناً ومتحداً بموت المسيح وقيامته.

هذا هو يسوع المسيح الذي بعد أن أكمل رسالة الفداء على الصليب ومات عن كل إنسان، قام من الأموات بملء قوَّته وسلطانه وإرادته وظهر لتلاميذه ولجموع كثيرة، معلناً بقيامته سر تفوقه على الألم والموت والقبر محقِّقاً بصعوده إلى السماء سر لاهوته المقتدر فوق كل رئاسة وسلطان وكل اسم على الأرض أو في السماء.

هذا هو يسوع المسيح الذي نعبده كابن مع الآب والروح القدس، ذاتاً واحدة، إلهاً واحداً، في وحدانية لاهوتية لا تقبل التقسيم أو الانفصال، بسبب التساوي المطلق والاتحاد المطلق بين الآب والروح القدس الذي يحفظ للذات الإلهية وحدتها وكمالها واستقلالها.

هذا هو يسوع المسيح الذي نحبه بكل قلبنا وفكرنا وقوّتنا حتى الموت، لأنه هو الذي سبق أولاً فأسَّس بصليبه سر هذه المحبة الباذلة حتى الموت، ثم سكبها في قلوبنا بالروح القدس الذي أرسله في اليوم العاشر من صعوده. ومنذ ذلك اليوم والأرض كلها مضطرمة بدائرة من لهيب الحب الإلهي الذي لم يَخْمد أُواره حتى هذه اللحظة، بل إنه يزداد يوماً بعد يوم في قلوب الألوف والربوات والملايين من كل لسان وأُمة في كل جيل على وجه كل الأرض، ونحن شهود لذلك.



تُطلب من:

دار مجلة مرقس

القاهرة: ٢٨ شارع شبرا ــ تليفون ٢٥٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ٨ شارع جرين ــ محرم بك ــ تليفون ٤٩٥٢٧٤٠

أو عن طريق موقع الدير على الإنترنت:

www.stmacariusmonastery.org